

السلطان

سليمان القانوني سيدُ العَصر الرائع

أوقاي ترياقي أوغلو



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



السلطان

سليمان القانوني سيِّدُ العَصـر الـرائـع

تأليف

أوقــاي تريــاقي أوغـــلو

OKAY TIRYAKIOĞLU

ترجمة

ترجمة عبد القادر عبد اللي



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL



الطبعة الأولى: 1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0705-2



تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج "أضواء على حقوق النشر" في أبو ظبي.

This edition has been produced with a subsidy by the Spotlight on Rights programme in Abu Dhabi

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة التركية

SULTAN – Bir Kanuni Romani

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع



Translation is sponsered by TEDA

T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi

Kutuphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu

Fevzi Paşa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski sayıştay Binası)

06030 Ulus/ANKARA/TURKEY

e-mail: teda@kulturturizm.gov.tr – Web: www.tedaproject.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

الفصل الأول

ستدور الدنيا عكسياً

I

الجرأة شكل من أشكال الوطن

"عام"

23 آب 1528 - بودين

في شهر آب عموماً، وخاصة في النصف الثاني منه، تُغطي السماء بعد الظهر غيومٌ رمادية متناثرة بدءاً من بودين ووصولاً إلى نهر طونا، وتهب ريح باردة من الشمال الغربي تُشعر الإنسان بالقشعريرة. يعرف السكان المحليون جيداً أن الإشارة الأساسية التي تنبئ بتحول الفصل المقترب تتمثل في هبوط جدار الغيوم الزهرية المصفرة لتلف المكان، ولمعان الخطوط البنفسجية الكثيفة المتموجة بضوء حالم عليها. غادرت الأسماك المسطحة مخابئها المظلمة في الأعماق، واقتربت من السطح بشكل مدهش، وأنارت وجوه صيادي السمك المهمومين بألف هم. لدى صيادي السمك أسرارٌ صغيرةٌ يحرصون على تجنب البوح بها للغرباء. إذ يُعطي نهر طونا المخلص الصيادين بشارة اقتراب موسم الصيد وصعود السمك إلى السطح من خلال رائحة الطين العطرة التي تنتشر إلى مسافة ميل. أهالي القرى الكبيرة والصغيرة على الضفتين، المنتظرون تلك البشارة يؤسسون أسواق السمك بحيوية كبيرة. والمؤكد أنه لا تُستهجن رغبة التجار من الأهالي الآخرين بالحصول على حصة من هذه *الكعكة*. وتبدأ مياه

طونا المباركة بدفق البَرَكة ذات البريق الفضي مع اقتراب الأيام الأولى من الخريف.

وبالرغم من استخفاف جميع المسافرين براً أو نهراً من فيينا بهذا التغيير المفاجئ، واعتباره أمراً عادياً فهم لا يستطيعون المرور من دون أن يملأوا بطونهم بالأسماك التي يبيعها بائعو السمك الجوالون. يترك الناس خلافاتهم الديني واللغوي والعرقي خلفهم على الضفتين الطينيتين اللتين تصدحان بالفرح وتشبهان ساحات العيد، ويختلطون بقرب عاطفي جميل مع لذة تناول السمك الطازج.

ولكن الحقيقة أن لنهر طونا سراً آخرَ لا يدركه أحد جيداً حتى سكانه، وهو أنه منطقة مهجورة ومخيفة. إذا لم يصادف المسافرون دليلاً جيداً، وقبطاناً مخلصاً لا ينام في أثناء عمله فسيرون عدداً غير متناهٍ من الروافد المتفرعة عنه في الطريق من فيينا إلى بودين ومنها إلى البحر الأسود. لا يمكن رؤية نهر مخاتل في مجراه إلى هذه الدرجة في العالم.

أمطار الخريف في مطلع أيلول تُفرّعُ المجرى إلى روافد عميقة بشكل مدهش. ونهاية المراكب الضالة دوار ماء غائر تطفو على سطحه حيوانات نافقة، وإذا كانت محظوظة أكثر، فستصل إلى إحدى الجزر المشكّلة من الرمل والحصى وتعلق بأغصان أشجار الصفصاف. وفي الحالتين، لن تكون نهايتها جيدة. توازن الطبيعة يأسر الغرباء حقيقة للوهلة الأولى بعد أن يأسرهم سحرها. كما أنّ مجابهة نزق المياه نحاسية اللون المفاجئ، وجذور الأشجار الممتد عمرها إلى قرون والتي تعبر مغارات عميقة تشكلت نتيجة التهام المياه الشره لجزر متشكلة من الطمي والحصى والأغصان تجعلهم ينهارون في أعماقهم.

لا يستطيع التجول بسلام في هذه المنطقة إلا البحارة المهرة، والمبعوثون الألمان والعثمانيون الدهاة، والجواسيس الذين يرافقونهم. الرجلان اللذان يجلسان على متن زورق شراعي يسيّرانه نحو الخلف إلى مستودع صغير في قَصَبة "فيشامنت" القاسية شرق فيينا بعشرة أميال، من الجواسيس العثمانيين المتجولين في المنطقة منذ قرابة عام. ولكن لديهما فرقاً عن أمثالهما. فأحدهما مؤسس شبكة "الهلال الفولاذي" وهيمي أورخون جلبي، والثاني كارلوس الفارس إسباني الأصل، أو باسمه المسلم "الغر كمال الغرناطي". انفصلا عن فريق كمال باشا سرزلي القادم إلى فيينا من أجل إصلاح العلاقات الدبلوماسية التي خربت نتيجة استرداد فرديناند ملك النمسا بودين من ملك المجر جون زابوليا قبل عام، ومنذ ذلك اليوم لم يهدرا لحظة واحدة من وقتهما. ومنذ أكثر من ثلاثة أشهر وهما يقومان بإجراء تواصل بين الإنكشاريين ومقر دعم حراس زابوليا الذين يعملون خفية.

كان وهيمي أورخون جلبي بخبرة عامه الثالث والأربعين ونضجه يركز بكل انتباهه، ويسيطر على الاتجاهات كلها، وفي الوقت نفسه يتحدث مع تلميذه الشاب. بدأ شعره الغزير يخف، وخضّب البياض شاربيه ولحيته الخفيفة. ولكن موهبته السياسية التي طورها عبر السنين، ولغته اللاتينية المتقدمة، وثقافته الواسعة منحته مظهراً راقياً. فهو يبدو أرستقراطياً لاتينياً بسرواله الإفرنجي الضيق، وقميصه الحريري ذي الكشكش على نهايتي كميه وفتحة رقبته، وقبعته العريضة ذات ريشة الطاووس وردائه الفضفاض، وقد تعلم مع الوقت ألا يستهجن حالته: ساقا جزمته المقلوبتان بزاوية معينة والمصنوعتان من جلد الغزال لامعتان حتى في هذه الساعة من اليوم، وعلى الرغم من أزقة البلدة الطينية.

قال بصوت ناعم نعومة الطحالب المتدفقة من بين أخشاب الزورق: "انظر إليّ يا كمال، لا تغضبني، سافرنا كل هذه المسافة عبر طونا، أما أدركت أنه لا يمكن الوثوق به؟". وقال محتداً بالرغم من أن عينيه على أفق الشمال الذي يحمل على كتفه غيوماً بلون الليل: "أقول لك، قف بحيوية يا ولد، وأجب بسرعة!".

تكلم الشاب الذي ما زال في الثانية والعشرين من عمره، وفي عينيه الزرقاوين القليل من الاستخفاف: "انظر يا آغا أورخون، هل كنت ستبقيني بجانبك لو لم أفهم هذا الأمر البسيط؟ وثقت بي، وحميتني، ورعيتني، ليرض المولى عليك". لم يكن يختلف عن أجير فارس بقميصه الصوفي الخشن، ومعطفه الطويل الشبيه بجبة الشماسين ذي القبعة من الخلف، وسرواله الضيق.

رقّ صوت وهيمي فجأة: "وليرضَ عليك يا تلميذي أيضاً. ولكن، على الرغم من هذا سينشغل بالي عليك. أنت من مجموعتنا المسكينة التي تسهل التضحية بها. هذا ما يثير قلقي. أنت تحمل اندفاعاً يمنحك إياه عمرك. وعندما يمتزج شبابك مع فطرتك المندفعة والحماسية والمقدامة فإن الحذر لا يتفوق عليها".

نظر كمال الغر بوجهه الأبيض البيضاوي المحمر إلى وجه الرجل الأبيض الخبير المقابل له وعينيه الطافحتين بالرمص، وقال مبدياً الصبر: "لا تشغل بالك يا آغا". ثم أضاف بنبرة محببة: "هذه المياه صديقة من تعرفه...".

"أنت طيب وجيد، ولكنك غير جدي في القضية التي لا تدخل عقلك...". الغيوم المحملة بالمطر المتناثرة فوقهما، ولمعان البرق الأزرق على سفوح جبال الألب الشرقية الحادة ملأت الجو بالخوف للحظة. "إنّ ما يشبه حالتك غير المهمومة هذه ذهب

برؤوس الكثير من الشجعان المشاهير، وتسبّب بمحو أسمائهم عن وجه الأرض".

قال كمال متنهداً: "آغا، أنت قائد شبكة *الهلال الفولاذي* ذائعة الصيت في العالم، ولكنك اسم على مسمى، إذ إنك واهم أكثر من اللازم".

اعترض أورخون جلبي بحدة مصطنعة: "يا وقح، لهذا السبب ينادونني وهيمي". وصمتَ بتعبير المفكر برهة: "كم مرة طلبت منك ألاّ تنام وأنت تمسك الدفة. قلت لك إنك إن فعلت هذا فسأكسرُ رجليك، ولكنك لم تعر الأمر انتباهاً. قلت لك: سأطعمك للسمك، ولم تسمع. قلت لك: سأضربك *فلقة*، فلم تخف. انظر يا بني، لا تثق بكَرم طونا، وإلا فإن شبكة هذا النهر الجميل ستلفك بهدوء، ومهما تخبطت فلن تستطيع التخلص منها، وستُدفن... ثم ستضطر للتعرف على وجه هذه المياه الرقراقة الغدارة المؤلم وهي تحتضن ابنها التركي بحنان الأم....".

قال كمال بهدوء وحزم: "افتح فمك على الخير يا آغا. ليكن معروفاً لديك أن تعبير *يسهل التضحية به* الذي تصفني به يؤلمني، ولا أتقبله بأي شكل...". انطلق من بلعومه نفس غاضب يشبه خوار عجل: "تقولها في بعض الأحيان حاملة انسحاقاً يصعب فهمه". سيطر الغمّ على صوته كثيراً، ثم حملق: "هل يستخف شهم جيد كسليمان خان بأحد رجاله ويضحي به حتى لو كان من أبسطهم يا أورخون آغا؟".

زمَّ وهيمي شفتيه بقوة، وهز رأسه بندم وإن كان قليلاً: "من الواضح أن سليمان خان استلّ سيفه من غمده في سبيل العدالة يا بني. وقد فتح أجداده أمثال مراد الثاني خان، والسلطان محمد الفاتح خان

قلعتي بلغراد ورودوس اللتين لم يستطع فتحهما أكبر قادة العالم، وضيّق العالم على أكبر جيش صليبـــيّ تأسس حتى الآن في موهاتش".

"إنك تثق بأن سليمان خان استلّ سيفه مـــن غمـــده في ســـبيل العدالة، ولا تثق بأنه لا يمكن أن يضحي برجاله يا آغا؟".

فجأة، ركّز وهيمي عينيه بعيداً عن رصيف المستودع الذي تفوح منه رائحة الصدأ والقطران: "كنا في سهل موهاتش يا بـــني. وقـــت السحر من يوم الأربعاء 20 ذي القعدة 932 (29 آب 1526). أتذكر أننا أقمنا صلاة الفجر معاً تحت مطر خفيـــف، وكـــان رداء ســـلطان السلاطين الأحمر فوق درعه يتموج بشكل خفيف وهو يدعو: *يا الله! أنت القادر والقوي يا الله! أنت الناصر، وأنت اللطيف، وأنت الحامي فلا تحزنْ أمة محمد الفريق العاجز أمامك، ولا تشمت الأعداء الكفـــرة بها!* وبينما كان هذا الدعاء ينتشر ليصل إلى الجـــيش كلـــه بواســـطة المنادين، كنا نقول جميعاً بصوت واحد: *آمين!* بعدئذ، تجوّل ســـليمان العظيم على صهوة حصانه الكحيل الأحمر بين السرايا مخاطباً جنـــوده: *أيها المسلمون المجتمعون تحت الراية الشريفة المباركـــة، يـــا آغـــاوات الإنكشاريين وجنود البحرية، وصانعي الذخائر، وجنودي ومقـــاتليّ، أيها الفرسان والمدفعيون والطلائع، العالم كله يعرف أن المســـلمين لا يقاتلون إلا في سبيل الله. ونحن جئنا إلى هنا لنحارب المفسدين الـــذين يمنعون نشر دين الإسلام. إننا شهداء إذا متنا، ومجاهدون إذا عشـــنا... أروني أنفسكم!* حينها، انفجرت كل كلمة مـــن كلماتـــه في قلوبنـــا كالصاعقة، وكأنها تقطع أنفاسنا يا بني. لم يكن المطر فقط ما يسيل من نبعي عينيه اللتين تلمعان كاللهب إلى لحيته المبتلة. فقد أدمـــعَ عينيـــه الشوقُ الطاغي للشهادة الذي يظهر على المحاربين الحقيقيين مع اقتراب المعركة. بعدئذ غادرت صفوفنا بهيئة واعظ كاثوليكي".

لم تغب عن عيني وهيمي الرعشة غير المتوقعة التي اجتاحت جسم كمال القوي. كلما حان دور ذكريات معلمه التي تدور حول تسلله بين الأعداء من دون تردد، كان كمال يتعلق بأقرب الذكريات من أجل تغيير الموضوع. حينئذ، أدرك وهيمي بشعور أبوي أن قلب تلميذه يخفق بقشعريرة وارتباك غير محتمل. نعم، إنه مثل الكثير من شركاء قدره لم يجد الفرصة لرؤية أبيه أو أمه.

"وماذا عن مراسم الأخوّة التي حضرناها في صوفيا يا آغا؟ احكِ لي عنها بلسانك الحلو". وألح كمال قائلاً: "ما زالت أمام عينيّ، ولكنها لم تبق في عقلي لأنها كانت المرة الأولى التي أحضرها".

"في الحقيقة، القضية هي تراجع تنظيم الأطراف من يوم إلى يوم يا كمال. لهذا السبب، إن مراسم الأخويات الفخمة تحمل مقصدها في ذاتها عندما تكررها. يعلم الله أن السلام جيد، ولكن تقاليد الأطراف مختلفة. لا تخرجها من بالك لكي لا يدب الكسل بين المحاربين؛ فيقعون بادعاء المستحيل، ويترددون بالذهاب، ويحاربون بفوضوية. انظر، هذا سبب تجرؤ الأعداء الفرنجة في الفترة الأخيرة إلى درجة ما. نعم، لقد حدّثوا بنادقهم ومدافعهم، حتى إنها صارت تتفوق على ما عندنا. بالنتيجة، يجب ألاّ نُخرج هذا من عقولنا لأن الكفار يتجرأون عندما تكون الأطراف مترددة. لا يمكن أن يعيش المحاربون إلا بالغنائم. ففي مجتمع زراعي ومحارب كبير كالمجتمع العثماني، يبدأ الفقر ويزداد الغضب حين تطول فترة السلام. فوجئت عندما رأيت المتسكعين الفوضويين والمتصوفين والهاربين من الجندية إلى جانب المقاتلين الشجعان. ولكن، هذه هي حقيقة الأمر. هذا هو سبب التعقيد في بنية الأطراف. في الفترة الأولى يشمخ الجميع حتى السادة، ويقفون على مسافة من المركز، ويميلون إلى التمرد عندما تضعف السلطة المركزية.

في فترة بيازيد خان الصاعقة* أصبحت المركزية تقليداً في الدولة. ولكنه تراخى مع الأطراف لكي لا تصطدم مع المركزية. وعلى الرغم من هذا، لم يَحُلْ دون ضعف تنظيم الأطراف".

"هل تُحل المشاكل إذا حافظت على ذكرى الأخوية يا آغا؟".

ابتسم وهيمي بهدوء: "لعل هذا... ولكننا وصلنا إلى وقت أرى فيه أن التراجع أكثر كلفة من تأسيس دولة جديدة".

تحدث كامل بدهشة وانزعاج: "ماذا تقول يا آغا؟ هل ترى أنّ حالنا يصعب الخروج منها إلى هذه الدرجة؟".

قال وهيمي وهو يهز رأسه إلى الجانبين ببطء: "الخروج منها ليس مستحيلاً. الخروج ممكن، ولكن هذا يتطلب *صدقًا*. يجب أن تتخلى عن نفسك...".

"ألم نتخل عن نفسينا أنا وأنت يا آغا؟ وماذا عن شبكتنا الكبيرة؟".

"الشبكات تأتي وتذهب يا بني. ولكن، عندما يبدأ جوهر ابن آدم بالخبو، وتُنسى فكرة التضحية بالنفس، يدير الجميع ظهورهم إلى الكارثة المتربصة بهم".

هز كمال يده بحدة نتيجة انقطاعه للحظة عن روحه التي تفيض. اغرورقت عيناه الزرقاوان بغضب جذوره تمتد في عمق سحيق: "ستتجلى الأخوّة يا وهيمي آغا. فكما تصالحت المولوية في النهاية، فإنها ستذكر الناس بنفسها بسرعة. حينئذ ستعود روح الفتح، والصدق مع الذات كما كانت في الأيام الأولى...".

---

* بيازيد رابع السلاطين العثمانيين لقب باسم يلدرم (أي الصاعقة) نظرا لحركته السريعة بجيوشه وتنقله بين عدة جهات بمنتهى السرعة.

"أنت شاب يا كمالي، وبعمر يجعلك تعتقد بإمكانية تحقيق المستحيل. عندما تبدأ بالشيخوخة مثلي، همس الاحتمالات والكلمات السلبية بأذنك دائماً...".

أرعدت السماء عن قرب أكثر، ولفت ضفتي طونا رائحةٌ صاعقةٌ انتشرت في الجوار. وفي الوقت نفسه، بدأ المطر يهطل على السقوف ببريق رصاصي على طول الضفتين.

II

لّف جاويش الميمنة حزامه المصنوع من قماش الأطلس المخاط بدورين من خيوط الذهب جيداً تحت قفطانه الأخضر الواسع، وأمال قبعته الجلدية إلى الخلف بعيداً عن جبهته المتعرقة. آفاق صوفيا المغبّرة، وستارة البخار الأرجوانية المنسدلة تزيد صورة المدينة الملتهبة تحت أشعة شمس بعد الظهيرة الحمراء تعكراً، وتتماوج بهدوء حتى من حيث يقفون على المرتفع. وبحكم العادة السلجوقية، انتظر الجاويش مدة سبع شهقات عميقة، وقال: "يا أرواحي، يا رفاقي، يا إخوتي... اسمعوا جيداً، واعرفوا مبادئ الحديث وبلّغوها، لأن هذا الطريق طريق الشجاعة، وطريق المحمدية. شدة المؤمن الشجاع، وقوة ذراعه، وتكاتفه مع إخوانه تكسبه فرادة وصفاء. إذا اكتملت الفتوة، اعرفوا أن الشجاعة والسمو الأخلاقي قد اكتملا. الشجاعة والاستقامة تكونان بإمساك اليد واللسان والظهر عن الحرام. ولا تُراعى الآداب والأسس إلا على هذا النحو. فرض آباء الأخوية اللغة التركية على المهاجرين إلى الولايات الرومية لكي يفهموا ما يسمعونه من المدني والقروي. وهكذا يُسيّر التركي النظام، ويصعد من الأطراف إلى الآفاق، ويحتضن *التفاحة الحمراء* بالود والعدالة...".

تقدم جاويش الميسرة إثر حركة خفيفة من والد الأخوية، وبدأ يجول بين الإخوان بصينية معتقة من خشب البتولا الأبيض فيها خبز وملح. وتوقفت الصينية أمام كل أخ برهة فيما تمتم الجاويش: "من أجل حق الخبز والملح"، فيأخذ الأخ قطعة خبز والقليل من الملح، ثم ينحني قليلاً، فتنتقل الصينية إلى الأخ الآخر. في اللحظات نفسها، نهض النقيب الجاثي بجانب والد الأخوية، وأشار إلى جاويش الميمنة إشارة خفيفة نحو الجرة الفخارية. تقدم جاويش الميمنة إلى جانب جاويش الميسرة مشيراً بحاجبيه المقوسين، وبدأ بتوزيع الشراب على الإخوان.

حين قُدّمت الكأس الأخيرة لوالد الأخوية، وأمسكها بأصابعه التي تفوح منها رائحة التراب والورد، مسد النقيب الضئيل لحيته المخضبة بالشيب، ونادى بصوت قوي أجش: "يا جنود طريق الحق، السلام على من تمنطق بحزام الأخوية، السلام على من ارتدى الكفن قبل الموت، وسحب يده من الدنيا، ولم يؤذ أحداً بلسانه أو يده! يا أحبائي، جعل الله التراب بين أيديكم ذهباً!".

صرخ الإخوة جميعاً بمن فيهم النساء والأولاد والأغرار بصوت واحد: "آمين!".

"... أعزكم الله في الدنيين يا أحبائي. جعل الله في عملكم خيراً يا أحبائي. لتكن الملائكة وأولياء الله بعونكم يا أحبائي، ولتكن في الآخرة الأظفار العشرون كلابات برقبة من لا يسمع أقوال العلماء، ويلتزم بنصائح الشيوخ، ولا يحفظ حق الأب والأم والمعلم والمدرس، ومن يظلم الناس أو يأكل حق اليتيم، أو باختصار من لا يخاف مما نهى الله عنه!".

"آمين!".

"الشكر لله لأنّ الهموم انتهت أخيراً، وأخرج إخوتُنا المولويون الدجال المغولي المفتن من بيننا... ولكن، مع الأسف حدث ما حدث،

ومات من مات، وبقي من بقي، والعفو عند المقدرة كما تعلمنا من الماضي.

تمسّك ابن آدم خليفة المولى في الأرض بطريق المغفرة، وأنزلت الملائكة برهان الجنة، وغمرت وجهه وعينيه وقلبه بالسرور. اغفروا، وكونوا من المسامحين، ولا تكونوا من المنتقمين والظالمين. اللهم ضع بين من يفعل هذا والإخوان مسافة خمسمئة سنة، بُعدُ المسافة بين الجنة والنار. ولنصرخ *تباً* للمحاربين والغزاة الروم وأخوياتهم، وشيوخهم، وقادتهم!".

"تبـ...ـاً...".

"على من يريد دخول طريقنا أن يطلب السماح. هل تسامحون؟".

نظر القدامى والأغرار أمامهم وردوا: "سامحنا!".

"هل تصالَح المتخاصمون؟".

"تصالحوا!".

"في هذه الحال، لتوضع أمامكم أحزمة الإخوان وسيوفهم قبل الكلام!".

وُضِعت أحزمة الإخوان وحلالهم وسيوفهم؛ مع ترك مسافة نصف شبر بينها على سجادة صوفية ذات رسوم هندسية.

"هيا، عددوا مهارات أركان الحديث واحدة واحدة؟".

وإثر هز الشاب المتعلم على رأس الجالسين، أطرق رأسه متأدباً بداية، ثم طلب الإذن وبدأ يعدد: "لا يجوز أن يتكلم الأخ الشهم كلاماً نابياً، ولا يجوز أن يلتفت الأخ الشهم يميناً ويساراً وهو يتكلم، ولا يجوز أن يقول الأخ الشهم *أنا*، وعليه أن يتكلم بصيغة المتكلم والمخاطب الجمع، ولا يجوز أن يعبّر الأخ الشهم عما يريده بحركات اليدين والذراعين".

هز والد الأخوية رأسه الذي يضع عليه عمامة بهدوء وقال: "بلى! مناسب!".

التفت النقيب إلى الطالب المجاور له قائلاً: "عددوا آداب التجارة ليسمع معشر التجار، وليُسمِع السامع من لم يسمع!".

تمتم الشاب الآخر أبيض الوجه، ذو الخدين المائلين إلى الحمرة، وتململ ببطء وقال: "القول بلين، والقناعة بما يكسب، وإعادة ما بيع إذا كان مغشوشاً، وعدم فسخ العقد التجاري، والالتزام بالعهود".

"هيا، أضف آداب السوق يا مهذب!".

ابتلع الشاب ريقه وتابع: "ألا يُدفع أحد بكتفه، وألا ينادى للبعيد، وألا يقهقه، وألا يمخّط، وألا يؤكل شيء مكشوف".

عندما قال والد الأخوية: "بلى، مناسب!". أمر النقيب الطالب الآخر: "عدِّد آداب الحارة وأركانها يا متعلم. عدِّدها ليكن لدينا تأدب، وحديث مهذب!".

المرشح الذي تكلم هذه المرّة كان ظليل الوجه، ويظهر من ملامحه وحاله أنه مريض. ولعله ليس شاباً كما يبدو عليه.

"لا يدور الأخ في الحارة من دون عمل، ولا يقف الأخ على هواه بجانب القادم من الطرف الآخر، ولا ينظر الأخ إلى النوافذ أو الأبواب المفتوحة، ولا يساير الأخ الأولاد بسذاجة".

"هيا، أضف آداب الضيافة يا مهذب!".

"لا يسير الأخ الضيف أمام المضيف، ولا يسأل الأخ الضيف: *ماذا هناك من طعام؟* ولا يجلس الأخ الضيف طويلاً بعد تناول الطعام...".

قال والد الأخوية: "واضح، مناسب!". ثم نهض واقفاً أمام حضوره كلهم بمن فيهم وهيمي أورخون جلبي، وكمال الغرناطي.

كان قوله كلمة *واضح* إشارة إلى انتهاء المراسم. نهض الجميع بعده بالتتابع، وحسب الآداب.

التفت النقيب الضئيل إلى مرشح الأخ الرابع قائلاً: "وأنت يا متعلم، قل كيف يقطع الإخوان الأزقة؟ قل بسرعة لتبرهن عن معرفتك بها! الأذن والعين بابا العلم، والطريق إليهما هو الأدب. قل ليُعرف ملك الآداب!".

تكلم الشاب الذي خط شارباه حديثاً، وقبعته الصوفية الحمراء مائلة قليلاً إلى الجانب: "يجب أن يكون الأخ حليماً لكي لا يسير بحدة. ويجب أن يكون وقوراً لكي لا يدوس في الحفر. كما يجب أن يكون بصيراً لكي لا يمشي متلفتاً إلى جانبيه. ويجب أن يكون هادئاً لكي لا يقفز من حجر إلى حجر. ويجب أن يكون حكيماً لكي لا يسير وسط الطريق. كما يجب أن يكون فاضلاً لكي لا ينظر إلى خلفه. يجب أن يكون الأخ معظّماً للكبير لكي لا يسير أمامه، ويجب أن يكون عزيزاً ولا ينشغل في الطريق إذا سار مع أحد لكي لا يجعله ينتظر...".

لامس والد الأخوية لحيته بهدوء، وهو يقول: "بلى، مناسب! لتضرب ثلاثة عقد على أحزمة هؤلاء الشجعان الذين بيّضوا وجوه رفاق أجدادهم ليكونوا مسيطرين دائماً على أيديهم وظهورهم وألسنتهم، وليقبّلوا سيف الأخوية ويضعوه على رؤوسهم، ويسيروا في طريق الحق!".

حينئذ، بدأ النقيب يطلق صيحاته بصوت أجش للمرة الأخيرة: "احترم الثُلاث، والسباع، والأربعينيات... يا محمد! الله واحد! الله واحد! الله واحد! لا إله إلا الله! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم. لندعُ الله تعالى من أجل الوحدة، الفاتحة إلى روح خاتم النبيين سيدنا محمد المصطفى (ص) الطاهر المنور المطهر العزيز الشريف اللطيف، وإلى أرواح آله وأصحابه، وخلفائه الراشدين

الأربعة، والتابعين، وتابعي التابعين، والأئمة المجاهدين، والرسل والأولياء والعلماء العظام، والمشايخ الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، ومن أجل سلامة دار السعادة، ومن أجل أن تحفظنا أسراره وقدرته العلية وترعانا، ومن أجل السلاطين، ومن أجل أن يوسع كل يوم بأرض دولة سعادة حضرة سلطان السلاطين ويطيل عمر دولته، ومن أجل نصر جنود الإسلام أينما توجهوا، ومن أجل أن يهين أعداء الدين ويذلهم، ومن أجل سلامة والد الأخوية، ومن أجل أن يطيل عمر الدولة كل يوم!".

III

قال كمال الغرناطي وهو يبتسم من دون أن يخفي صدره المنتفخ: "أخبرني يا وهيمي آغا، نحن لدينا روح الأخوّة أليس كذلك؟". هدأت الريح منذ عدة ساعات، وأمسكا بالمجاذيف. تنير سطح النهر أشعة النجوم في السماء الخريفية نفطية اللون. والجو دافئ كليالي تموز منذ غروب الشمس، وتوقفت الريح الباردة فجأة.

قال وهيمي أورخون جلبي وهو ينظر إلى البخار المتصاعد من الماء: "نعم يا بني، نعم. ولكن عملنا يفرض علينا ألاّ نقول الحقيقة دائماً، وألاّ نتصرف حسب الشريعة والقواعد دائماً، وأن نخاتل ونراوغ من أجل سلامة دولتنا وأمتنا. وهذا بالتأكيد لا يتناسب مع مبدأ الحق في الأخوية. في مهنتنا علينا أن نكذب مباشرة من دون تردد، وأن نميّز الرياء عن الحقيقة، ونسمعه وكأننا نسمع حقيقة. وهذا عمل صعب. وألا يهتز موقفنا عندما نكون جزءاً من كذبة، وألا نتوه عن الطريق عندما نقع في مأزق، وألا نخفي ابتسامتنا عن وجوهنا، وأن نحتل نحن الجواسيس رأس قائمة كتّاب المراءاة".

هز الغرناطي رأسه بشكل خفيف موافقاً معلمه على الرغم من إحساسه بقليل من خيبة الأمل. نظرا نظرة ملل إلى الضباب الذي يحاصر الزورق وكأنه أشباح. حباً بالله، ما نوع وهيمي هذا من الرجال؟ كيف يستطيع عقله أن يعمل بهذا المستوى؟ وحتى إنه ذو مستوى عال من الدهاء؛ حيث إنه يشعر بعدم إمكانية الوصول إليه. كثيراً ما سمع كمال عن انفلاته وعدم التزامه بالترتيب الوظيفي والنظام، وهذا معروف في أقاليم الأرض الكثيرة. كان وهيمي في ذلك الوقت يسند ظهره إلى والده المرحوم جعفر أفندي السفريحصاري. واعتماداً على النفوذ الذي حققه من جرأته التي تجعله لا يحمي عينيه من غصن أو شوك فقد حرّف الأمر في النهاية إلى الطيش. وقد غدا علة لا براء منها؛ ممّا جعل الأهالي يهربون منه إذا تنفس.

بعد حملة مصر المباركة عام 1517، خسر جعفر أفندي هيبته، وبالتالي خسر أورخون جلبي مصدر دعمه الوحيد. لا شك أن هذا كان انهياراً سيئاً بالنسبة لشخص بدّد ثروة والده عدة مرات، ولم تكن لديه مهارة، ولم يعمل بالجاسوسية بعد. ولكن، عندما كلّفه السلطان سليم الجبار بوظيفة تأسيس *الهلال الفولاذي* وتنظيماته، غادره حظه في أيامه الأكثر ظلمة إلى مفترق طرق. فقد غدا قائدَ بيتِ الإنكشارية الثامن والعشرين من جهة، ومحارباً حقيقياً مرهوب الجانب أكثر من السابق من جهة أخرى. حسنٌ، ما المعرفة التي كانت لديه وانتبه إليها سليم خان من النظرة الأولى، ولم ينتبه إليها الآخرون؟ كان سبب تسجيل النبلاء الأتراك الذين يصعب ضبطهم أمثال وهيمي في بيت الإنكشارية هو وضعهم تحت المراقبة على الأغلب. ولكن، لا شك أن سليم خان قد شعر بصفة وراثية من نوع آخر لم تستشعرها العيون الأخرى.

غدا التنظيم المؤسس برعاية الوزير الأعظم بيري باشا، والمتطور باستمرار، تنظيماً مرهوبَ الجانب في العالم مثل تنظيم حشاشي حسن الصبّاح. وتحت إشراف سلطان السلاطين الدائم تحوّل الكثير من الضعفاء إلى محاربين أشداء، والكثير من القتلة إلى رجال ينجزون المهمات، وسمت مكانة الإنكشارية من خلال أعمالها التي لم تنقطع.

هذا حسنٌ، ولكن "كمال" من خلال علاقة المتدرب والمعلم المستمرة منذ قرابة العام لم ير أورخون جلبي متمسكاً بعمل دنيوي. لقد جُلب إلى هذه الأرض أسيراً في سن صغيرة، وتصلب جسمه، وقست مشاعره بالمعاناة لتغدو كتلك الأحجار التي يضربها الإنكشاريون. ولكنه أظهر موهبة ودراية بقدرته على القيام بأنواع الخدمات كلها على أبواب الباشاوات، وخرج منها أبيض الوجه. وإذا كان اليوم محبوباً ويحظى بمكانة، فلا شك أنه يدين بهذا لصبره غير المحدود كالبحار المظلمة التي خُطف منها، وإلى دموع صبّها والتي تملأ السماء.

مشّط ذهنه مجدداً. لم يشهد وهيمي يوماً وهو ينصب خيمته وحده، أو يمد يده إلى حجر القدح ليشعل ناراً في أي سفرة. كان يترك هذه الأعمال للأغرار أمثال كمال، ويكلفهم حتى بإعداد طعامه. وفي أثناء ذلك، كان يجثو ويتابع حركة السماء التي لا تهدأ. أصلاً لا يليق شيء غير السيف بيده. كان يجد صعوبة في كل مرة يرتب فيها أغراضه الشخصية، ويرتبك بين معاونيه على الرغم من أن أمكنتها معروفة، ويثور على نفسه وسط قرقعة تلك الأغراض. كان يسرع حتى في ارتداء ثيابه عندما لا تكون هناك ضرورة، ولا يخرج أبداً عن مظهر القروي العادي.

وكان يُحبّ أن يُرى وهو يمسك سيفه المروي، وخنجره مزدوج الرأس المرصع بالجواهر أيضاً. كما كان يحب تحريك نصل السيف

المشحوذ أمام أشعة الشمس ورؤية بريقه، وينشغل ساعات بصيانة السبطانة قبل أي عملية أو بعدها. لم يكن يخطر بباله حتى الطعام والشراب. كيف تتحول الشخصية بشكل لا يصدق في زمن كهذا؟ كان متماسكاً كما يتماسك قائد أمام جيوشه، ويمطر رجاله بالأوامر بحرارة متدفقة من أعماق ذهنه الذي يعمل بحيوية مخيفة إلى صدره الذي يصعد ويهبط كالمنفاخ، وإلى بقية أعضائه التي قويت بفعل الألم.

إنه موجود بوجود سيفه لأنه محاربٌ حقيقيٌّ. وكلما بدت كتلة العضلات المتصلبة تلك وكتفاه المتصلبتان، يكتفي منافسوه المحتملون بالفرجة عليه من بعيد بنظرات مفعمة بالخوف، ولا يقبلون الوقوف أمامه بسهولة. كان من الواضح أنه يستمتع بالمنازلة، وكان منتبهاً لتحوله إلى خصم مخيف فعلاً.

دخل كمال تحت إمرة وهيمي منذ أن صادفه لأول مرة في دار معلمه رئيس عسس إسطنبول (المخلب الحديدي) مصطفى باشا الطوقاطي. لحظة انتباه الجاسوس الماهر له، التفت إلى الباشا الجالس قربه، ممسكاً كأس الشراب الكريستالية المليئة بالثلج، ونظر بعينيه السوداوين المصابتين بالرمص نظرة تبدي فراسة، وسأله: "ما مهنة هذا الشهم يا حضرة الباشا؟". فقال الباشا مبدياً الاستمتاع بعد أن سئم من مواقف وهيمي الذي تحدث لساعات بالتفصيل حول نشاط الجواسيس البندقيين والألمان والبرتغاليين: "إنه إسباني محول دينه. دار أبواباً كثيرة بسبب عناده ومشاكسته، وانتهى به المطاف دائماً في سوق النخاسة. ولكنه شاب موثوق، أجرينا عقداً عليه لمدة خمس سنوات، ولكن القاضي أيوب سجله في دفتر التركة، وصار خادم الله أولاً، ثم خادم ملجأ الجميع سلطان السلاطين. لا تنظر إلى قامته الطويلة النحيلة باستخفاف، فهو إلى حد ما لا يرحم مثلك...". وضحك مصدراً

صوتاً من أنفه، ثم أضاف بصوت منخفض: "لا تحاول تجربته، لأنك ستخفق يا وهيمي".

نظر وهيمي بانتباه للحظة إلى شفتي الطوقاطي الدقيقتين كخيطين، وإلى عينيه الزرقاوين الحادتين، وفهم أن الشاب قوي الذراع قبل أن يتكلم الباشا بتعبير تحريضي. من المؤكد أن شيئاً ما خطر بباله الغريب.

كان الشاب ذو النظرة الجليدية الزرقاء الحادة عريضَ الكتفين، غليظ العظام، وسليم البنية. قُص شعره الأشقر المموّج بشكل غير منتظم. وزنه خفيف قليلاً، ولكن ذلك ليس مشكلة. كان شكله بثوبه القطني الغليظ الواسع الشبيه بالقميص، وسرواله عديم الشكل المرقّع عند الركبتين يوحي بأنه مخيف. قال وهيمي بطريقة استفزازية مقصودة بعد أن ملأ الشاب عينيه: "على الرغم من أن هؤلاء الإنكشاريين تبدو عليهم الهيبة، ولكن قلوبهم خربة يا حضرة الباشا". كان خادم التشريفات كمال قد نظر بطرف عينه من حيث يقف بجوار الباب، ولكنه تظاهر بعدم سماع كلمات وهيمي لأنه يعرف من هو على الأغلب.

وضع الباشا الكأس الكريستالية المتلألئة ببريق العقيق والياقوت على طاولة الزان أمامه وقال: "لا تقل عنه إنه إنكشاري يا وهيمي! ليكن معلوماً لديك، إذا صار هذا مسلماً فهو يتقدم عليك وعليّ".

تابع وهيمي كلامه مخاطباً الباشا وكأنه لم يسمع: "وهل من السهل أن تيئّس إنكشارياً كهذا؟ الباشا لديه تجربة، ولكننا نحن نعرف الرجال الخاصين أكثر. حالتك هذه مثال على الخوف والتعفن الداخلي...".

كان كمال يحافظ على الصمت بتهذيب. تنهد الباشا، وصحّح قائلاً: "قلت إنه لا يرحم، ولكن خوفه لا يتقدم على عدم رحمته

كالجميع. أنت تعرف خوف الظالمين يا أورخون جلبـي. ولكن ذراع رجلنا وقلبه محكمان، كما أن أعصابه سليمة، وإن بدا عليه أنه قليل الصبر. لا يمكنك أن تثيره بسهولة".

قال وهيمي بصوت منخفض وعلى وجهه ملامح الموافقة: "هناك تفتيش لملجأ العالم سلطان السلاطين على بيت الإنكشارية، أعطني هذا الشهم لكي يرى حاكم العالم مواهبه. أعطني الشاب لكي لا يصدأ عندك يا باشا. لنلعب السيف معه، ولنضرب بأيدينا على ركبنا بادئين المصارعة، وليستمتع سلطاننا، وليرَ ما أكثر الشجعان في العالم، الذين لا يعرف أحد بهم؛ حتى هو نفسه".

قال الباشا: "إنها النهاية إذاً يا وهيمي". وأشار بيده إلى كمال، وأضاف: "يا بني كمال، هناك ما بعد المثول في الحضرة. اقلبهم على الأرض أمام الرجال لكي يُسر منك وهيمي وسلطان العالم. سيكون يوم غدٍ يومك، وسيلمع نجم حظك يا بني".

قال كمال وعلى وجهه تعبير فرح واضح حاول إخفاءه: "أمرك يا باشا، ولكن قلبي لا يطاوعني على ترككم".

اعترض وهيمي الحاد واللطيف: "هذا يعني أنك متأكد جداً من أنك ستملأ عين سلطان السلاطين أيها الإنكشاري اللعين؟ هذا يعني أننا أعجبناك؟ فليجازك الله يا كمال آغا. سترى كيف سأفضحك أمام الناس لكي تتعقل".

قال كمال وعيناه تلمعان: "لن أخيّب ظنك بي يا وهيمي آغا".

* * *

اختبآ نهاراً في جزر الصفصاف، وقطعا المياه المظلمة المتسللة إلى خلجان الصخور الضيقة في قمم "واينروالد" الزرقاء بالصعوبة المعتادة.

بدأ دفق نهر طونا بالارتفاع بشكل مخيف لأن الأمطار بدأت تهطل في الأعلى. حين التقيا الإنكشاريين الخارجين من معركة، ومختبئين في دغل أشجار البتولا على مبعدة خمسة أميال من "كيشرمنت" أشفقا على حالتهم وسط الأوساخ والطين. كان مجموعهم خمسة وخمسين رجلاً. كان السمك وافراً، ولكن بقية المؤن قد نفدت، وعلى هؤلاء الرجال الشجعان تبدو حالة يأس ليس من السهل الخروج منها.

سحب وهيمي الضابطَ آغا الإنكشاريين في ذلك المساء، وأبلغه أن قافلة هجن تحمل مؤناً تكفي ثلاثة أشهر تحت إشراف كتائب غالب بيك تتقدم، وهي على بعد ثمانية وثمانين ميلاً جنوب شرق بودين على طريق كارلوفتشا. ثم أضاف: "لم أرَ الرجال بحالة جيدة". وبدا من القلق في صوته أن في قلبه غصة. قطّب وجهه ذا الخطوط العميقة الحادة حين شم رائحة الطين التي بدأت تفوح من الماء في ساعات المساء. واختلط صوته بعد ذلك بأصوات الضفادع والجنادب: "جنود سليمان خان لا يقطعون أملهم من الله. وإذا لم يقطعوا أملهم من الله فلن يشعروا باليأس".

قال الضابط آغا الإنكشاريين: "إنك تقول الحق يا وهيمي آغا. لقد شعرت سابقاً بأن زابوليا لن يفهم هذا الأمر". ثم قطب وجهه، وغطى جلده الجاف وهو ينخر قائلاً: "ولكننا لم نتوقع أن يهاجم فرديناند بهذه القوة. انظر، لقد اضطررنا للاستدارة، والهرب على طريق فينا...". وبينما كان يتمتم: "الجنود الأتراك يعرفون الهجوم والدفاع جيداً، ولكنهم لا يعرفون التراجع". كان وهيمي وكأنه يتكلم مع نفسه.

كان القائد مستمراً: "... لأن الجنود الألمان سيطروا على الطرق المائية من بودين إلى الجنوب. وقد جرى طونا باتجاه فينا وكأنه

يشاكس. لذا، قلنا إننا سنغلق الطرق الفرعية، ونهدئ المياه، ونبدأ بمحاسبة الألمان. لهذا السبب لم يكن العدو يدع طيراً يطير في المنطقة، ولكنه اعتمد على طونا، وأبطأ تجهيز نفسه. وعلى الرغم من هذا، كانت تصلنا أخبار القبض على رفاقنا الهاربين جميعاً. سيطر علينا الهلع، ولا يمكن أن يحدث أكثر من هذا. الحمد لله لأن جزر طونا التي تتغير من يوم إلى يوم منحتنا فرصة للهرب، أو على الأقل للموت قبل الوقوع في الأسر. هل ترى هذه الجزيرة يا آغا؟". وأشار إلى المكان الذي يتواجدون فيه، وأخرج خنجراً طويلاً رفيعاً من صنع النصارى من جيب سترته المطرزة بالذهب، كان معلقاً على ظهره بسلسلة فولاذية. وبدأ يشرح وهو يرسم بعض الأشكال على الرمل الجاف القاسي. "لا يحسب الألمان حساب هذا المكان الذي نسيطر عليه... ستسأل لماذا؟ لا يفعلون ذلك لأن طونا يحدد مكان المستنقع حسب غزارته. ولهذا، فهو النهر الوحيد الذي يتوه فيه أيّ كان؛ حتى الدليل. حتى إنّ الإنسان الذي يقضي أيامه كلها هنا مثلنا لا يعرف أيًّا من الجزر سيغمرها النهر ويبتلعها. علينا أن نُخرج فرقة الاستطلاع هذه خلال ثلاث ليالي على الرغم من كل المخاطر لكي لا نرتبك ونبقى مكاننا إذا تعرضنا لهجوم... ثم إن هؤلاء الجنود يسأمون من البقاء محبوسين هكذا. وإذا عرفوا أن هنالك مخرجاً فستنشرح صدورهم، ويهدأ تململهم... أنت تعرف يا وهيمي آغا، إذا تأكد الإنكشاريون من يأسنا، فمن الصعب ضبطهم حتى بالأوامر... وأنا أفكر أحياناً بأن أرتمي في ظلمة هذا المستنقع...". وهرب بنظره بشكل خجول.

مد وهيمي جسده بعد أن عبس وجهه فجأة في ظلمة المساء الخفيفة، وأمسك بياقة قائد الإنكشارية بغضب فاجأ القائد و"كمال". وهزّ الرجل إلى الطرفين وكأنه شوال فارغ، وزأر قائلاً: "هس! أما

قلت لك إنّني لا أريد يأساً يا وضيع؟ ألستم جنوداً عثمانيين؟ ألستم المسؤولين عن الوطن المسمى *عالمًا*؟ تماسكوا، وإلا فأنا أقسم إنني سأقضي عليكم جميعاً. هل تعتقدون أن سليمان خان غافل عن هذا الوضع السيئ؟ ألن يأتي بسرعة مع جيوشه، ويخرب ولاية فينّا هذه فوق رأس الكافر فرندوش (فرديناند)؟ ثم ألن يُكمل طريقه بسرعة ويجعل العالم زنزانة لأخيه الأكبر كارلو (شارلكان)؟ ستصمدون ولو بالقوة، وستصمدون ولو بالأمر. لن تتركوا موقعكم، ولن تدعوا اليأس يسيطر عليكم. ومن يتململ فسأقطع رأسه بنفسي، ولن يحتمل التعذيب الذي سأعذبه إياه قبل ذلك. الزمن زمن سليمان خان! ولا يمكنكم أن تقللوا الأدب مع حاكم عالم اعتبرتموه داهية ينجز العمل الذي يقدم عليه مثل سليم خان! لديّ صلاحية أن أقطع نَفَسَ من يتردد من دون سؤال...

الآن، لا يكفي موهاتش عشرة أعماراً وليس عمراً واحداً لكي يمحو من قلبه خوفه من خصمه. ولكن شارلكان أقدم على آخر حركة مفكراً بمكانته التي خسرها أمام فرنسا. أم إنكم اعتقدتم أنّ فرديناند يقدم على عمل ما وحده؟ إنّ عمليته المضادة لفتح بودين أداة دعائية من أجل جذب فرنسا إليه من جديد، وليقوّي الوحدة الكاثوليكية. وهم يعرفون أنهم لن يستطيعوا المحافظة عليها. والهدف الآخر لهذه الحملة معاقبة جونز زابوليا الذي تركهم في موهاتش، وبايع حاكم العالم بعد الحرب، وجلس على عرش بودين. لأن لاجوس الثاني صفع صهره المقتدر شارلكان وشقيق زوجته فرديناند، وفور موته في مستنقعات طونا، اختار مجلس النبلاء في المجر بدعم كامل من سليمان خان أمير أردل جونز زابوليا ملكاً على المجر. حتى نحن لم نكن غافلين عن البلبلة التي سيحدثها هذا القرار في البلد. فقد اجتمع مجلس

نبلاء آخر يستند إلى شارلكان بعد شهر فقط في بطرسبرغ، وأعلن دوق النمسا فرديناند ملكاً على المجر. ونحن كنا نتوقع هذا، وننتظر بوقار. أخيراً، حدث ما كان متوقعاً، وخطا شارلكان وفرديناند الخطوة التي تعطينا الحق. الآن، ما نعرفه هو أن زابوليا يؤسس بستمئة فارس مواقع قيادة متنقلة في مضائق سغادين الجبلية، وينتظر سلطان العالم. عليكم أن تصبروا وتتماسكوا أكثر".

أطرق الآغا برأسه خجلاً: "من ناحية الفعل فسنفعل يا وهيمي آغا، ولكن فرضَ الأمر على الجنود صعبٌ جداً...".

جن جنون وهيمي مجدداً: "لا تتذمّر يا كلب! يمكنني أن أطعمك لسمك طونا الآن...". وبعد أن هز الرجل بأصابعه الشبيهة بملقط الحداد، وتركه، أضاف بنبرة أكثر تفهماً: "انظر إلي يا آغا، لا تترك الجنود من دون تدريب. فعندما يترك الجنود - ولا سيما الإنكشاريين - التدريب والانضباط، يخرجون عن الطريق. التاريخ مليء بأمثلة على ذلك. وبالإضافة إلى هذا، أشبع بطونهم! السمك وافر في طونا، وتأتي البركة حتى من صنارة القصب".

حين تنهد القائد الإنكشاري متردداً وكأنه يريد أن يقول شيئاً، قال وهيمي: "أعرف، بعد فترة سيغدو طَعم السمك كريهاً كرائحة النهر، ولكن لا حل آخر... إنه مُغذٍّ. ليرموا صناراتهم على نية الدواء. نحن أيضاً فعلنا ذلك كثيراً في زمن ما. زد عدد الاستطلاعات. وليكن هناك فريق مراقبة على القنوات طوال الليل. زوارقكم الرفيعة مناسبة لهذا. وهكذا سيبقى الجندي حيوياً. وإليك سراً، عندما تسد الفواصل بين خشب الزوارق والمراكب بالسائل المطاطي، امزجه بأوراق شجر بتولا خضراء غضة. لا ضرورة لأن تسحقوها كثيراً، يكفي أن تدقوها قليلاً. وإذا غليتم السائل أقل من الوقت الطبيعي بنصف ساعة رملية،

فسترون أن الزورق سينــزلق بسهولة أكثر، وسينــزلق على الرمــال التي تعترضكم. هناك فائدة من تجريب هذا".

لم يشعرا بحاجة للحديث أكثر في تلك الليلة، ومــدا بطــانيتين رقيقتين وأردية على الأرض، وناما بين الجنود. وغطّــا بنــوم قلــق مستمعين لصراخ الجنود الذين يرون الكوابيسَ، وزقزقة الطيور الغواصة الشبيهة بهمس الإنسان. كان كمال يرى نفسه في الحلم وسط ســاحة المصارعة، ودخل مع وهيمي أورخون جلبــي بنــزال حامٍ في حضرة حاكم العالم. ولكنه في الحلم كما في الواقع، يرى دائمــاً أن وهيمــي ينــزلق من تحته، ويصبح فوقه في اللحظة الأخيرة، ويتغلب عليــه، و لم يغلب هو.

IV

مرّا بصمت ومن دون مشاكل من أمام موقعي أورث وهاينبورغ العسكريين اللذين تُقشعَرُّ الأجساد لدى رؤية أبراجهما ذات الأسلوب القوطي في الليالي الباردة التي تهطل الأمطار فيهــا علــى وادي طونــا وسُهُولِه. كانت تخفيهما طبقة ضباب رطبة تشبه الدخان الزيتي والــتي تتصاعد بفعل تبخّر مياه المطر التي سخنتها الحــرارة نهــاراً. لهجــت ألسنتهما بالدعاء وهما يراقبان حركة الغيوم الرصاصية الــتي هبطــت وكأنها كائنات شيطانية حول مداخن المدينة في أطــراف "جــارنتوم" الشهيرة بمدرسة "مارجوس آورليوس" لتدريب المصارعين حتى الموت.

اكتسب تدفق الماء قرب حدود المجر سرعة حصان محارب أفلــت من عقاله. وتسارعت المياه أكثر أمام "ثيبن" المظلمة الموجــودة علــى صخور كارباتان الحادة مما جعلهما يُنــزلان الشراع تماماً، ويركــزان

انتباههما إلى الأمام لكي لا يصعد الزورق فوق إحدى الجزر الرملية. أمام أبراج بوزسوني التي تضيع بين الغيوم طقطق قسم تدعيم الزورق بشكل مخيف، ولكن هذا كل شيء. تحوّل خوفهما من مراقبي النهر إلى النهر نفسه.

نزلا جنوباً بسرعة مذهلة عند لسان اليابسة الممتد عبر النهر في أسترغون بفضل الأمطار والتيار. وصلا إلى شاطئ بودين بعد مرور اثنتي عشرة ساعة. وحين أصبحت غزارة الأمطار معقولة أكثر بعد بودين، اتخذا قراراً بالحصول على استراحة قصيرة لأول مرة بعد وقت طويل.

* * *

بعد فترة طويلة همس كمال بصوت عميق كالهمس الذي تحدثه الريح لدى عبورها بين أشجار الحور الكثيفة. أظهره الضوء الأحمر اللامع في عينيه نتيجة انعكاس النار المشتعلة قرب الخيمة الصغيرة مسناً بشكل مخيف. ارتعش وهيمي نتيجة شعوره بأنه يتكلم مع شخص غريب.

"الملك كارلو (شارلكان) هذا... أظهر جرأة مميتة بالتطاول نحو أرض وطأها حضرة سليمان خان. لنقل إنه تحالف مع فرنسا المتقلبة التي أسرت ملكهم قبل عدة سنوات من سيطرة الأتراك، ومطاردة الجيوش المتحالفة كلها إلى وسط أوروبا نتيجة حساب خاطئ. حسن، ما دورهم بقضية الملا قعبض؟ من أين ظهر هذا الرجل الغريب، الذي كاد أن يتسبب بفتنة كبرى في الديار التركية؟".

همس وهيمي وهو يصغي لصفير صيادي السمك المتوجّس: "انظر يا أخي كمال. الملك كارلو يعتمد كثيراً على الديار الأمريكية؛ تلك الأرض الغنية التي سيطر عليها بعد اكتشافها، وما زال يخوض حربَ

إبادة ضد سكانها المحليين. فقد صارت تحت يده الآن أكبر مصادر الذهب والفضة في العالم. ولولا الخوف الراسخ في قلب "موهاتش" لزاد جرأته مع الأيام، لأنه ما زال يريد أن يزعزع قوة العثمانيين الكبيرة في الشرق. وقوتهم الاقتصادية سبب تطويرهم تقنية صناعة الأسلحة في الفترة الأخيرة، وإذا استمروا على هذا النحو، فلن يكون من الصعب أن يتجاوزونا في القرن القادم؛ وخاصة في صناعة المدافع. أكبر أحلام شارلكان وأعوانه يكمن في طرد الأتراك جميعاً من ديار الروم، وإعادتهم إلى هضاب آسيا الوسطى حيث أتوا. ولكنه يعرف جيداً أن الدول لا تُفتح بالجيوش فقط، بل بالاضطرابات الكبرى التي تحدث في تلك الدول. الملا قعبض بعوضة صغيرة ولكنها تقلّب المعدة. وإذا فكرنا بمدى تأثير الفتنة الصفوية طوال قرون، فلا بد لنا من القول إن تلك مداخلة غبية. ولكن الاضطرابات التي سببتها قضية الملا قعبض كادت أن تتحول إلى حال لم يستطع أن يتخيلها حتى من نظّمها".

"حسنٌ، من هذا الرجل يا آغا؟ كنتُ جديداً في ذلك الوقت، ولكنني لم أفهم القضية حتى الآن. كيف لا يستطيع رجل مثلك معرفة من رتب ذلك، وماذا رتب؟".

ضحك وهيمي بفظاظة وقال: "عشرة مثلي لن يستطيعوا معرفة حقيقة هذا الرجل. لم أستطع أن أعرف عنه سوى أنه أعجمي غير معروف الأصل والفصل، يدور على هواه من تكية إلى أخرى. هل تعتقد أنني لم أفعل ما أستطيع فعله؟ في الفترة الأولى، اعتقدت أنه جاسوس صفوي. ولكنني حين رأيت ابتسامته الخفيفة على وجهه عندما رأى الجلاد عمر الأسود، فهمت أن الرجل أقوى مما كنت أتوقع. وقد حدث ما توقعته. ولكن الأغرب...". فجأة صمت وهيمي، وشرد.

قال كمال متضايقاً: "نعم، ما الأغرب يا وهيمي آغا؟". ريح أبرد من المعتاد احتكت بالليل وطونا والحور الكثيف في أثناء مرورها. أخذ صمت وهيمي المفاجئ الشبيه بصمت بحّار ينتظر اليابسة التي ستظهر وراء الأفق الضبابية حالة تتجاوز الرعب حينئذ.

انتظر كمال وهو يستنشق رائحة الليل والنار الآيلة إلى الانطفاء بجانبه. وبعد فترة طويلة، عاد البريق إلى عيني الجاسوس الماهر، ولوّح بيده بمعنى "لا تهتم". وحين تكلم، كان صوته كتمتمة تُسمع بصعوبة: "بالتأكيد، سأشرح لك ذات يوم يا بني، لم تنته الأيام يا هذا...".

قال كمال وهو يركّز نظره على النار: "نعم يا آغا. أصلاً الوقاحة منا، فنحن لا نستطيع إلا أن ننبش في كل قضية...".

لم يقل وهيمي شيئاً. في الحقيقة، كان منتبهاً إلى أن "كمال" منزعج من الوضع، لأنه كلما فتح هذه القضية، يتهرب وهيمي من الخوض في ما هو أبعد من ذلك. يعتقد الشاب أن معلمه لا يثق به، ولهذا ينزعج كثيراً، ولكن وهيمي لا يخطو تلك الخطوة الأخيرة التي تغيّر الوضع.

وبإحساس الجاسوس الذي يسير على طريق النضج فهم منذ فترة طويلة أن معلمه لم يستطع الإحاطة بالقضية تماماً، ولهذا السبب تجنب كمال دائماً الإلحاح فيها. حاول الابتعاد عن الموضوع بشكل مهذب بقوله: "ألا يمكن أن يكونوا قد أتوا من الدولة الصفوية مع القلندريين؟".

هز الآخر كتفيه القويتين وأجاب فوراً هذه المرّة: "بالتأكيد هذا ممكن يا بني...". مد يده، وألقى قطعة حطب أخرى على النار، وتابع: "لأن خبر قعبض جاء مفاجئاً في الأيام الأخيرة لتمرد القلندريين الذي أغرق بالدم والنار قسماً كبيراً من الأناضول مثل قرشهير، وأماصيا،

وتشورم، وأنقرة، وبوظوق، وطوقات، وسيواس، ومرعش في العام الماضي. قالوا: جاء عالم من تبريز، وهو يعقد مجالس العلم في محور واسع يبدأ من أسكودار، ويرشد الناس. بداية، أصدر لي حاكم العالم الأمر بالتدقيق في ما إذا كان هذا الملا من أهل السنة أم لا.

حتى أنا أعجبت بالنصائح التي كان يقدمها في الأيام الأولى لكسب احترام الناس، وتابعتها لآخذ منها عبرة. لم يبدُ على الملا قعبض أنه عالم عادي. فنظرة عينيه السوداوين تحت لفته الخاصة بطبقة العلماء تنغرز في القلب، وكلماته الساحرة بين المعنيين الظاهري والباطني تغلي الدم في عروقنا. غير هذا، كان جذاباً، وتُحدث انفعالاته المفاجئة لدى مستمعيه احتراماً وخوفاً لا أحد يستطيع إنكاره. ما عليك أن تفهمه هو أنه كان عالماً صوفياً مؤثراً على مستوى عالٍ. اقتنعت حينها بأنني أمام عالم حقيقي لم يبق من أمثاله، يدافع عما يؤمن به حتى النهاية. ولكن، كيف سأقولها... على الرغم من جاذبيته كلها، كانت ثمة غرابة أو اعوجاج في شخصيته يصعب تفسيره...". زمّ شفتيه، وحرّك الجمر بغصن يمسكه بيده، وتابع: "كان غير حذر بشكل مبالغ به... إذ تشتد كلماته فجأة، وعندها يخرج كثيراً خارج الخطوط. في البداية، ربطتُ هذا بطبيعة الانجذاب إليه الذي يستمد القوة من إيمانه العميق بعقيدته، ولكنني لم أستطع معرفة طريقته الدينية. إذ كان ينجح بالتملص من الأسئلة بطرح أسئلة أخرى بمهارة، ويلمّح بأمور تشير إلى أنه خليفة شخص يدعى عبد الحضرة... أخيراً، وصل إلى أذني أنه في حديث بعد ظهر أحد أيام تشرين الثاني الباردة في جامع الفاتح لم أحضره، قال:

يقول حضرة النبي إنّ علماء أُمتي مثل أنبياء بني إسرائيل. ولكن هناك حقيقة؛ إذ إنّ بعض علماء الحديث المهمين مثل الراضي وحاكم

النيشابوري يعتبرون أن هذا الحديث موضوع، ولا أصل له. ولا يبلغ من مقام أحد أن يحدث الشقاق في الدين بأحاديث ضعيفة كهذه. ويجب قطع رأس من يفعل هذا. من جهة أخرى، يجب أن يُعلم أن حضرة عيسى له مكانة عظيمة بين الأنبياء من ناحية الفضائل، فإن كان الوضع على هذا النحو، فكيف يوضع أنبياء بني إسرائيل بمساواة رجال علم بسطاء كذينك العالِمَين؟ أقول من كل قلبي إن هذا الوضع لا يتجاوز كونه نوعاً من الحسد. القرينة التي تجعل كلامي غير قابل للدحض هي أن النبي عيسى لم يمت، وكما تعلمون فقد رُفع مع بدنه الشريف إلى السماء الثانية. أي إنه حي، وعندما يحين وقته سيشرّف الأرض مجدداً. من يستطيع الآن القول إن الميت يتفوق على الحي؟ لا، لا. الحي دائماً أرجح من الميت. كل عاقل يمكنه أن يصل إلى هذه النتيجة. غير هذا، لا تنسوا أن الدين بحاجة إلى مجدد في كل عصر، وإلا كيف نخلّص إيماننا من الخرافات؟ يجب علينا ألاّ نستخف بكلمات الرسول عيسى، وما أنزل عليه، وأن نعطي توجهاً جديداً، وأن نوصله إلى الفلاح الحقيقي. أنا أستطيع أن أقودكم على هذا الطريق أيها الإخوة، وإلا فاعلموا أنه لا خلاص لكم من النار!

يبدو أن هذا السافل أحد صيادي الشهرة الذين ظهروا بادعاء التجديد. ولأنه أسس أفكاره على ألاعيب العقل السليمة، استطاع أن يحظى بانضمام مجموعة من ثلاثين طالباً إليه خلال الأيام الثلاثة الأولى من طرحه أفكاره. يمكن أن أكون قد تأخرت بشكل لم أكن أتوقعه خلال فترة قصيرة لم أتوقعها. وفور معرفتي بما يجري، التقطت أنفاسي عند إبراهيم باشا البرغالي. في الحقيقة، أنت تعرف أنه ليست هناك مشكلة بصعودي إلى حضرة حاكم العالم من دون إذنه، فقد أعطاني إذن السلطنة طالما هو على قيد الحياة. ولكنني تجنبت دائماً إقحام

حضرة سليمان خان بأعمال تافهة كهذه. فهو كبير على هذه البشاعة التي تتناول أموراً حسّاسة تخصّ عقيدته. ولكن البرغالي يستمتع بدخول قضايا معقدة كهذه؛ لأن الاستمتاع بالقضايا الصغيرة من خصوصية ذوي الطبيعة الوضيعة. كنت أثق أنه سيحل القضية خلال فترة قصيرة بأسلوبه، وتأملت أن يقطع رأس صاحب الفتنة هذا".

V

أخذ وهيمي نفساً لمدة قصيرة ثم تابع: "قبل سنة، وفي الثامن من صفر إذا لم أكن مخطئاً. أبلغ البرغالي سليمان خان فوراً وكأنه قام بعمل مهم، وأمر حاكم العالم بترتيب مجلسٍ علمي على الرغم من مرضه منذ عدة أيام بسبب برودة الجو المفاجئة. كان سليمان خان العادل يريد أن تُنقض أقول هذا المفسد حتى لا يبقى في ذهنه أي شك. أنت تعرف أن حضرة حاكم العالم يأذن لي بحضور الاجتماعات التي يشارك فيها الوزراء ومن بمستواهم كما جرت العادة، ولكنه تلك المرة لم يسمح لي. شعرت بالضيق من ذلك، ولكنني عندما وجدتُ أن الصادق مصلح الدين نيشانجي آغا، ومن الوزراء المعتبرين أمير هاس جلبي باشا، ونور الدين باشا لم يُسمح لهم بحضور الاجتماع، فهمت أن حاكم العالم يريد أن يشهد الاجتماع في الداخل أقل عدد ممكن من الأشخاص.

اجتمع الرجال الكبار، والعلماء العظام بسرعة غير معهودة، وبدأت المناظرة بعد صلاة العشاء. كنا ننتظر في الرواق المزيّن بالذهب في الديوان السامي، وبعضنا يخرج إلى الساحة الخضراء المغطاة بورود الخريف أحياناً. وفي أثناء جلب المشروبات الساخنة على صينيات

زجاجية من المطبخ، انقسمت الغيوم الضخمة رمادية اللون إلى وريقات كوردة ضخمة. وقبل مرور زمن طويل، بدأ المطر بالانهمار. أتذكر أن الإنكشاريين الواقفين عند الباب والذين يحملون الرماح نبّهوا الجميع بنظرات مهددة لكي لا يقفوا في مكان مكشوف. وعلى الرغم من معرفتهم لي جيداً لم يسمحوا لي بالخروج إلى ما بعد عتبة الباب بثلاثة أشبار. ومن الممكن فهم خطورة الوضع من هذا الأمر الذي يبدو تافهاً. فقد أُغلقت مداخل الصالة الثانية ومخارجها كلها، ووُضع رماة مهرة على السطح.

انتظرنا هكذا. ونحن لا نعرف كيف ستنتهي ساعات الملل من المباحثات المستمرة في الداخل بسرية وصمت كبيرين. كنا ننتظر صابرين وملتجئين تحت القباب مزينة الأطراف بينما كان المطر البارد يغسل المدينة في الخارج. وبعد فترة لا أستطيع وصفها بأنها طويلة، خرج الملا قعبض وعلى وجهه تعبير شخص مفعم بالنصر. كانت بيده براءة مختومة بخاتم حاكم العالم في علبة فضية وحافظة جلدية. عرض البراءة على الجنود بمتعة، وخرج وهو يلوح بيديه".

"الله أعلم كم دهشتم".

"نعم يا كمالي، نعم. شعرنا بالهزيمة أكثر مما شعرنا بالدهشة. لأن الملا قعبض فعل ما فعله، وخرج من النقاش منتصراً".

"كيف هذا يا آغا؟ كيف يستطيع واحد فظ ووقح أن يتغلب على كبير علماء روملي محي الدين جلبي فنار زادة، وكبير علماء الأناضول قادري جلبي؟".

"وبوجود سليمان خان وهو يستمع من خلف حاجز قصر *العدالة*..." هز برأسه إلى الجانبين بصبر وعصبية. "انظر يا غرناطي، الجواب عن السؤال يكمن بأن العالمين كانا متعبين ولا يعرفان

القضية. ففي أثناء قمع انتفاضة القلندرية بصعوبة كان كبير علماء الأناضول قادري جلبي في الأناضول تحت قيادة البرغالي، وما زال مشغولاً جداً بالحيلولة دون وقوع اضطرابات جديدة، وبإعادة إسكان الناس الذين قدموا المأوى وساعدوا الآخرين. أما كبير علماء روملي فنار زادة فقد كان يشعر بالسأم نتيجة ضغط علماء السنة في موضوع التماثيل التي جلبها البرغالي من بودين، ونصبها في حديقة القصر.

وعلى الرغم من قوله إن التماثيل لا تُعد أصناماً بموجب حديث: "إنما الأعمال بالنيات" وقدم مع قاضي إسطنبول وشيخ الإسلام كمال باشا زادة فتوى بهذا الشأن، فقد كان بوضع الدفاع عن نفسه إزاء هجوم علماء المدارس الدينية وطلابها الذين يحظون باحترام كبير بين الناس. غير هذا، فقد كان تحت ضغط كبير نتيجة مشكلة السكن بعد هجرة النصارى واليهود من بودين وبشتة إلى إسطنبول. وهو أيضاً ليس لديه مقدار ذرة معرفة بما جرى.

وعندما جُلب كبار العلماء إلى الديوان على عجل، كنا قد غادرنا صالة القبة للتو، ونتجول في ظلمة الباحة في برد الريح القارس. رأيت قادري جلبي يتوقف قليلاً للتكلم معي قبل دخوله. ولكن ظل رمح دخل في الوسط على المرمر اللامع الذي يعكس لهب المشاعل. كان ذلك أحد الحراس. حينئذ فهمت ولو متأخراً أن سليمان خان يسيطر عليه غضب يتجاوز الحال التي اعتدنا عليها وأحببناها. تحدث آغا الخصيان الأبيض جعفر أفندي، وقائد الحرس الأبكم العملاق في ما بينهما بلغة الإشارة، ومرا بجانبنا. وعلى الرغم من احترامهما الشديد لي، هربا من النظر إلى وجهي. لقد ارتكبت خطأً كبيراً بعدم معرفتي بهذه القضية قبل هذا الوقت. يجب أن يصل

هذا الأمر إلى نتيجة، وأن أرى عمر الأسود ومساعديه ذات ليلة عند باب مهجعي.

وقبل أن تنتهي الليلة، وحسب ما عرفته من مصطفى جلبي كيرماصاتلي رئيس الخصيان الأبيض الذي كان يخدم في تلك الليلة، عندما طُلب من كبيري العلماء إبداء الرأي في القضية التي يواجهانها، دهشا، وتبادلا النظر. بالتأكيد لا يمكن إنكار أن الرسول عيسى حي. ولم يكونا يائسين من الحصول على شرح كامل. ولكن لسانيهما ارتبطا، وسيطر عليهما الهلع إزاء هذا الموضوع الغريب الذي يتضمن ألعاباً عقلية قوية خلف مظهره البسيط. رد فنار زادة بالقول: ﴿... لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ...﴾ من الآية 285 من سورة البقرة.

عندها، سأل الملا قعبض: لماذا تضعون حضرة النبي في منزلة أعلى من الآخرين؟ وقبل أن يردا عليه، فاجأهما بالجواب من الآية 253 من سورة البقرة: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ ثم سأل: هل الأفضلية هنا ناجمة عن كون عيسى المسيح حيًّا، أم إن الأنبياء متساوون؟ وهكذا ضربهم بسلاحهم، وأعاد عرضه الذي لا يدخل العقل: أنا أدعوكما إلى احترام النبي عيسى، وأن تتبعاني، وأن نضع أيدينا على القرآن والإنجيل، ونخلّص الدين من الخرافات!".

رمى كمال حجراً صغيراً كان يمسك به نحو أشجار الحور التي تلمع ببريق زيتي، وقال: "ألم تشمئز من إصدار كبيري العلماء فتوى بإعدام الملا قعبض، وأكل صفعة مداخلة إبراهيم باشا البرغالي التي مسحت مكانتهما يا آغا؟".

زأر وهيمي من بين أسنانه: "وإلى أية درجة يا بني... ولكن، لم يكن لديّ دليل... ولا يليق بفدائي عثماني أن يقوم بأي أمر من دون

دليل، وأن يتصرف بناء على سوء الظن. إذ سيدفع حساب ذلك غالياً في الدنيين...".

كان كمال يسمع من معلمه القضية التي سمعها مرات بانفعال، ويحاول التقاط ذكريات معلمه وتفاصيل الحكاية، ويعجب بقوة تحليله.

"بالنتيجة، دهش كبيرا رجال الدين غير المبالين، وسيطر عليهما غضب شديد، وطالبا بإعدامه بدلاً من طرحهما دليلاً قوياً يدحض ادعاء الملا قعبض، وهذا ما فرض على البرغالي التدخل. وحسب ما رواه مصطفى جلبي كيرماصاتلي، فإن العبثية في أجوبة كبيري العلماء جعلتهما يبتلعان الإهانة، ويصمتان.

وعندما بدأ الملا قعبض يشرح بشكل انفعالي أن حضرة عيسى سيعود، ويعيد إحياء الإسلام، وسيتسلم المسيحية وميراث حضرة محمد، وأنه سيبسط نفوذه في آخر الزمان؛ ذلك العصر الأشد تعقيداً، احمّر وجها رجلينا وازرقا، ولكنهما لم يستطيعا النبس بكلمة يمكن التمسك بها. ادعيا أن صاحب ادعاء كهذا يثبت أنه مرتد، وأصرا على إعدامه بغضب شديد. فقال البرغالي بالإصرار نفسه: *لا، لا أسمح لكما بإصدار فتوى كهذه من دون أن تشرحا الخطأ الذي يتفوّه به الملا وتقنعانا. والأهم من هذا أن تقنعا سلطان سلاطيننا. إذا كان ادعاء هذا الرجل مخالفاً للشريعة الشريفة وخاطئاً، فعليكما أن تظهرا الخطأ لإزالة الشبهة من الأمر. أجيبا ببرودة أعصاب. إذ لا يليق الغضب، وتجاوز الحدود، وفرض أمر واقع برجال العلم والعقل.*

في الحقيقة، لا يمكنني القول إنني أعتبر البرغالي غير محق تماماً. إذا لم أتأكد من أن سبب مواقفه السعيدة في الفترة الأخيرة هو المكانة التي حظي بها بعد نجاحه بقمع تمرد القلندريين، فأنا أعترف بأنه عقلاني

بإدارة الديوان. وقد أثبتُّ أن هابسبورغ وراء هذا الأمر، ولكنني لم أستطع أن أثبت أن تدخل البرغالي كان من أجل إحداث شقاق. بالنتيجة، كانت خيبة أمل حضرة سليمان خان وغضبه كبيرين جداً عندما خرج الملا قعبض منتصراً، وذهب. فوفقاً لرواية كيرماصاتلي، خرج حاكم العالم من خلف الحاجز محتداً، وقال: "*أيأتي ملحد إلى ديواننا، ويتجرأ بهذيان يطال شأن حضرة نبينا العظيم، ويطرح بهذا الخصوص بعض الأدلة والتعاليم، ويذهب من دون أن يُسكَت؟ ما سبب ذلك؟* وسمعه كل الحاضرين هناك".

قال كمال موافقاً: "لا يعد غير محق". وقد عبثت الريح الباردة بشعره الأشقر.

"بالتأكيد لا يعد غير محق يا غرناطي. أصدر حاكم العالم فرمانه فوراً: سيحاكم هذا الملحد مجدداً يوم غدٍ، وسيرد على ادعاءاته هذه المرة شيخ الإسلام حضرة كمال باشا زادة، وقاضي إسطنبول مولانا سعد الدين!".

"حسن، هل بدا على ذاك الملا الادعاء بأنه المهدي المنتظر يا آغا؟".

هز وهيمي كتفيه وقال: "لا. الرجل يدعي أنه *مجدد* وليس *المهدي*. وإذا قلنا غير هذا فسنفتري عليه، والسبب أنه ليس لدينا دليل".

رمى كمال غصناً على النار المتأججة فجأة وهو مهتم ومفكر وقال: "كان سليم خان يقدّر حضرة كمال باشا زادة كثيراً، أليس كذلك؟".

"هكذا بالضبط يا بني. لقد أخذ حاكم العالم منه فتوى حملة تشالدران. قال عن الشاه إسماعيل: *لقد حرم المدن الإسلامية العظيمة*

الموجودة تحت القبة الإسلامية، وملأها بظلم الانحراف والزندقة والبدعة، وأمر بهدم الكثير من مقابر الشهداء وبيوت عبادة أهل الخير.
وقدم مبرراً لهذه الحملة.

بعد العودة من حملة مصر، اعتُقد أن حاكم العالم سيغضب من تلوث قفطانه بالطين المتناثر من حوافر حصان كمال باشا زادة، ولكنه أوصى بأن يُغطى قبره بذلك القفطان، وهذه حادثة هامة على صعيد إظهار تقديره لشيخ الإسلام مفتي الإنس والجن".

"هل الروايات التي تدعي أن الجان يزورونه ليلاً، ويطلبون منه فتاوى صحيحة؟".

"نعم يا بني، إنها صحيحة بالتأكيد. العالم يدخل نظاماً وترتيباً بوجود علماء كبار مثله. يقول عنه علماء زماننا:

أنت إما ملاك بهيئة إنسان، أو إنك عارف!
لأن الإنسان لا يمكن أن يكون فاضلاً إلى هذه الدرجة

وبموجب فرمان حاكم العالم، اجتمع الديوان بعد صلاة فجر اليوم التالي. نحن كنا في الخارج أيضاً. أتذكر البرودة التي لفّت المدينة بعد مطر الليل، وكتل الغيوم في السماء البراقة وهي تتقدم فوق البوسفور من الشمال إلى الجنوب. ومن غير الممكن أن أنسى القلق الذي كان يسيطر على الأجواء. ولكن المعركة الكلامية لم تستمر طويلاً كما كنا نتوقع والحمد لله. أتذكر أن كبير علماء روملي محي الدين جلبي فنار زادة كان مدعواً، وقد خرج باكراً وهو غاضب. لا أحد يعرف ما جرى تماماً. ولكن، من الواضح أن مشكلة حدثت بينه وبين حضرة شيخ الإسلام.

عرفت في ما بعد بسعادة أن رد شيخ الإسلام كمال باشا زادة، وقاضي إسطنبول سعد الدين على الادعاءات التي كررها الملا كانت على النحو التالي:

قال كمال باشا زادة: *انظر يا ملا، لا يناسب وصف الموتى بمرتبة الأنبياء والصالحين. ويأمرنا الله تعالى في الآية 154 من سورة البقرة بألّا نخاطب الشهداء الذين هم بمستوى قريب من مستواهم بالموتى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾. لهذا السبب، إنّ هذه الحياة بالنسبة للأنبياء والصالحين والشهداء دليل مطلق على حياة ممتازة أكثر نظراً إلى كونهم أصحاب أجساد عاجزة بالمعنى الدنيوي. لأن تصرفاتهم مع من حولهم في حال ابتلائهم حقيقة واضحة وصلتنا عبر المصادر الصحيحة. والنبي عيسى عليه السلام من أولي العزم سيصل بعد وفاته الحقيقية إلى مقامه الرفيع في سماء الله بالتأكيد، وهو يتشوق لذلك اليوم.*

فرد عليه الملا: *جسد عيسى المسيح في السماء. وأنتم تقبلون أنه لم يمت. جسده المبارك مع الملائكة في السماء الثانية على الرغم من عدم وفاته. وهو على تواصل مع الله تعالى. فهل يوجد أهم من هذا؟*

قال كمال باشا زادة: *بالتأكيد يوجد. أُصعد النبي عليه السلام ليلة المعراج إلى السماء السابعة بجسده، وتكلم مع جناب الحق دون وسيط، والتقى النبي عيسى في السماء الثانية.*

قفز الملا مندفعاً: *المعراج كان روحياً وليس جسدياً... لهذا السبب لم يكن يختلف عن الحلم. جاء في الآية 60 من سورة الإسراء: ﴿... وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ...﴾. وهذا دليل أكيد.*

فأجابه: *صحيح، في حادثة الإسراء نقل سيدنا محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. لنتذكر الآية الأولى من سورة الإسراء:* ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. *لو كانت هذه الواقعة روحية فقط كما تدعي، لما جعلها الله تعالى وسيلة امتحان. يجب أن تكون واقعة الامتحان واقعة إعجاز. والحلم لا يعتبر إعجازاً...*

حاول الملا قعبض أن يقاوم قليلاً. ولكن، يقولون: *ابتلى الله البشر بالنسيان* يا كمالي...". ارتعد حين طقّ أحد أغصان الحور الرطبة بقوة مصدراً دخاناً أبيضَ كثيفاً. تابع وهيمي: "من الطبيعي ألا يتذكر الإنسان كل كلمة. ولكن مصطفى جلبي كيرماصاتلي رجل ذكي وفطن يستوعب الخطوط الأساسية للموضوع الذي يُبحَث أمامه بسرعة. وإذا صدّقنا موقفه المتباهي وهو يشرح هذا، فإن أنفاس الملا بدأت تنقطع أمام هجوم كمال باشا زادة العنيف. ويروى أن حاكم العالم صرخ من خلف الحاجز: *أرشده!* فتحجّر الجميع، وتابع سلطان السلاطين: *وصل القصد. الحديث في هذا الأمر بعد اليوم مجرد ضوضاء. أبلغوا الملا قعبض شكرنا وتهانينا له لالتزامه بقضيته وجرأته وثباته. ونبهوه لكي يصحح عقيدته وأخطاءه، وينتقل إلى صفوف الإسلام. وذكروه بجزم أنه لن يكون غيره مسؤولاً عما سيحدث في حال لم يفعل هذا!*". ولكن كمال أكمل قائلاً: "رفض الملا بشدة عرض القاضي سعد الدين أفندي بالعودة إلى عقيدة أهل السنة، وأصر على عقيدته، والتف حبل المشنقة على رقبته".

"مع الأسف، هذا ما حصل يا بني. إذ التفت حضرة كمال باشا زادة إلى القاضي سعد الدين أفندي، وقال: *انتهت قضية الفتوى، أنتم*

احكموا حسب *الشريعة*. وصدر الحكم. ولكن الملا سُلّم إليّ بداية لمعرفة ما إذا كانت تلك الحركة قد تمّ التخطيط لها أم لا، ولأحصل على بعض الاعترافات. ما زلت أفكر بهذا، ولا أستطيع هضم ما حدث بعد ذلك".

"في تلك الأثناء اعترف لك بعلاقته مع الصليب الحديدي؟ أقبّل عينيك يا وهيمي آغا قل لي... أمن هنا توصلت إلى علاقته بالهابسبورغيين؟".

"بعد هذا يفسد الشيطان الأمر يا كمال... إنها أشياء لستَ جاهزاً لها بعد يا بني... ولكن، لا يمكن أن تتحرك ورقة من دون علمه تعالى". ثم دفن وهيمي أورخون نفسه فجأة في فترة من فترات الصمت تلك. لم يكن يزيح عينيه عن لهيب النار البرتقالية، وكان واقفاً هكذا على فوهة البئر الخطيرة التي يُخبّئ فيها بقايا ذكرياته السامة.

بقي وهيمي صامتاً مدة ربع ساعة بالضبط حسب ساعة الشمع المجاورة له. وانتظر كمال من دون أن ينبس بكلمة. كان من المحظوظين الذين يدركون بشكل طبيعي ماذا يفعلون، ومتى، ولا يشكل حملاً على الناس. وبعد فترة طويلة، وبينما كانت الريح الباردة المحملة برائحة التراب المبلل تزيد تعب وهيمي المصحوب بالقشعريرة، تمتم بصوت متحشرج: "انظر يا بني، أنا سحبت اعترافات من رجال كثيرين. كانت جرأتهم تصل في الحد الأقصى إلى لحظة وصول عمر الأسود إلى العتبة. ولكن ذاك اللعين، حين رأى "عمر" الأسود التفت إلي، وابتسم. وبدأ يقول لي بعض الأمور حولنا جميعاً وكأن هناك أسراراً بيننا...".

ضغط عليه كمال مجدداً: "هيا، احك يا آغا". كان مدركاً أن ثمة صدعاً يتسرب منه بريق قد أُحدث في جدار ذلك الصمت المطبق. "هيا يا آغا، ألست مثل ابنك؟".

"هكذا أنت يا كمال...".

"إذاً، قل لي ما قاله لك".

هز وهيمي برأسه إلى الجانبين، ومسح بكفيه على وجهه. أخذ نفساً عميقاً، ثم قال بصوت منخفض: "بما أن لديك فضولاً كبيراً، فإليك الحقيقة التي تريد معرفتها منذ زمن طويل. كان الرجل يعرف أموراً يا كمال؛ أموراً يجب ألاّ يعرفها... أموراً توتر الأعصاب...". شرد لحظة ثم تابع. "ولكن ما يجنني هو عدم معرفتي كيف عرفها...".

"لعله كان يعرفك من قبل...".

تسامح وهيمي مع تململ الشاب، ورسم على شفتيه ابتسامة ذابلة، وتابع: "من أين سيعرفنا ذلك المسكين يا غرناطي؟! ولو عرفنا، فتلك أمور لا يمكن معرفتها. أنت تعرف أن الجلادين من المشردين الذين ليس لديهم أقارب. ولكن قعبض نظر إلى عمر الأسود، وقال له إنّ لديه أختاً تركته منذ سنين، ويحاول نسيانها، ولكنه لم يستطع بأي شكل أن ينساها، وإن الفتاة تعمل ساقية في أحد أزقة غلاطة الخلفية الطينية المتهالكة الرومية... ليتك رأيت "عمر"، ذلك العملاق، حينها يا كمال. فقد اندهش كثيراً، وفجأة اختفت من وجهه المكتنز كل المعاني والتعابير. وليس ضرورياً أن يكون الإنسان ذا بصيرة ليفهم أنه حاول إخفاء هذا بعد تلك الدقيقة. فقد أخذ نفساً متقطعاً، وانتقل إلى المنصة التي تمّ نصبها على مقربة منا بهدوء. وأتذكر أنه مرّر أصابعه السمراء ذات العقد الكبيرة على الأدوات والسطح المدهون بالزيت بهدوء وكأن لها إحساساً وعقلاً. لم يفعل عمر هذا لكي يخيف ضحيته كما يفعل عادة، بل إنّ الانهيار الذي عاشه حينها زاد من هيبته المميتة، وأعطاه جموداً

جهنمياً يليق بمهنته. أخرج بعناية واحدة من المسلات الفولاذية اللامعة من محفظة جلدية اعتاد عليها. وكما هو معلوم، عمر الأسود لا يسيطر عليه الغضب بسهولة، ويتجنب إيلام ضحيته في أثناء قيامه بوظيفته، ولديه رحمة غريبة خاصة به.

ولكنه اختلف هذه المرة. إذ تجعّد جلده الأسود وتهدل، وتحول إلى ما يشبه خرقة قديمة منسية على سقيفة، وتعكر بريق وجهه، وبرزت عروقه الزرقاء الصاعدة من صدغيه المتعرقين إلى رأسه الحليق المخيف أصلاً. كل هذه الأمور دلّت على انكسار شيء لا يمكن تجبيره داخله. كانت أنفاسه ترتجف وليس يديه، وحتى إن اللعاب بدأ يتسرب من بين شفتيه اللتين صارتا دقيقتين كخيطين لشدة ضغطه بإحداهما على الأخرى. وما جمّد دمي أساساً حالة عينيه. فنتيجة لما سمعه، ملأ الدم عينيه. شعرت بأن جسدي قد اقشعر يا كمال. من الذي يستطيع إيقافه الآن؟

أدخل المسلة في وعاء فخاري كان على المنصة، وزيتها، ثمّ مسحها بخرقة كتان مبعثرة الوبر، واقترب ببطء. استخدم إحدى ذراعيه كملقط آلي، وأمسك الرجل من خصره حيث مددناه على طاولة من السنديان...". حينئذ عاش وهيمي تلك اللحظة مجدداً، وعبّر عن الحالة بلغة الجسد. "... لن يكون من الصواب الدخول كثيراً في تفاصيل هذه القضية. ولكن، يكفيك أن تعرف هذا، كان عمر الأسود يعطي دروساً عملية...". صمت فترة، ثم زم شفتيه اللتين خرج اللعاب من بينهما وكأنه مشمئز، وقال: "الجلادون والجواسيس، ليس هناك فرق كبير بينهما، أليس كذلك يا كمال؟ إذ إن جمع بقايا الدولة المدماة، وتطهيرها، وتنظيفها من عمل الطبقة الأدنى مثلنا... سقطنا إلى هذا الدرك... وانخفضنا إلى هذه الدرجة...".

تمتم الشاب الأشقر الشهم قلقاً: "لا لزوم للحسرة يا وهيمي آغا... فإذا لم نفعل نحن هذا الأمر فسيقوم به آخرون. وهل القيام بأصعب الخدمات لدولتنا أمر سيئ؟".

"كنت أفكر مثلك قبل عدة سنوات...". ضحك وهيمي بصوت شخص متألم. "إنّ دماء أولئك الذين لفظوا أرواحهم بين يدي تبقى كبقع حمراء في مكان لا أستطيع رؤيته من جسمي... إنّها لا تمحى أبداً... ومهما غسلتها...".

اعترض كمال بنفاد صبر: "دعك من هذا يا آغا، أنت رجل مهم جداً، وبطل حقيقي. يقلقني حديثك على هذا النحو. قل لي الآن، ماذا قال الملا قعبض؟ لا تتوقف عن الكلام الآن يا أورخون جلبي...".

"كما قلت يا بني، كان يعرف أموراً عن مساعدي الجلاد الذين كانوا في الغرفة أيضاً... وكلها أمور سيئة يريد الإنسان أن يخفيها... وتحدث عني أيضاً... عن شبابي... ما يتعلق بأيام شبابي الطائش عندما كنت في مثل سنك. إنها أمور مخجلة نسيت أغلبها، أو أردت أن أنساها... تحدث عن الكثير من المشاكل التي عشتها قبل أن يأتي بي المرحوم سليم خان إلى هذه الوظيفة... كان السافل يروي بعضها بالتفصيل وكأنه كان شاهد عيان عليها...".

"وغير ذلك؟".

"غير ذلك، لم يكن يشعر بالألم...".

كرر كمال وكأنه يريد استيعاب ما سمعه: "لم يكن يشعر بالألم! كيف يا آغا؟".

ظهر في عيني وهيمي ذلك التعبير الجهنمي الذي يخيف أشد خصومه: "وهل فيها كيف يا ولد؟ أقول لك إنه لا يتألم، ألا تسمع؟".

صمت كمال باحترام وإن كان بصعوبة. تابع وهيمي: "عدم المؤاخذة يا بني، ولكن الجاسوس الجيّد هو الذي يخفي فضوله بمهارة، ويسحب الكلام بنعومة ومن دون فظاظة. من يُهزم أمام انفعاله مثلك، لا يجعله الكبار وتداً لحميرهم. أهدأ أولاً!". التفت بنظره إلى النار مجدداً، وألقى قطعة حطب أخرى.

"فعل عمر ما يستطيع فعله. وكان الملا يتململ قليلاً وكأن بعوضة تلسعه في أثناء غرز عمر تلك المسلات المدماة في أهدافها؛ واحدة تلو الأخرى. لم يفقد وعيه ولو مرّة واحدة... كان عمر الأسود ينفذ مهارته الخاصة بالزبانية على الرغم من غضبه. أما الملا، فقد كان يلوك بعض الأمور عنا، أمور سافلة ولكنها مع الأسف صحيحة، وعلى وجهه ابتسامة شيطانية... أما *الصليب الحديدي* فلم يأتِ على ذكره إلا تمتمة بشكل غير واضح قبيل موته مباشرة، عندما كان نور عينيه يخبو تدريجياً. صرخت: *الصليب الحديدي إذاً! احك، لا تتوقف!* فأعاد تكرار العبارة بصعوبة، *الصليب الحديدي... ستمتد عدالة مملكة هابسبورغ إلى العالم...* حكمة العزف... *ستكون إسطنبول بيت العرش للبابا والبروتستانت...* وبعد أن تمتم بهذه العبارات التي لا رابط بينها أبداً، مات...".

رفع كمال العباءة التي يتدثّر بها إلى فوق القبعة التي تفوح منها رائحة تشبه رائحة الماعز. وعلى الرغم من محاولته إخفاء أنه اهتز، فهو يعرف أن معلمه يشعر بكل شيء. سأل: "كيف يمكن للكاثوليك والبروتستانت أن يكونا وكيلين معاً وهما على هذه الدرجة من العداوة؟ ثم ما العزف هذا الذي يتحدّث عنه؟".

"ستدور الدنيا عكسيًّا يا بني... يدوخ عقلك حين تفكّر كيف يصبح الأصدقاء أعداء، ويأتي يوم يصبح فيه الأعداء أصدقاء. هذه أمور

لا يمكن إلا لحاكم عالم رفيع مثل السلطان سليمان أن يستوعب سرها. أول مرة سمعت فيها بالكتاب المسمى **العزف** كانت من فرحات باشا الذي قمع تمرد والي الشام جان بردي غزالي قبل سنين طويلة. رأى الباشا نسخة من هذا الكتاب بيد البدوي الذي دله على المكان الذي يختبئ فيه الخائن جان بردي. وبعد سنوات، سمعت بالكتاب نفسه من راهب كان في جيش المجر عندما تسللت إلى صفوفه قبيل حرب موهاتش. يدعي الكتاب أنه في زمن غير معروف، وفي موقع مستنقع المياه السوداء، سيلجأ أتباع منحرفون إلى تأدية نوعٍ من الطقوس الظلامية، وممارسة بعض الطقوس الفظيعة حول التضحية بالإنسان... وكتبه عبد الحضرة...".

"ماذا تقول يا آغا؟ انظر إلى حالتي، اقشعر جسدي".

"مهما يكن يا بني، هذه أمور تتجاوز حدود عقل الإنسان".

لم يتكلما لفترة. ثم قال كمال: "حسنٌ، بعد أن قتلت سافينو قائد *الصليب الحديدي*...".

فهم وهيمي ما سيسأل عنه تلميذه فقال: "أنت لا تجهل القصص التي تدور حول تنّين الحكايات ذي الرؤوس الألف يا كمال. كلما قطعت رأساً، ينبت له رأس جديد أقوى من السابق".

"ما الحل يا آغا؟".

"كان السلطان محمد الفاتح خان يقول لقادته: *الجرأة أساس القتال!* وهكذا عرف كيف يجعل العالم يطأطئ أمام سيفه ورحمته. وأولاده أيضاً هكذا، ولكن ثمة أيام في الأفق، ستكون الجرأة فيها أساس السلام".

"الآن فهمت سبب صمتك، وانغلاقك على نفسك كلما فتحت هذا الموضوع يا آغا. إذا أعلن واحد لا أعرفه أبداً عن

أسراري هكذا بسفالة وسط الناس فأنا لا أعرف ماذا سأفعل مـــن شدّة خجلي... والأسوأ من هذا، سأخاف يا آغـــا... ســـأخاف كثيراً...".

ضحك وهيمي: "هناك الكثير من الأســـرار في العـــالم تـــدهش الإنسان، وتذهب بعقله من الخوف يا كمالي. ثق تماماً أنك لا تريـــد حتى أن تمر بجانبها. ولكن مهنتنا تفرض علينا ألا نتوانى عن الغوص إلى أعمق أعماق كل سفالة".

الفصل الثاني

الأقاليم السبعة

I

"إذا لم يشهروا علينا السيف، ولم يدخلوا دولتنا،
ولم يظلموا رعيتنا، فلن يأتي ضرر منا لأحد."

السلطان محمد الفاتح

20 أيار 1529 – صحراء ديميتوكا

دخل إبراهيم باشا البرغالي الخيمة السلطانية حاملاً بيده شمعداناً من الكريستال الشامي الذي تفوح منه رائحة المسك، فرأى سليمان خان جالساً على عرشه مرتدياً الدرع ويفكر. ارتعش عندما التفت إليه، وانتبه أن نظرته لم تلمع بتلك الصداقة والمودة. شعر للحظة بأن سبيكة حديدية حامية قد جلست في معدته كما كان يشعر في بداية تلك الصداقة العجيبة التي صممها ورسم حدودها بمهارة منذ البداية. ولكنه غضب كثيراً من عودة هذا الشعور المتعب جداً والذي بقي في الماضي البعيد. رسم بسهولة الابتسامة الأحلى على شفتيه بموقف يتجاوز الاعتياد والصداقة. أصبح في "حال" تجعله واثقاً من أن قوته بالمحاكمة ليست موجودة لدى سليمان خان بفضل خبرته الكبيرة، وذكائه المتفوق.

ولكنه لحظة أراد إلقاء التحية، شعر بصعوبة تحريك لسانه وكأنه صرصار وقع في ثريد كثير المرق. تحركت عينا حاكم العالم الساهمتان على حطب السنديان المشتعل في الموقد الخزفي ببريق ذكّره ببريق العنب

البري الخالي من البذر برونــزي اللون الذي رآه خــارج الخيمــة. في اللحظة نفسها رأى إبراهيم لون دم يسيل على القسم الظاهر من غمد السيف المرصع بالمجوهرات. سأله بهدوء وهو يرتجف: "هل تسمح لي يا حاكم العالم؟".

صمت...

خطر بباله ما حدث بعد قراءة فرمان حاكم العالم الذي تُلي قبيل الغزوة، وشعر وكأن نار بارود قد قدحت في معدته فجأة. وهكذا كان الفرمان:

"إرادتي هي: الصهر إبراهيم البرغالي باشا هو الوزير الأعظم وقائد الجيش في دولتي الباقية إلى الأبد. ليعلم وزرائي، وسادة مناطقي، وكبار علمائي، وقضاتي، وأشرافي، وشيوخي، وسادة ولاياتي، وقادة فرســاني ومشاتي، وجيشي المُظفر دائماً، وموظفوي الكبار والصــغار جميعــاً، وعبيدي، وكل تبعيتي أن إبراهيم باشا قائد قادة الجند. يعتبر كل مــا يقوله أو يثق به درراً تخرج من فمه، ولا يجوز أبداً عدم الالتزام بها!".

منذ الأيام الأولى لصدور هذا الفرمان، صار ثاني أقوى رجــل في أقوى إمبراطورية بالعالم كما كان يحلم. ولكن، ما زال ثمة شيء يجعله متضايقاً، كيف يجب أن يقولها؟

قال له بصوت منخفض حين كانا جالسين على طــرفي طاولــة الشطرنج صامتين في الغرفة الخاصة: "تفضّل السلطان محمد الفاتح خان لوزيره الأعظم محمود باشا بأربعين مئة ألف فضية. لو تفضلتم علــى عبدكم هذا بإحسان كهذا، فلن يعد غريباً عن ألطاف وعزيمة سلطان سلاطيننا".

ذكّر سليمان خان البرغالي بهديّته بشكل يخجله من دون أن يرفع رأسه عن أحجار الشطرنج: "هذا يعني أن خمسمئة فضية نقداً، وســيفاً

مرصعاً بالمجوهرات، وتسعة خيول أصيلة مع أسراجها إحساناً مع قيادة الجيوش لم تُشبعك يا إبراهيم؟ تعتبر نفسك بمستوى فاتحي إسطنبول... إذا فعل جدي كل هذا معهم فهم يستحقون".

من المناسب أن يغلق الموضوع في هذا المكان، لأنه من الذكاء عدم دخول أي موضوع مادي في صداقتهما التي بدأت تتأثر بجهود وهيمي وخُرّم. ولكنه على الرغم من هذا وجد الشجاعة من كون حاكم العالم الصديق الأقرب للصدر الأعظم، ورجله الأكثر تضحية وشجاعة: "بودين عرش الملوك منذ زمن قديم يا سلطاني. وإن كانت لا تقارن بإسطنبول، ولكنها لا تقل عنها".

تُسمع أصوات أسلحة الدوريات والدروع وهي تبدّل المناوبة في الخارج، وتشق صمت الليل أصوات أجراس قوافل الجمال التي تحاول أن تصل إلى الجيش المجتمع أمام القصر بصمت وانضباط غير عاديين. هذه المرّة، كان سليمان خان من رفع رأسه وفي عينيه الخضراوين نظرة محتدة: "إسطنبول بيت عرشنا نحن. كيف يمكن مقارنة بودين بإسطنبول يا إبراهيم؟ ليكن بعلمك أن المساومات الكبرى تنجم عن الآمال التي تتجاوز الحدود".

خاف البرغالي، ولم يقف عند الأمر أكثر، بل طوق الأمر بعدة جمل جميلة آخذاً الأمر بالمزاح، وأغلقه. ولكن، هل يمكن أن يكون حاكم العالم ما زال يقف عند ذلك الحديث؟ هذا ممكن...

"سلطاني...".

رفع القانوني رأسه بهدوء، وخرج من الصمت المقشعر للبدن: "تفضل يا سيد سادة الأناضول وروملي، وقائد جيوشنا الدائم، وأخانا إبراهيم باشا البرغالي". ثمة نبرة متوازنة بصوت سليمان خان القوي الذي يشبه المياه الراكدة. تسبّب الهواء البارد بحفيف الستائر الغربولية

المطرزة بالأحجار الكريمة، إضافة إلى قماش الكتان والقطن الأفغاني المسدل بعقد كبيرة وقوية في الخيمة السلطانية. شعر البرغالي أنه يرتجف، واصطكت أسنانه من دون إرادته. هذا ما أغضبه أكثر. الحمد لله أن صوته خرج متوازناً من دون حشرجة: "إن شاء الله أنتم بعافية يا سيدي؟".

"أنا بخير يا إبراهيم". موقف حاكم العالم المفكر والجدي أكثر من المعتاد، زاد من قشعريرة جسم البرغالي المقشعر بتأثير برد الربيع.

"أنا أفكر قليلاً يا صديقي... قلت لأكتب شعراً كما أفعل دائماً، ولكن لم يبق له طعم كالسابق... ولا أدري إن كان هناك معنى للضغط أكثر...".

على الرغم من أن البرغالي كان نافد الصبر من أجل فهم حقيقة الأمر، إلا أنه غم عينيه بتعبير يعتقد أنه الأكثر قبولاً: "كنا نتمنى أن نسمع يا سيدنا".

تنهد سليمان خان، وحين أوشك على الإلقاء من ذاكرته محافظاً على جديته، رمق البرغالي. فجأة، تجلت بشكل غير واضح تماماً تلك الابتسامة التي لا تظهر إلا على الندماء المهرة. كان البرغالي قلقاً من حلول ابتسامة ساذجة.

فكّر إبراهيم في ظلمة داخله الخفيفة: "هناك شيء ما، ليس من عادته أن ينظر إليّ هكذا... هناك شيء يخفيه عني...".

"هل العشق ما يبدد روح اللسان وملكه

هل العشق ما يدخل قلبي، ويؤلمه

هل العشق ما يعلّق برقبتي سلاسل البلاء

يجعلني هائماً كمجنون ليلى، ويفضحني

هل العشق ما يجعل الورد غير الوفي

والبلابل تئن وتهذي حتى الصباح

هل العشق ما يجعل المرء يضحي بالروح من أجل الفراق

ويجعل الهم والضيق والغم تسكن القلب

هل العشق ما يجعل ذكرى الحبيبة جميلة الوجه

تحني القوام الشبيه بالرمح، لتجعله متلوياً

هل العشق ما يجعل العشاق يكتبون كتاب علم الهموم

ويؤسس لكتابة فصول قلبي

هل العشق ما يجعل قلب المحب يُكوى

لتغدو دموع لحظته الأخيرة بحراً."

قال البرغالي وهو يحاول تحويل شفتيه المتوترين المزمومتين إلى تلك الابتسامة المريحة المحببة التي يعرفها: "قلمكم يقطر دماً مجدداً يا سلطاني". ولكن السلطان لم يجامله. جمع أطراف قفطانه الأحمر المطرز بخيوط الذهب، والذي يبدو أفخم من قفطان سليمان خان، وصلّح وضع لفته، ثم تمتم: "هل هناك ما يضايقكم يا سلطان سلاطيننا؟".

شبك سليمان خان يديه على درع السلاسل المجدولة، واستند إلى الخلف: "ولكن الحل ليس عندك أو عندي يا إبراهيم". وكأن العباءة واللوحات البرونزية تحت الدرع لا تزعجه أبداً. لم يهتم قطّ لكل هذه القرقعة المعدنية والخشخشة التي يقشعر لها البدن. تماوج عرش الأبنوس الأشد سواداً من الليل في الخارج، والمرصع بالجواهر مصدراً أنيناً تحت ثقل جسمه الذي نما وقوي مع السنين.

"لعل عبدكم العاجز يجد طريقاً للحل".

ألقى سليمان خان نظرة متشككة، وقال: "الفرسان يا إبــراهيم. أنت تعرف أن ثقل النظام الاقتصادي والسياسي العثماني يعتمد علــى هؤلاء الفرسان؛ قلاع الحرب الفولاذية. أفكّر بأمرهم منذ زمن، وأقلق من تدني أهميتهم كثيراً في الفترة الأخيرة... الزمن يتغير يا إبــراهيم... وإذا لم يفقد الفرسان أهميتهم، فهم لم يعودوا بالأهمية الكبرى السابقة. صار الحسم مرتبطاً بالأسلحة النارية، ونحن لسنا منتجين كما كنـا في عهد جديّ الفاتح وبيازيد الثاني. أما أوروبا فتعمل على القضية باندفاع كبير.

أرسل وهيمي أورخون جلبــي تعريفاً بطريقة استخدام وحدات البنادق الجديدة التي أسسها شارلكان على شكل ستائر. إنه نظام جديد يستخدمونه ضد السكان المحليين في مستعمراتهم. يُصفّ رماة البنـادق ثلاثة وأربعة في الخلف، وليس في صف واحد وراء المتراس مثل رمــاة السهام. يطلق الصف الأول النار، ثم يتقدم الصف الذي يليه إلى الأمام، ويتابع إطلاق النار من أجل إعطائهم وقتاً لحشو بنادقهم. وبهذا تحقــق نيرانهم خسائر أكبر بسبب اقترابهم من الهدف، ويشكّل كــل منــهم ستارة أمام الآخر في آن واحد مشكلين قوة رهيبــة. ولقــد أجــروا تعديلات دقيقة على تركيبة البارود الأسود. تجري هذه الأعمال بسرية كبيرة، وقد وصلت ليد شارلكان من المستعمرات الإسبانية في أمريكــا الوسطى. يقول وهيمي إنهم عدّلوا تركيبتنا التي نستخدم فيها 15 بالمئة فحم، و10 بالمئة كبريت، و75 بالمئة نترات البوتاسيوم، فخفضوا نسبة نترات البوتاسيوم قليلاً، وزادوا نسبتي الفحم والكبريت قليلاً. بشــكل طبيعي يخفّض هذا الخليط احتراق نترات البوتاسيوم، ويزيــد احتــراق الفحم والكبريت. غير هذا، يحول خليط البارود الجديد دون الــتفجير المفاجئ، ويخفف من كثافة الدخان الذي يصدره البارود العادي".

قال البرغالي وعلى شفتيه ابتسامة استخفاف قلقة: "إنه دائماً يدعي بعض الأمور. ألم يرسل عينة من هذا البارود الجديد مع رسالته؛ حتى لو كانت صغيرة؟ لم يُنس بعد كيف حاول التأثير على السلطانة ماهدة فران لتكون ضدي، وحتى إنه أثّر في السلطانة خُرّم بكذبه السافل، وافترى عليّ افتراء يزلزل الأرض بأنني حصلت على السم من طلائع المقاتلين التتار. لم يُعثر على أي مادة سامة في أدوات الطعام التي ادعى أنها سممت زوجتكم وأولادكم، وقد حقق بالقضية سعدي جلبي وكيل قاضي إسطنبول شخصياً. وسعدي جلبي رجل علم وفضيلة. فهو لا يخاف أحداً على وجه الأرض أو يخشى منه، وكلامه ثقة. والآن يجوب فدائيو وهيمي حول الأفنديين عمر فهمي، وأرطغرول بمكر كحيوانات جائعة. يدّعون أنهم لا يريدون إشعارهما بغياب آغاهم، ويكونون بخدمتهما في كل لحظة. ولكنني أعرف هدفهم الأساسي، وهما أيضاً يعرفان، ولكنهما لا يهتمان. ليس وراء تصرفه هذا سوى مراقبة كل حركة أتحركها، وهذا الأمر مضايق بشكل كافٍ. لم تبق هناك أهمية للمسافة التي بيننا بفضل رجاله. إنه يستمد هذه الجرأة من رحمتكم السامية...".

لوّح سليمان خان بيده بملل لتجاوز هذه القضية: "أنت تعرف أنني لم أتوقف عند تلك القضية، عليك أن ترتاح من هذه الناحية يا إبراهيم. ووهيمي في مهمات خارجية منذ ذلك الوقت. وأنت أيضاً انسَ ما حدث، واستخدم رجال وهيمي لمصلحة الدولة. وهيمي رجلي الموثوق الذي يُضحّي بحياته ولاء لي. وأنا أثق به؛ طبعاً إلى درجة معينة. ولكنني غير مهتم بما يدور بينكما، وبشحذ كل منكما أسنانه للآخر. كلاكما ضروريان لهذه الدولة. وتعلمان جيّداً أنّه إذا حاول أحدكما إيذاء الآخر، فلن أتردد بالثأر للمتأذي. وتعرفان أنني أقسمت أن

أعلقكما على الكلابات في ساحة *أمين أونو* كما فعلت بقراصنة الحرم إذا حاول أحدكما أن يتهم الآخر بالباطل. لن يتغير قراري إن كنتما مدانين أو لا، حتى إنّ حقوق أخوّتكما لي لن تمنع إعدامكما يا إبراهيم. ويعتبر كل منكما مداناً للآخر. ولن تُدخلا حُرّم في عداوة أحدكما تجاه الآخر. يا ويلكما إذا حدث شيء للماهدة فران أو لأولادي".

فضّل إبراهيم أن يتجاهل هذا الجدار الفاصل بينه وبين حاكم العالم، ولم يستطع تجاوزه بأي شكل. وعندما كانت السماء ترعد في مكان ما قال: "سلطاني، روحكم تعني روحي. لهذا السبب لا ضرورة لقلقكم، فهذا يبعث على الحزن".

لم يقل سليمان خان شيئاً. وكان إبراهيم واثقاً من أنه سيراضيه. كان يعرف أن السلطانة حُرّم تحاول توجيه سلطان السلاطين بأمور حوله لا أساس لها عن طريق وهيمي جلبي، ولكنه فضّل البقاء صامتاً، ومراقبة تصرفات السلطان. بالنتيجة لم يكن لديه شك بأن سليمان خان يحبه، ويثق به في شؤون الدولة كلها. قدح بريق في عقله في تلك اللحظة. وكأن سطح ذهنه المغبر بدأ يلمع. بدأت تشتعل في أعماق أفكاره نار عظيمة شررها يُبهر الأبصار. اهتز نتيجة شعورٍ مخجل ومؤلم وقع وسط ظلامه منذ فترة طويلة من دون أن ينتبه إليه، ولكن لم يكن من نصيبه تفسيره إلا في هذه الليلة.

شكّه بمشاعر الصداقة التي تربطه بالقانوني طوال هذا الوقت، هو في الحقيقة تعبير مدهش عن التكبر. أما سبب تمسك القانوني به، فناجم عن العبرة التي استنتجها من تعلقه المرضي بالسلطة أكثر من انعكاس طموحه وقوته. حسنٌ، ألا يغدو في هذه الحالة هو المُستَغَلّ؟ حباً بالله، مَنْ الأذكى؟ حاصر الشعور بالندم أسوار التكبر مثل جيوش الاحتلال التي لا ترحم. كان غاضباً جداً... جداً...

II

قال سليمان خان بحدة تُذكّر بحدة والده وهو يضـــرب بقبضـــته على ركبته: "انظرا، انظرا كيف اغتنى الهابسبورغيون من مستعمراتهم، والأهم من هذا أهم على وشك أن يتفوقوا علينا بتقنيـــات الحـــرب. انظرا، واستحيا قليلاً. أتريدان مني أن أقضي كل لحظـــة مـــن وقـــتي بمراقبتكما، وكل منكما يريد أن أسفك دم الآخر من أجلـــه. ولكـــن عدونا الحقيقي يتطور، ويسحب منا مهارة روح المبادرة التي نحن على وشك أن نفقدها. كل شيء من أجل رفاه الأمة، وسلامة الدولة يـــا إبراهيم، عليك حتى أنت أن تدرك هذا باعتبارك صديقي وأخـــي، وأن تنتبه لنفسك. لن أرد على دموع أحد... أي أحد...".

قال إبراهيم بصوت ضعيف: "أنا أيضاً منتبه منذ فترة لقلقكم من فرسان جباية العشر". وأطرق بعينيه المفكرتين نحو قفطانـــه الحريـــري الأسود، وجزمته الجلدية الحمراء. لا أحد يفوقه بالتوجيـــه إلى المحـــور الأساسي للموضوع. خلال صمت قصير تشكّل بعدئذ، شعر بحـــزن مفاجئ من فكرته عندما دخل الخيمة. إذ بدا وكأن سليمان خان يسبح ببطء في بحر من الأسرار، ولكنه استطاع أن يخفيها عن أقرب صـــديق إليه. شعر البرغالي أن رأسه يدور وكأنه في حلم، وهو مسحوق تحت نظرات حاكم العالم الشاب. هل يعقل أنه أخطأ بفهمه؟ فكّر في سرّه: "على مدى تسع سنوات؟! وهل أنا رجل أتوه في طريقي داخل لعبـــة وضعتُ قواعدها بنفسي؟". وفيما كان ثمة برد محمّل برائحـــة الجبـــل والربيع في الخارج، ودخلت نسمة محملة برائحة المطر، همس للظلام في داخله: "وماذا أكثر؟ هل أشك في نفسي الآن؟ في هذه الليلة، بعد كل هذه السنين؟ الآن بدأت ركبتاي بالارتجاف بعد أن اضـــطر وهيمـــي وحُرّم للبقاء في ظلي؟".

قال سليمان خان: "وكأنك غريب هذا المساء". تتماوج بشـرة وجهه الزئبقية اللامعة في الغرفة وكأنها حوض سمك خفيـف الظلمـة ومليء بالماء الصافي. حرّك إبراهيم لسانه بصعوبة وكأنه غدا سـبيكة حديدية، وقال: "أنا بخير، أدعو أن تكون صحتكم جيدة يـا سـلطان سلاطيننا، وأفكر بما قلتموه". أخذ نفساً: "منع العثمانيون ملكية الأرض والاستغلال، ودعموا الشعب ولم يدعموا الإقطاع لكي يحولـوا دون اجتماع الرفاهية في يد واحدة. وبفضل إنهاء الإقطاع، وتوزيع الأرض على الفلاحين تقدم العثمانيون في البلقان بسرعة كبيرة اعتبـاراً مـن النصف الثاني من القرن الرابع عشر. الرعية تستأجر الأرض، وفرسـان جباية العشر يشرفون على هذا النظام. وبهذا مُنع نمو الملكيات عبر الربح الكبير. وعندما تفقد القرى بعض العائلات بسبب تمرد أو حـرب أو جفاف، يمنع فرسان جباية العشر من ضم أراضي تلك العـائلات إلى أملاكهم، كما لا توزع تلك الأراضي على الباقين مـن القـرويين. ويطرق باب جلب عائلات جديدة لإحياء تلك الأرض. ولكن هـذا النظام يتعرض للخطر، أنتم على حق.

مع ازدياد أهمية الإنكشاريين يزداد عددهم، ومع ازدياد عـددهم تزداد جرأتهم. ولأن الأسلحة النارية غير مساعدة للاسـتخدام علـى صهوات الخيل، يتم اختيار عناصر مطلقي النيران بواسطة البنادق مـن الإنكشاريين الذين كانوا يشتكون من توسيخ ألبستهم الأنيقة نتيجـة احتراق البارود. وهؤلاء أيضاً لا يمكن الاعتراض عليهم، لأنه وُجد أن النتيجة ستكون لصالحهم. ولكن زيادة أعداد الإنكشاريين تعني قبضهم رواتبهم الشهرية والفصلية من الخزينة مباشرة، وهذا يعني حملاً أثقـل على الخزينة. إذا وضعت عثرة أمام الفرسان الذين يجمعون الضريبة مع ارتفاع أصوات المعارضة للنظام العام، فستدخل الدولة مأزقاً كـبيراً.

ويجب ألاّ ننسى أن عبيدكم المتخرجين من مدرسة القصر يتقاضون رواتب وأعطيات كبيرة، وحتى إنّ الفرسان الذين يتخذون دائماً موقفاً مؤيداً للسادة الأتراك استاءوا من هذا الأمر، ووقفوا ضد رعيتكم من الأتراك والمحوّل دينهم الذين يشكلون القوة المحافظة على مؤسساتية الدولة. كما أنّ تغيير طرق التجارة بسبب اكتشافات البحارة البرتغاليين، ونقص عدد قوافل التجارة البرية، يقلّلان مصادر دخل الخزينة العثمانية من يوم إلى آخر. حلنا الوحيد هو الحرب، وملء الخزينة بفتوحات جديدة، وبهذا نحول دون قلق الجنود يا سلطاننا".

بنبرة غاضبة، قال سليمان خان: "إذا لم تجد الدولة غير الحرب حلاً من أجل استقرارها المالي، فهذا يعني أن عمر هذه الدولة لن يكون طويلاً".

"طالما أننا نفرض كلمتنا على الجنود، ونحول دون التمرد في الأناضول، ودون الهجرات الجماعية، ونحافظ على دخلنا الزراعي، فنحن بعيدون عن الخطر يا سلطان السلاطين. لأن طرق التجارة في شرق المتوسط، طرق الحرير تبريز - بورصة، وتبريز - حلب تحت سيطرتنا تماماً. ما زالت بورصة تحافظ على أهميتها في توزيع حرير الشرق، وصوف أوروبا. اقتُلع البرتغاليون من البحر الأحمر، ورُموا بعيداً، ونحن لا ندعهم يتنفسون في المحيط الهندي. إذا استطعنا ضم إقليم العراق كله، فبإمكاننا أن نتحرك بسهولة أكبر من خلال قاعدة بحرية كبيرة نؤسسها في خليج البصرة، ونكسر ظهر المكسب الكبير الذي حققه البرتغاليون باكتشافهم رأس الرجاء الصالح. أُنزلت هذا العام خمسة آلاف قنطار من البهارات في ميناء لشبونة. ومع الأسف، بقي لدينا عشرون ألف قنطار فقط. علينا أن نقلق يا سلطان سلاطيننا إذا لم نستطع فتح طريق البصرة. لأن وصول البهارات إلى الأسواق من الغرب، سيكون تطوّراً غير مناسب".

ظهر نور بلون البنفسج يشبه ليالي البوسفور حين أبعدت الريح الستائر الغربولية. قال القانوني ضاغطاً على أسنانه: "معك حق. إذا اقترب الخطر فسيهرب الأغنياء أولاً يا إبراهيم. من غير الممكن تفسير تناقص فعاليات تجار البندقية وجنفيز الذين ضحت الدولة العلية على مدى عصور بمنحهم كل تلك الامتيازات. يطرح البرتغاليون بضاعة رخيصة في الأسواق لكي يجعلوا أسواقهم أكثر جاذبية. مع أن رغبتهم الوحيدة الآن تتمثّل في تغيير جهة السوق. ولكن اللعبة الصعبة تخرب يا إبراهيم...".

"أراك الليلة غاضباً جداً يا سلطان سلاطيننا".

"الكفار يتنفسون في بودين، وتريد أن تكون حالنا غير ذلك يا إبراهيم؟". بدا له وكأن صوتَ القانوني المنفجر بغضب شررٌ يتصاعد من نار تتأجج في صدره.

بدا للبرغالي أنه يرى السلطان سليم الجبار الذي تلهج الألسن بذكره تحت أضواء الشمعدانات مرتفعة القوائم، والمبهرة للبصر بارتجافها مع هبوب الهواء البارد. لم يكن إبراهيم يعرف السلطان المرحوم سوى مما قرأه عنه، ورواه المقربون المعجبون به، ولكن سليمان خان يتقمص شخصية والده المرحوم هذا عندما يرتدي الدرع في حالات نادرة.

"الألمان في بودين منذ 22 ذي القعدة (20 آب 1527) يا سيدنا. منذ سنتين تقريباً".

تابع سليمان خان رافعاً صوته: "أنا... لو استطعت أن أكون كوالدي...".

شعر إبراهيم بالقشعريرة مجدداً. وغُرز نَفَسَه في حنجرته كالسهم، وخرج كالصفير.

"... لو استطعت أن أكون مثله، لما غامر الكفار حتى بالاقتراب من وادٍ في ظل رايتنا لسقاية خيولهم. نحن مشغولون بهزائمنا الداخلية، ونخسر منذ فترة طويلة، والهابسبورغيون يديرون قوتهم بذكاء، ويوجهونها بنجاح. علينا أن نخطو خطوات بناءة وأكثر ديمومة يا إبراهيم. انتفضت أوروبا أكثر مما توقعنا، وصحت على نفسها. وفي أثناء تقدمها بعصر النهضة، وحركات الإصلاح، وتقديم العثمانيين الامتيازات العسكرية والتجارية لها، بدأت كل دولة أوروبية تغدو خصماً خطيراً. إنهم يعرفون كيف يدفعون لاجوس الثاني ملك المجر الذي ما زال ولداً ضدنا، ولكن فرديناند وأخاه لا يجرؤان على الوقوف أمامنا. وفور عودتنا، تجرأ على إرسال شقيقه فرديناند بغدر، ودنس ولايتنا بودين بقدميه النجستين. ولكن ثمن هذا باهظ. سأحفر في أدمغة أهالي أقاليم الأرض السبعة بأنه ليس هناك في الدنيا أحد غيري يستطيع سحق فرندش، وبعده الملك كارلو. نحن نعرف أن النقود ليست كل شيء، لنرَ ما إذا كانوا هم أيضاً يعرفون هذا؟".

قال إبراهيم بهدوء: "بالتوفيق يا حاكم العالم، ولكننا يجب ألاّ نستعجل في هذا الأمر. فكما تعرفون، يرسل إليكم وهيمي أورخون جلبي رسائل يقول فيها إن فرديناند لن يهاجمكم. هؤلاء لا يختلفون بشيء عن شريكهم الشاه طهماسب. قال والدكم السلطان سليم الجبار خان للشاه إسماعيل والد طهماسب في رسالة قبيل حرب تشالدران إنّ الدولة التي بيد سلطان السلاطين مثل الزوجة المعقود قرانه عليها، والرجل الشهم لا يسمح بأن يمسها رجل غيره. وعلى الرغم من هذا، أغمض إسماعيل عينيه عن التجاوزات على بلده لمدة طويلة. أخشى أن يبقى هؤلاء صامتين على عمليات

استباحتنا أرضهم، ولن يخرجوا بقوهم الأساسية أمامنا يا حاكم العالم".

"في هذه الحال، ما الذي يعنيه ما يعمله كارلو يا إبراهيم؟ هل تصرّ على أنه عبارة عن استعراض قوة بسيط؟".

"أصر يا سلطاننا. لهذا السبب لم يخف منكم الهابسبورغيون، وأثبتوا للعالم أهم يستطيعون دخول قلاعكم بوحدات صغيرة عند الضرورة. يجب أن يكونوا قد حشدوا قوهم الضاربة خلف أسوار بودين. في الحقيقة، أنا أشك حتى بهذا. ما أراد كارلو وفرندش أن يقولاه هو: لدينا قوة تمكننا من الهجوم على العثمانيين لحظة عودهم. إذا توحدنا نستطيع أن نخلّص أوروبا من البلية العثمانية".

هز سليمان خان رأسه إلى الجانبين بمزيد من الهم، وقال: "لا يهمني أبداً. سنسير إلى داخل النمسا بعد بودين، ونحاصر فينا، ونأخذها خلال فترة قصيرة...".

ارتعش إبراهيم بتأثير الريح التي دخلت وحركت الستارة أمامَ النافذة على الرغم من قربه من الموقد: "نحن لا نعرف ما ينتظرنا داخل المجر. فرسان فرديناند الأقوياء يشحذون أسنانهم من أجل أن يثأروا لقضية موهاتش. وإذا لم نواجه مقاومة قوية، فإن تحصننا في بودين، وتأسيسنا موقع قيادة جديداً سيتطلب منا أشهراً. وقد ظهر أن زابوليا لن يستطيع القيام بهذه الأمور كلها وحده. ولكن الزمن الذي سنقضيه يعني تفويتنا للفصل الجيد. ومن المستحيل أن نسير نحو قلعة قوية مثل فينّا إذا لم نؤسس دفاعات قوية خلفنا".

نهض القانوني عن عرشه بضجة وهو يضرب على ركبتيه: "أنا أسقطت بلغراد في أربعة وثلاثين يوماً وقد قيل لي إنها لا تسقط، ولم يستطع جدّاي مراد الثاني ومحمد الفاتح إسقاطها، وأسقطتُ رودوس

أيضاً التي ينطبق عليها الكلام نفسه في مئة وأربعة وأربعين يوماً بإذن الله يا إبراهيم". شعر بأنه غضب بشكل مفاجئ كوالده، فدهش، ثم أخذ نفساً عميقاً، وعاد إلى حالته السابقة. "ولكن الحق معك في ما تقوله يا إبراهيم. الهجوم الزائد بلية على الرأس. وقد حقق أبي انتصاراته بذكائه بقدر ما حققها بشجاعته. كان غضبه يجعل العالم يرتجف أمامه. لم تشهد الدولة العلية أكبر من محمد الفاتح وسليم الجبار".

"كان والدكم يفعل ما يناسب طبيعته يا سيدي. وأنتم افعلوا هذا. الشخص على ما هو، ومحاولة تجاوز هذا تخدع. تكمن عظمتكم من وساعة اعتدالكم، وانتظاركم الزمن الأنسب لتتحركوا. وكان فتح بلغراد ورودوس، والانتصار بمعركة موهاتش نتيجة لهذا الأمر".

حين ابتسم سليمان خان، شعر البرغالي بأن الشمس قد أشرقت في قلبه. قال حاكم العالم: "ماذا كنت سأفعل من دونك يا إبراهيم؟ العالم صار ثقيلاً على كاهلي... أنت صديقي القديم والمخلص. جميل جداً أن أشاركك همّي هذا... لنستعِد ولايتنا بودين هذه المرة، ولنرَ ما إذا كان فرندوش سيجرؤ على الخطو خطوة ثانية...".

عندما شعر إبراهيم بالدموع تكوي عينيه، لم يعرف إلى أي مدى هو صادق، وفكر بإمكانية أن يكون سليمان خان أيضاً لديه الشك نفسه، فشعر بالضيق. ولكنه أطرق برأسه كثيراً، وتمسك بالدمعتين المنهمرتين من عينيه بحسرة ومحبة.

III

21 آب 1529 - أحراش بوهل

جنوب شرق أسترغون بعشرين كيلومتراً

صرخ وهيمي وهو مقطب حاجبيه: "بهدوء... بهدوء، وإلا فستأتي الصفعة! انظر يا هذا... ابني كمال، أهكذا تكلمنا؟ كان عليك أن تبقى هادئاً...". كان وهيمي أورخون جلبي ينظر إلى وادٍ اختلط لون قمحه الأصفر بلون الشمس الموشك حرّها على الاختفاء ونهر طونا شديد الزرقة من السفح المغطى بأشجار السنديان، وفي الوقت نفسه تناول لحم أرنب مطبوخ بالبصل والمرق من طبق خشبي أمامه.

شد كمال الغرناطي لجام حصانه الذي يطفو الزبد على فمه وهو يقول: "هذا ليس وقت الانتظار يا آغا". أراد الحصان أن ينتفض ليريح عضلاته المتصببة عرقاً تحت السرج، ولكنه لم يستطع أن يفعل ذلك. دهن كمال منخري الحصان بالدم النازف من جرح فتحه في ذراعه من رسغه نحو الأعلى، وهاج الحيوان، ولم يعد من الممكن ضبطه. إنه يريد أن يركض الآن، وسيبقى راكضاً حتى ينهار. هذه طريقة سيئة يعتمدها المراسلون الذين يريدون إيصال خبر ما بأسرع ما يمكن. عموماً، تنتهي هذه الحالة بالموت بعد أن ينزف الحصان من بين أسنانه وشفتيه، أو بجنون يصل إلى درجة الانهيار. يجب غسل منخري الحصان بسرعة، وسقايته ماءً محلى بالعسل لكي يهدأ.

وبينما كان سائسو *الهلال الفولاذي* المتخرجون من إسطبلات القصر يهرعون نحو الحصان، قال وهيمي: "اترك حصانك، وتكلم!".

قفز كمال، واندس بين خيم حراس وهيمي الصغيرة المتناغمة مع خضرة الغابة المغبرّة إلى الخيمة التي في الوسط. كان يلهث وكأنه هو

الذي ركض كل تلك المسافة. "تعرف يا وهيمي آغا تاج المجر كورونا الذي سرقه جواسيس *الصليب الحديدي* من موقع زابوليا العسكري في سغادين".

"أعرفه".

"سيطر بالي بيك يحيى باشا زادة مالكوتش أوغلو سيد إزفورنيك على طريق فينا قرب غيور على تاج كورونا الشهير يا آغا. ويقول لك مالكوتش أوغلو: ليرسل وهيمي الجواسيس الذين تحت إمرته بسرعة، لكي يستلموا الكورونا، ويوصلوه لركيزة العالم حاكم الدنيا سلطان سلاطيننا الذي ينصب خيمته السلطانية في صحراء مواتش".

تناول وهيمي لحماً بالمرق بغضب وقال: "أمن أجل هذا تجعل الحصان الجميل الذي تمتطيه يكاد يموت يا بني؟ إذا كان تاج المجر على رأس مجري أو غيره، فإن حاكم هؤلاء الحقيقي هو سليمان خان".

قفز كمال بحيويته الحاضرة دائماً وقال: "أخبرني مالكوتش أوغلو باللغة المجرية عن أهمية التاج المدعو كورونا. فمن يضع التاج على رأسه، تبايعه الأنساب كلها، ويزول الخلاف بينها. لأن جناب الحق لا يُلبس هذا التاج المبجّل إلا لمن يستحقه".

قال وهيمي بعد أن سمع هذا: "إذاً، القضية خطيرة يا بني". ونادى فدائييه: "يا ذوي الهلال، إذا لم ننطلق في الطريق خلال ربع ساعة، فالجأوا إلى الله من غضبي. لا يجوز أن نتأخر على السيد مالكوتش أوغلو، لأن أمانته هامة جداً؛ حيث إنّها تسهّل أمور العثمانيين".

14 أيلول 1529 – أمام بودين

وقف السلطان سليمان خان القانوني تحت الراية البيضاء الحريرية المطرز عليها شعار العثمانيين، ورموز السلطنة السبعة بخيوط الذهب في

الفسحة الظليلة المعروفة بأهميتها، والتي لا يجوز الكلام فيها إلا همساً عند الضرورة القصوى، ويحرسها أكثر الحراس خصوصية وهم مستعدون للتضحية بأرواحهم.

أما خيمة إبراهيم باشا البرغالي الفخمة فهي لا تقل عن خيمة حاكم العالم من ناحية المساحة الظليلة والفسحة الواسعة، ولا ينقصها سوى شعار الخلافة؛ فهي منصوبة في السهل الواسع المجاور لخيمة سلطان السلاطين. وكثرة عدد حراسه المسلحين بالبنادق، وهيبتهم، تجعلاهم متميزين مباشرة عن حاشية بقية الوزراء. وبموجب القانون الجديد الذي أصدره الباشا، يتألف لباس كل من هؤلاء الحراس من ثوب مفتوح طويل قطني كحلي اللون، وسترة فخمة من فرو باندا أسود، وسروال من الوبر فيه حلقة حول رسغ القدم تحول دون التوائه. كما يرتدون دروعاً من السلاسل الخفيفة المجدولة بدلاً من الدروع التقليدية المؤلفة من قطع للصدر، ولوحات للظهر لتكون قابليتهم بالحركة كبيرة. وهم يستخدمون بلطات حربية حادة من الطرفين، ويتسلحون بخناجر طويلة ذات حدين إلى جانب بنادقهم. ويغطي حراس الباشا على جنود حماية سلطان السلاطين ذوي الهيبة وهم يرتدون الأسود والأحمر.

وعلى امتداد موقع الجيش ترتفع رايات الفرسان الحمراء، ورايات الإنكشاريين الخضراء والحمراء والصفراء، وحول مدينة الخيام ترفرف رايات الفصائل بدرجات اللونين الكاكي والأسود بين المعانين والمعذبين في الخارج. وتختلط رائحة الزيت والزفت ونترات البوتاسيوم التي تلف المعسكر برائحة الأرض المحصودة وأزهار الخريف المتأخرة.

نظام الجيش العثماني غير القابل للنقاش يؤكد عظمته التي ترجّف قلوب المراقبين الغربيين. فوق هذا، إن سماء المساء غير المتناهية،

والشمس الغاربة بألعابها اللونية التي تتصادم في أفقها الغربـــي ألـــوان العقيق والياقوت تشكّلان الوجه الخارجي اللافت لموقع جيش وساحة حرب تغلي.

ومنذ قدوم الشيخ مصلح الدين مركز أفندي، وأخ حاكم العـــالم بالرضاعة الذي يحبه يحيى أفندي إلى الخيمة السلطانية، وبدء نـــــزول الجيش أمام بودين وفرقة الموسيقى العسكرية تعزف "النوبة" أمام أسوار المدينة.

ومع سماع صوت: "هذا وقت السرور والصفاء يا رئيس الفرقـــة الموسيقية! هيه، هيه!". خرج القانوني باحترام لمقابلة صديقيه العزيـــزين عند الباب، وأجلسهما على المقعد الطويل المغطى بالديباج الأحمر.

عندما كانت مقطوعة ثلاثية تُعزف بأسلوب "صوفيان" بدأ تقديم شراب الكرز والفريز المثلج.

وبعد أن ارتفع صوت قائد الفرقة العسكرية بالقول: "مرحباً يـــا أعضاء الفرقة!" بزمن قصير، بدا وكأن السماء قد انطبقت على الأرض بردّ الفرقة: "مرحبا يا رئيس الفرقة آغا!". بدأ رئيس الفرقة بعد ذلـــك بالدعاء: "الله الله، يا جليل يا جبار، يا مؤنس ويا ستار، يا خالق الليل والنهار، لا يحول ولا يزول، يا ذا الجلال، لا إله إلا الله! جامع الجمال. نبينا خاتم الأنبياء جناب أحمد محمد محمود المصطفى...".

صلى عليه حاكم العالم وضيوفه والسادة الذين كانوا في الخارج.

"إلى الرسول المجتبى، وإلى الشيوخ، والمرشدين، والمحبين، وحفظة القرآن، وحافظي عهده، وحملته، ومن سبقونا، والمـــؤمنين كـــان الله بعونهم، وإلى سعادة خليفة الإسلام السلطان ابن الســـلطان، وأمـــة المسلمين جمعاء، وإلى شيوخ الطرائق والعلماء، ولننقل للزمن والماضي: تباً! تبـــ..ــــاً...". ضربت الفرقة الموسيقية بقـــوة علـــى الطبـــول،

وقرعت الأجراس بشدة تسع مرات، وصرخ أعضاء الفرقة: "تبـــاً". وبعد ذلك قرعوا على الطبل الضخم بقوة ثلاث مرّات. "أعوذ بالله، أعوذ بالله... لا حدود لشكر الهدى، لا إله إلا الله! مالــــك الملــك! محمد رسول الله، صادق الوعد الأمين! إنا فتحنا لك فتحـــاً مبينـــاً، وينصرك الله نصراً عزيزاً! يا خليفة الله، يا سلطان السلاطين بارككم الله بالإسلام! أنتم حارس الدين المبين، حارس شـــرع الله! فـــتح الله عليكم يا سلطان سلاطيننا ومجّد الله مستقبلكم! جعـــل الله ســـيفكم قاطعاً، ونور سلطتكم مشمساً! أدامكم الله فخراً للعـــالم، وجعـــل غزوتكم مباركة".

بدأ رئيس الفصيل بالقراءة بنبرة قوية ترجف القلـــوب المؤمنـــة: "وبشر المؤمنين بنصر من الله وفتح قريب". توقف معطياً زمناً لترديـــد لفظ الجلالة "الله" ثلاث مرات. ثم بدأت بقية الآلات الموسيقية والطبول الكبيرة والصغيرة تعزف معاً بشكل خفيف. وبعد أن صـــرخ الجميـــع بصوت واحد: "الله، الله!" خيم فجأة على صحراء بـــودين صـــمت مطبق. ولكنهم انتقلوا إلى الابتهال من دون تضييع زمن طويل: "يـــده مدماة، وسيفه مدمى، وقلبه شفاف، ورئته براقة. منطلق في طريـــق الله إلى ساحة الشهادة. ويرى في الشهداء جمال الحق. والأسف على غضبنا وحنقنا من أعدائنا! يا رحمن!... لنصرخ للأسف!".

سُمع رئيس الفرقة الموسيقية العسكرية وهو يصـــرخ: "هـــس، قف!". وبعدها قال: "هيا، يا لله!" وانتقلت الفرقة إلى العزف. كـــان أهالي بودين من خلف أبراج الأسوار اللامعة ببريق برونـــزي ينظرون بعيون فزعة إلى الحقول الواسعة المسحوقة تحت عظمة جيش العثمانيين، من دون أن يُبدوا أيّ ردّ على الرغم من وجـــود الفرقـــة الموســـيقية العسكرية على مرمى سهامهم.

IV

قال سليمان خان شارباً إكسير اختصار الكلام: "قبل سنين، عندما كنت سيد سنجق مانيسا، نبهني أستاذي الحكيم والعالم والمتصوف العظيم خلال حديث ذات مساء قائلاً: *العظماء محاطون بكذب عظيم*، وأضاف: *لا مفر من أن يشعر الذي يعيش في مركز الكذب العظيم في النهاية أنه كذبة عظيمة*. أليس كذلك يا أستاذي؟".

أخذ الولي العظيم نفساً عميقاً من هواء الخيمة المعطر بعصارة الأزهار الشتوية، وأحنى رأسه ذا اللفة البيضاء الكبيرة إلى الأمام قليلاً، ثم قال مخاطباً يحيى أفندي بوجه باسم ومطمئن: "تتلطف علينا يا حضرة حاكم العالم، نحن عبيد لا حول لنا، وبعيدون جداً عن الوصف الذي تفضّلتم به. ولكن هذا الذي قلتموه صحيح. فالجلوس لمدة قرن في زنزانة أفضل من الجلوس يوماً على عرش الدنيا. لأن الله صديق المظلوم، والله أيضاً خصم الظالم. كلما ارتقى الإنسان بالمقام والموقع في الدنيا، سهل ظلم الناس، ويكون الحساب في الآخرة أقسى بدرجات. عندما نموت، سنجد الدنيا عبارة عن حلم مزعج على الأغلب. أما بالنسبة لأصحاب السلطة، فمن الصعب عليهم إزاحة ستارة الرياء، والبعد عن الظلم. وإذا لم يُدهش العبد العاجز من كون المرائين أقرب الناس إليه، فمن الذي سيدهش؟".

كان مركز أفندي في السادسة والستين من عمره، ومع هذا فهو حيوي إلى أقصى درجة. تقبل متاعب هذا السفر برحابة. وكان ينوي المشاركة في الغزوة، ونصح الجنود، والأهم أن يستشهد. كان يبرق بسكينة النفس الواسعة التي وصلت إلى مرتبة الإحسان مثل ألماسة نادرة. تنهد تنهيدة خفيفة، وتابع: "يا حاكم العالم، نحن نعيد ما تعلمناه من أستاذنا سنبل سنان أفندي الذي لم نبلغ مقامه. ولكن، بما أن

حضرتكم قد تفضلتم علينا بجلبنا إلى هنا - نحن دون هذا المقام - فأنا أريدكم أن تعرفوا أننا -أخي يحيى أفندي وأنا - ندعو لكم ولجنودكم. ارفعوا رأسكم عن الأرض يا سلطان سلاطيننا، إذ يليق بكم النظر إلى السماء، والبريق كالشمس".

ضغط سليمان خان على أسنانه محاولاً مقاومة دمعتين من نار تحرقان نبع عينيه، وكلما انشرح قلبه، وتطهر من ذنوبه، سما بشعور الوصول إلى الصفاء.

هز يحيى أفندي رأسه بشكل خفيف بمعنى: "صحيح". بجبته البيضاء كالحليب، ولفته الطويلة ذات اللون نفسه تبدو عليه هيبة عظيمة وكأن متفجرات كثيرة انفجرت في ظلمات دماغه، فأبهرت عيني السلطان بألوان براقة لا تحصى.

"موقعكم يحتاج لوقفة عظيمة وثابتة كما يقف كل عظيم. ولكن، لا تهتموا، فمن أوصلكم إلى هذا المقام، وحملكم هذا العبء، سيمنحكم الصبر على حمله. لأنه لا يمتحن المرء بحمل لا يستطيع حمله. يتفضل علينا الله تعالى في الآية الخامسة من سورة الانشراح: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾. الجأوا إلى الصديق يا حاكم العالم، الجأوا إلى الصديق، وإذا لم تفعلوا هذا، فلن تجدوا باباً يفتح لكم".

سقط ضوء عسلي ناعم من شمس العصر في سماء الخريف على الخيمة السلطانية الحمراء والكحلية. وحاول سليمان خان ألا يقصّر بالتواضع على قدر ما تسمح له مكانته لرَجُلي الله هذين. كان يسبح في بحار مشاعر صادقة لا يستطيع شرحها حتى هو. لأن تلك المشاعر كانت كبيرة إلى درجة يمكن أن تصغره أو تفقده نفسه تماماً نتيجة محاولات لا معنى لها. وكأن مئات الذكريات الممتدة منذ طفولته إلى اليوم تقف في بلعومه، وتسد نَفَسَه بطعم مرّ تتركه في ذهنه وعقله،

ويبتلعه باستمرار من دون جدوى. ومثلما هو في مرتبة لا يمكن لأهل الدنيا أن يصلوها حتى في أحلامهم، فمقامه مخيف ومرهوب الجانب بالنسبة لرجال الآخرة. ما هذا السر؟

سمع من أخيه بالرضاعة حضرة يحيى أفندي الذي يناديه *أخي الكبير* على الرغم من أنه يكبره بعدة أشهر وكأنه في حلم: "أنت تعرف يا مركز أفندي أن حاكم العالم شاعر".

تفضل حضرته بتعبير باسم يليق بتوازنه: "تعرفون أن الشاعر إبراهيم غولشان أحد كبار الأولياء، وخبير كلام المختصر المفيد معجب بحضرته".

قال السلطان بصوت مخنوق: "لم يعد حضرة إبراهيم غولشان يستطيع تحمّل سفر طويل بسبب تقدمه بالسن، ولكنه تحت إشراف أفضل الأطباء. كنا نتمنى وجوده هنا الآن".

قال يحيى أفندي موجهاً عينيه البارقتين إلى أخيه: "إذا سمحتم، نرجو أن نستذكر حضرة غولشان. ذِكْرُ رجال مباركين مثله وسيلة لتتجلى أرواحهم، ويحظوا بالرحمة".

قال سليمان خان: "سمحت يا أستاذي". وأطرق برأسه فوراً، فانتبه إلى لباسه الذي لا يمكن أن يوجد مثله بسهولة، وخجل.

"مر يومي بغفلة وأنا أنادي آه أنت عمري

لأن البعض جزء من نداء آه أنت عمري

أنا عرفت من أين جئت إلى هذا الملك

جئت لأعرّف من لا يعرف بهذا الملك"

هرب سليمان بعينيه المغرورقتين بالدموع بسرعة: "جميلة جداً يا أستاذي".

"يا حاكم العالم، بعد وفاة أستاذنا القدير شيخ إسلام الدولة العلية الثامن حضرة علي أفندي الزنبيلي عام 932، عينتمونا مدرساً في مدرسة الجمبازية الدينية. دين برقبتنا أن نفي بضرورة هذه المهمة المبجلة، ونحمل مسؤولياتها بتذكيركم أن أهم وظائف رئاسة الدولة تبني رعيتها، والمحافظة عليها وكأنها ملك خاص. فالدولة التي تظلم فيها الرعية، تهرب إلى الجيران، وتبدأ الفتنة بشكل غير مباشر. يمكن مشاهدة انحراف السلطات المحلية نحو الخروج عن القانون في المراحل كلها، ولكن مع توسع الدولة تصبح مراقبة هؤلاء أصعب مما كانت عليه في بقية المراحل. عظمة دولتنا وقدرتها التي ترجف العالم خارج الحدود، مع الأسف لا تكفيانها من أجل إطفاء الحرائق في الأناضول. وفي حال هدر تأثير قدرة الولاية المركزية لا سمح الله، فسيزداد الظلم فيها، وهذا ما يقلقنا. التنبيه علينا، والتقدير لله".

بدأ حاكم العالم الكلام عندما دخلت رائحة التراب الرطب والهواء المعتدل من بين الستائر الغربولية: "أخي، نعرف فساد قادة فرسان جباية العشر المتفقين مع الكتاب عند تحديد الأراضي، ونحاول أن نبلغ يد الدولة القضائية لتمتد نحو الأمكنة التي يتواجد فيها ظلم. وإضافة إلى هذا التلاعب، هناك عملية إظهار قيمة الموسم السنوي أقل من قيمتها الحقيقية. ونعرف أن هذه الحال تقلق الفلاحين كثيراً. وعندما يتضايقون كثيراً، فهم يهربون، ويتركون الأرض بوراً. وبعض الهاربين يلتحقون بمحاربي البحرية الشاردين، وتبدأ الفتنة من هذه النقطة.

فالأرض التي يتركها الفلاح تتحول إلى مرعى لحيوانات الخارجين على القانون يا كبيريّ العزيزين. وعندما يدعم المشردون العاطلون عن العمل هؤلاء، يتحول فرسان جباية العشر إلى قوة

قامعة. وهذا يضعفنا مع الأسف. ولكننا إذا لم نجذب تركمان الأناضول إلى الإسلام السني، فلا جدوى من كل المحاولات. إنهم يفضلون اتّباع شيوخ العلوية البكداشية قليلة العبء مثل الإنكشارية، أو المذهب الشيعي بشكل مباشر. ويصرون على حياة الرحّل، ويقاومون مصاعب نظام الحياة المستقرة. لهذا السبب يعتبرون الإدارة العثمانية المركزية مصدر ظلم. والصفويون لا يفوتون هذا بالتأكيد. وقد غدت الأناضول مركزاً لكل أنواع الفتن منذ حسن الطويل، وبعده إسماعيل الصفوي. وهم يحاولون السيطرة على طريق الحرير بورصة - حلب - تبريز.

ونحاول بكل ما نملك من قوة أن نمنع بعض المحتالين من القيام بعمل ما مع الإنكشاريين. ومع الأسف لا يسمع الإنكشاريون الكلمة حول تسببهم برفع أسعار القمح. كما أنّ لصوص بعض المدن المتعاونين معهم ينهبون مستودعات الدوقيات الأجنبية بالقوة والتهديد، ويأخذون القمح من الناس بأسعار متدنية، ويبيعونه في ما بعد للبندقيين بأسعار مرتفعة. وهكذا يبدأ الشح بالحبوب. نبهنا حاكم البندقية عدة مرات، ولكننا لم نقطع أي مسافة. وفي ما بعد، يأتي يوم يضطر فيه الفلاح لشراء محصوله لذلك العام الذي بدأ بالشح بضعف ما باعه. وفي هذه الحال لا يمكن الحيلولة دون رفع الأسعار كثيراً مما يؤدي إلى الجوع بالتأكيد. وإذا لم نمنع هذا تماماً، فإننا نحاول إنهاك هؤلاء الفاسدين من خلال العقوبات الكبيرة".

قال مركز أفندي: "وصل إلى أذننا أن فرسان جباية العشر تجاوزوا كل الحدود بما يفرضونه على الرعية. فقد أنهكوا الفلاحين بأعمال السخرة. وهذا يؤجج نار الفتنة، ويجعل الفلاح ينقل الشِقاق إلى البلدات".

كح سليمان خان منظفاً بلعومه وقال: "عندما نسمع عن موظفين كهؤلاء، ونثبت عليهم هذا، فسنفصلهم من وظيفتهم فوراً".

وأضاف بموقف حازم: "ولكننا كدولة نضطر لإغماض عيننا عن بعض المحاربين الذين قدموا للدولة خدمات كبيرة. وفي الوقت نفسه، نحن قلقون من انكسار حماستهم للحرب، وارتباطهم بالدولة، ومحاولتهم التمرد".

قال يحيى أفندي ضاغطاً على حاكم العالم: "ستُحاسبون على هذا يا أمير المؤمنين. فإمّا أن تسمو الدولة، أو تقع في الحضيض. عذاب الله شديد. خافوا من الله بحق رعيتكم الضعيفة، وارعوا شعبكم. مشاكل الدولة الكبيرة تكون كبيرة. والإدارة العادلة هي العلاج الوحيد، وأنتم أمل الشعب الوحيد بعد الله بقولكم: *تنجز العدالة ما لا ينجزه السيف*، وبإطلاق لقب *القانوني* عليكم. لا تتساهلوا مع أحد، وانتظروا حكم الله في هذا الجانب. لا يُخيّب الحق تعالى آمال من يتعلّقون به. المشكلة الأساسية ليست بعدم ارتباط التركمان بالإسلام السني وتحميلهم الأعباء، وعدم سكنهم ليس ناجماً على اعتيادهم الترحال. المشكلة برأينا أعمق؛ إذ ليس من الممكن أن يخرجوا عن مواقف عامة اعتادوا عليها على مدى آلاف السنين".

أشار سليمان خان بحركة رزينة من يده لكي يستمر أخوه بالكلام وقال: "نتمنى أن تشرح يا أخي".

"يا حاكم العالم، المدرسة مكان يأتيه طلاب مخلصون لدولتهم ودينهم من مختلف مناطق الأناضول وروملي. ولكن هناك فرقاً بين الرومليين والأناضوليين. لا أحد منا يسأل نفسه: *لماذا يرتبط أهالي روملي بالإسلام السني، ويعانون بشكل أقل*".

"ما رأيكم؟".

"برأينا، السبب الأساسي يتمثّل في صعوبة أرض الأناضول من الشمال إلى الجنوب. هذه هي المشكلة الأساسية. لا تكون الأرض معطاءة إلا إذا اشتغلت بشكل مناسب لظروفها، ولكن بنيتها لا تسمح بهذا، وتتطلب مصروفاً كبيراً. غير هذا، إن إقليم الأناضول قاس وغير متناغم؛ صقيع في الشتاء، ومطر غزير في الربيع، وسيول تضرب الفلاحين. لأن كارثة السيول هي الكارثة الأساسية في قدر الذين يعيشون على هذه الأرض؛ فالسيل يجرف دائماً طبقة الأرض الهشة والغنية. وإذا فكرنا بالأرض الكلسية في منطقتي إيجة والبحر المتوسط، فعلينا ألاّ نستغرب نظرة سكان هاتين المنطقتين إلى عملية إسكانهم بأنها ظلم.

خاصة أن قحط أرض إيجة القاسي لا يرحم أبداً. وعندما تكون مساعدة الدولة لأناس هذه المنطقة قاصرة وليست على أعلى مستوى، فكيف تأملون بتحقيق نتيجة؟ لا يمكن التفكير بكفاح الرحّل من أهالي السهول المنعشة ضد سيول منطقة البحر المتوسط، وبلية الملاريا ومقاومة البعوض. وإذا أضفنا فرسان جباية العشر، فلماذا سيتمسك الفلاح التركماني بهذه الأرض التي مُنِح إياها؟ بل سيتركها على ما هي عليه، ويقع في وضع مخرب الأرض، ويعتبر مذنباً من دون سبب، ويغدو عدواً لدولته...

ولكن فلاح روملي ليس هكذا. فأرضه تتلقى مطراً منتظماً، وتُحرث بسهولة، وهي خصبة، ولا تخجل فلاحها، وتشبعه بسهولة كحنان الأم. ولهذا، فهو لا يطلب إعانة لإراحة الأرض باستمرار. أما إذا فكرنا بأرض الفرنجة، فإنها تجعل الإقطاعيين ينافسون بقوتهم وسيطرتهم قوة الدولة وسيطرتها. ويتمسك الإقطاعيون هناك بالأرض لأنها مصدر غنى وليست مصدر فقر كما هي الحال عندنا. ولا يعتبر

الفلاحون والأهالي عمل السخرة الذي يكلفون به ظلماً لأنهم يشعرون بالشبع. أما لدينا فإذا لم تستثمر الدولة بمصادرها القوية في الأرض، فإن الفلاح العادي سيملأ بطنه بصعوبة، وسيبدأ الصراع بين الفلاح وقادة فرسان الجباية، وبين القادة والوالي، وبين الوالي والدولة. إنّ عدم قوة سادة الأرض لدينا، وبقاء الدولة مركزية ناجمان عن صعوبة الجغرافيا. ولكن وجود طبقة مخلصة تعمل في الأرض يريح الدولة في الأوقات الصعبة.

صحيح أن الأرض هي سبب الهوة بين طبقة النبلاء وبقية الطبقات في أوروبا، ولكن الدولة ترتاح بفضل مساعدة كبيرة يقدّمها الإقطاع والكنيسة، ويبقى موقفها دائماً قوياً أمام الخارج.

ولكن، إذا تصدعت الإدارة المركزية العثمانية اليوم - لا قدر الله - فمن الصعب أن تستجمع قوها وتشكل تكاتفاً داخلياً واسعاً. أعداؤنا ينتظرون هذا اليوم بتوق يا حاكم العالم. لهذا، إنّ الفعاليات الهدامة دائماً تعمل على تخريب العلاقة بين المركز والرعية".

تمتم القانوني بضيق: "ما الحل يا أخي الكبير؟".

أطرق يحيى أفندي برأسه متضايقاً. كان يتناهى إلى سمعه من الخارج صليل سيوف تدريب الشجعان.

"يصعب علينا الكلام وكأننا نقدم لكم النصح يا حاكم العالم".

"العفو يا أخي الكبير، استمروا".

ألقى يحيى أفندي نظرة إلى حضرة مركز أفندي، وتابع فور موافقة الولي المبارك بهزة من رأسه: "الحل بالنسبة لنا نحن الضعفاء يكمن بزيادة الدولة نشاطها بإصلاح المناطق الزراعية، وإعادة الحياة لطرق التجارة القريبة التي يمكن السيطرة عليها بقوة كما كان الحال في الماضي، وعدم التأخر بالتدخل في المناطق ذات المشاكل، والتي يتواجد فيها فرسان

الجباية ذوو المشاكل؛ آخذين بعين الاعتبار صعوبة الوصول، والقضاء التام على الفتنة الصفوية. غير هذا، فإن زيادة عدد الإنكشاريين يزيد من جرأة هذه الطبقة التي تعيش على المساعدة وخزينة الدولة، وفوضويتها. يمكن ألا يوجد دائماً على رأس الدولة سلطان سلاطين ملهم مثلكم يا سلطاننا. في تلك الحالة، ماذا سيحل بالدولة العلية؟".

قال سليمان خان: "اعتبرا طلباتكما ومقترحاتكما أوامر. أنتما محقّان يا أستاذيّ القديرين". ثم تابع: "ولكن، مع الأسف، إن الرجال الثقة يتناقصون مع الزمن. ومن المفروض أن نكون حذرين لكي لا نخيف فرسان الجباية المخلصين المتبقين لدينا. إذ يسيطر الإنكشاريون على المركز، وفرسان الجباية على الريف تماماً. وعلى الرغم من قوة الدولة ومكانتها العلية ونفوذها الكبير فهي مضطرة لأن تكون مسيطرة على الصراع بين هاتين الطبقتين، ومصلحة بينهما. وفي هذا الموضوع، لا تحظى برضا أي منهما. ولكن المشكلة الأساسية بالنسبة إلينا تتمثل في قِدم هاتين القوتين. فكلّ طبقة ترى أنه لا يمكن التخلي عنها، فتنتصب، وتكون مستعدة للانتفاض. وعندما تكبر الفظاظة على هذا النحو تصبح هدامة".

ولأن مركز أفندي لاحظ أن حاكم العالم يزداد ضيقاً، قال بصوت مواسٍ: "سهّل الله طريقكم يا أمير المؤمنين. افخروا لأن الدولة الأبدية تعيش أقوى مراحلها وأكثرها مكانة في عهدكم. من المؤكد أن لكل دولة مشاكلها الداخلية. وسيأتي يوم يتم فيه تجاوز هذه الهموم بطريقة مناسبة. فكروا ببلد شارلكان الذي يكتوي بنار الصراع المذهبي رغم قوته الاقتصادية. ومع ازدياد نفوذ البروتستانت الذين لا يهتمون بهم الآن كفاية، سيخسرون قيادة العالم الكاثوليكي مع فرنسا، ولكنهم ليسوا منتبهين إلى هذا الأمر الآن". ثم أتبع يحيى أفندي كلام

مركز أفندي بدعاء صادق: "أنار الله قُدِّس سره ليلكم ونهاركم بالخير والخدمة والبركة".

رد سليمان خان بالشكر، وقال بصوت ضاحك مشبع بالألم: "بما أن الحديث قد تطرّق إلى الفرنسيين، فأنا دائماً أشعر بخيبة أمل منهم". وأضاف بهدوء: "فعلى الرغم من دفاعنا عنهم دائماً، وشعورهم بالامتنان نحونا، إلا أنهم لم يتصرفوا معنا بصدق قط". ثم دُهِش من نفسه لأنه فتح هذا الموضوع، ولكنه ارتاح حين أدرك أنه ليس هناك شيء طبيعي أكثر من أن يفضفض عن نفسه أمام رَجُلَي الله هذين اللذين يعتبرهما بمقام "الأب"، ويريان ما في داخله كله وكأنه خلف زجاج شفاف.

"في الثامن من ذي الحجة وقّع الملك فرانسوا مع شارلكان إمبراطور روما والجرمان في كامبريا معاهدة عدم اعتداء. مرة هكذا، ومرة هكذا... لا يمكن تصديق هذا... كما أن فرانشيسكو (فرانسوا الأول) الذي لا يخرج من ظلنا لخوفه من شارلكان، لا يريد أن يقطع علاقاته معه تماماً. لا أستغرب هذا، ولكنني أريد منكما أن تفهما المصاعب التي نعاني منها".

قال يحيى أفندي متنهداً: "إنكم تديرون العالم يا سيدنا. ونحن نفهم أنكم يجب أن تراعوا التوازنات، وندعو لكم. لا تهتموا كثيراً لقضية فرانسوا هذا. سيكون فرانسوا دائماً ميالاً لأصله، ولديه علاقات جوار مع إسبانيا. لهذا السبب، ليس هنالك ما يفاجئ كما تفضلتم. ولكن، يبدو أنه نسي بسرعة أيام البؤس التي قضاها في الزنزانة إثر حرب بافيا عام 1525. لا بد من تذكيره أن سراحه قد أطلق باسمكم الذي يرجف ركبتي الملك كارلو. وهو حليف نستطيع أن نمسكه بيدنا دائماً، ولكن سيكون هذا صعباً طالما أنه يحلم بقيادة العالم الكاثوليكي.

القلق نفسه يشعر به شارلكان، ولهذا السبب يتصرف بكرم على عكس عادة الفرنسيين. بالإضافة إلى هذا، إنّ دودة الشك تنهش قلب شارلكان منذ العام 1527 عندما نهب روما، وفرض على البابا تصديق حكمه على إيطاليا كلها بمعاهدة برشلونة إثر كارثة موهاتش. انظروا يا حاكم العالم، كان سيدنا عمر يبكي عندما يفكر في أنه سيحاسب على خروف أكله ذئب على ضفة الفرات. كان في حال جعلت الآثار التي حفرتها الدموع المتصببة من نبعي عينيه على خديه لا تمحى... هذا هو من يجب أن تتخذوه مثلاً، وليس نحن".

قال يحيى أفندي بصوت مفعم بالكبرياء: "أنتم مسؤولون عن سبعة أقاليم يا حاكم العالم الغازي. في تلك الأيام القديمة التي لم نعد نستطيع تذكرها، أيام طفولتنا قبل أن تكونوا سيد سنجق قرة حصار الشرقية، كنا نفكر بأننا سنفترق بعد وقت قريب، ولعلنا لن نلتقي نهائياً، ونحزن".

دبت الحيوية بوجه سليمان خان حين ابتسم قائلاً: "أنا لم أكن أحزن مثلك يا أخي الكبير. كنت أعرف أنه ستكون لديّ قوة تمكنني من المحافظة عليك بجانبي، ولهذا أنا أنظر إلى المستقبل بأمل".

"لقد كنت أفكر أحياناً بأن سليم خان لن يقبل ببقائك معنا كثيراً نحن أهل المدارس. وأتخيل أن فراقاً نهائياً سيكون قريباً، وأرتعد. نحمد الله لأنه لم يحدث ما كنا نخاف منه. إذ لم يرض ربنا بفراقنا. لهذا السبب أنا أقول: في أصعب أوقاتكم، فكرتم بأن نكون بجانبكم دائماً؛ حضرة مركز أفندي وأنا. لأنكم مؤمنون بالحديث الشريف الذي يقول: *يحشر المرء مع من يحب*، لذا أردتم أن يكون دعاء محسوبيكم لكم، لتريحوا قلبكم".

سالت دمعتان بهدوء على خدي سلطان العالم نحو لحيته: "كنت أتمنى أن أكون طالب علم بسيطاً... كانت رغبتي أن أعود إلى قلبي، وأقضي وقتي في هذه الدنيا الفانية بخدمتكما. ولكن قيد الحكم الثقيل الذي لا يُفك ضرب على رقبتنا. ماذا يجب أن نفعل؟ ماذا يجب أن نفعل لكي ننهض من تحت هذا الحمل؟".

الفصل الثالث

شمس الليل

I

"أهم درس علمنا إياه التاريخ

أن الناس أخذوا دروساً قليلة من التاريخ."

ألدو هوكسلي

25 أيلول 1529 – جنوب شرق فينا بعشرين كيلومتراً

صرخ سليمان خان بصوت مجلجل: "أما قلت إن العدو يتخبط بالدم؟".

قال البرغالي محاولاً إسماع صوته الذي يخنقه المطر والعاصفة: "توقعت يا سيدنا ألا يواجهنا فرديناند... لا جدوى من أي شي نفعله الآن، لقد علقنا في هذا المستنقع".

شد القانوني لجام حصانه الأصيل، ورد بغضب كالصواعق التي تقدح فوق رأسه: "ألم نستلم بودين فور سيطرتنا على الأبراج الشرقية وباب إمره، ثم خضنا هجوماً واسعاً خلال خمسة أيام؟ ألم يستسلم المدافعون عن القلعة مقابل عدم التعرض لحيواهم يا إبراهيم؟ ألم يأتِ بيترو الرابع زعيم بوغدان ليدخل بتابعيتنا ومعه مركز القيادة العسكري راريش بعد أن قطع أمله من فرديناند وشارلكان؟ حسنٌ، ما هذه الحال إذاً؟ لم يتكلم زابوليا هكذا عندما أعدنا له العرش وقبّل يدنا. أقسم فرديناند إنه سيواجهنا أمام فينّا بكتائبه المدعومة من الإسبان. إذا كان الجو قد أخافهم فلماذا لا نرى رايات مركز قيادة الجيش؟ هل وقعنا في مكيدة؟ احك، ما الأمر يا إبراهيم؟".

سُمع قول البرغالي: "انتهى أمر بودين كما توقعنا". أصدرت الريح صفيراً حول خوذته التي تعكس ضوء الشمس الباهت، وارتجف جسمه المبلل بالمطر البارد. لم تكن لديه إمكانية لمقاومة الظروف الطبيعية الصعبة: "ولاء زابوليا لنا مؤكد يا سلطاني؛ لأنه ليس لديه حامٍ غيرنا. إذ لن يتركه نبلاء المجر حياً. وبالتأكيد هو ليس مثل فرانسوا، فهو لا يتجاوب مع ألعاب شارلكان الخبيثة. إنه لا يكذب، ولكن من السهل أن يُخدع؛ لأنه ليس من الصعب إخافة رجاله المسعورين هكذا".

"حسنٌ، أين فرندوش؟ لماذا لا يخرج أمامنا يا إبراهيم؟ هل يريدني أن أطرق أبواب فينّا، وأن أهدم آخر قلاع أوروبا الكبرى فوق رأسه؟".

"جاء الفصل السيئ يا سلطاني. فرندوش يعرف أننا لن نستطيع البقاء هنا طويلاً، فقريباً سيبدأ الإنكشاريون بالتململ. قبضنا منذ الآن على أربعة جواسيس ألمان، اثنان منهم من جنودنا تم شراؤهما بالمال. ثم هل تعتقدون أنكم ستمحون آثار الماضي القريب للألمان النمساويين القاطنين شرق نهر الرين كما محوتم آثار موهاتش من العالم كله؟ بدأنا حربَ إلغاء، وحصدنا عشرات الآلاف من جنود لايوش الذين يدعمهم شارلكان كحصّادين دخلوا حقل قمح. سيبقى خوفهم هذا طوال الحياة. لا بد أن فرندوش وضع في حسبانه أنه لن يستطيع إطعام مئة ألف شخص وحيوان في مدينة بودين التي نهبها جنوده وجففوا مصادر ثروتها. فالطرق طينية، وتأمين المؤن واللوازم لكل هؤلاء الناس غير ممكن من بلغراد أو صوفيا. غير هذا، لا بد أن فرندوش حسب أننا لن نستطيع جلب مدافع الحصار والمنجنيقات من بودين قبل أن تجف الطرق وتقسو التربة. الوضع بكل الأحوال لصالحه يا حاكم العالم".

"هذا يعني أننا وقعنا في اللعبة بإرادتنا؟ ولكنك نبهتنا يا إبــراهيم. يمكن لمجموعة طلائع صغيرة أن تسترد بودين. كان هدفنا أن نجــذب فرندوش إلى الميدان لنهاجمه، ونرسل رسالة قوية لأخيه الكبير شارلكان لكي يجلس عاقلاً، ولكننا أضعنا وقتاً طويلاً. لقد أخطأنا بعدم السماع منك يا إبراهيم".

"لا تحزنوا يا سلطاننا. مجرد وجودكم غدا كابوساً لأعــدائكم. فلقد أثبت الجيش العثماني أنه لا يُهزم. ولكننا سنقدم جنودنا ضــحايا للشتاء القاسي هنا إذا لم نعد في أقرب وقت ممكن".

أمر سليمان خان بفطنته الدائمة: "ليقدم لهــم المــأوى فــوراً. وليجفف الجنود ثيابهم ويتدفأوا، وتملأ بطونهم. ولكن، عليكم أن تبقوا متيقظين إزاء أي هجوم. سأعاقب بنفسي من ينام في أثناء المناوبة، ولن أميز بين ضابط ونفر! لن أصدر أي قرار قبل أن يصلني خبر من فينّــا. وليجتمع الديوان فوراً لنعقد مجلس الشورى".

في تلك الأثناء، ظهر من خلف ستارة المطر المظلمة رجل بصحبة مجموعة من الفرسان. كان من الواضح من الحزام الجلدي السميك ذي المسامير الذي يضعه حول رقبته أنه من جنود السلطان، ولكن بــرودة أعصابه وبشاعته تلاحظ عليه فوراً. لم يكن واضحاً من أي أمّة هــم؛ وبالنظر إلى أجسادهم العارية المبللة والملفوفة بفراء الحيوانات، بدا أنهم سرية شاردة. ظهرت بوضوح آثار الجروح الكبيرة والصــغيرة علــى أجسادهم المغطاة بالعضلات المكتنــزة. وبهدف إخافة الأعداء وضعوا على رؤوسهم خوذات غريبة عليها رؤوس حيوانات وحشــية. كــان تعبير وهيمي أورخون جلبــي فقط بينهم مبهماً. كان وجهه مكشوفاً، وليس هناك من لا يعرفه أساساً. وكان بجانبه مباشرة كمال الغرنــاطي وعلى رأسه رأس دب يقشعر الأبدان. وبينما كــان عناصــر الهــلال

ينطلقون بأقصى سرعة، أراد بعض أفراد الحرس الخاص استقبالهم، ولكنهم تسمروا في الطين البارد.

قفز وهيمي عن حصانه حين صار قرب القانوني، وقبّل أطراف ثوبه من دون أن يرف له جفن تحت المطر البارد الذي يلسع جسده العاري وقال: "سلطاني، نصب كريستوف فون زدليتس قائد جيوش فرديناند، وبالي شقيق مالكوتش أوغلو كميناً لطلائع وحدات الغازي محمد سلطان زادة سيد سنجق سمندرة في قصبة بروك جنوب شرق فينا بثمانية كيلومترات. وبعد صراع دموي عنيف استسلم فون زدليتس وستة جنرالات معه. قضي على جيشهم... ولم يؤخذ أسرى...".

في أثناء انتشار الخبر كموجات بين الجيش، امتزجت أصوات التهليل والتكبير بصيحات الفرح.

"... يُفرغ الألمان فينّا على شكل قوافل، كل منها تتضمن خمسة آلاف شخص، ترافقها وحدة فرسان بالدروع الثقيلة تتألف من ثلاثمئة فارس يا سلطاني. انسحب فرندوش إلى لينز التي تبعد غرباً خمسة وتسعين ميلاً وكأنه يطير طيراناً. وعندما رأت بعض القوافل الطلائع خلفها، بدأت تتوسل للحصول على الأمان. يسيطر على فينّا هلع كبير...".

"من سيدافع عن المدينة يا رفاق الهلال؟ هل يعتمد الفينيّون على قدّيسيهم؟".

"يدافع عن المدينة الكونت العجوز نيكولاس فون سالْم ونديمه الفيلد مارشال ويلهلم فون روغندورف يا سلطاني".

كرّر سليمان خان: "الكونت نيكولاس فون سالْم"، والتفت إلى البرغالي، وسأله: "تجاوز الفارس السبعين منذ زمن طويل، هل أنا مخطئ يا إبراهيم؟".

قال البرغالي: "لستم مخطئين". وألقى نظرة على وهيمي ورفاقه شبه العراة، وارتعش حتى نقي عظامه. لم يقرر بعد ما إذا كانت الرعشة بسبب البرد أم القلق من وهيمي ورجاله. "الكونت مسن، ولكنه محارب قوي وسياسي خبير يا سلطاني. عبدكم وهيمي يعرف هذا جيداً. لا بد أنه قابل الكونت مرات عديدة في فينا عندما كان يذهب بمعية كمال باشا سرزلي".

استمر وهيمي بالحديث مع سلطان السلاطين من دون أن يبدي أي دليل على الموافقة: "يا حاكم العالم، هناك عشرون ألف مقاتل موالون للكونت إلى النهاية، وكل منهم مثل فدائي، جفنه لا يرف. تدريبهم جيد، وهم مقاتلون أشداء. وقد شاهدت بنفسي في زياراتي الرسمية وغير الرسمية مدى كثافة التدريب الذي يخضع له أولئك الجنود. هناك ألفان من المشاة رماة البنادق، وألفا فارس، ومئتا مدفع؛ سبعون منها قصيرة المدى جاهزة للاستخدام على الأسوار. ولقد شاهدنا هدم الكونت البيوت الطرفية الشبيهة بالمتاهة، وتأسيسه خطين دفاعيين. الخط الأول خندق مزروع بخوازيق مدهونة بالزيت ومملوء بالماء، وحفر أمامه متراساً لرماة البنادق والنبال. والخط الثاني، متراس آخر إلى الداخل على بعد عشرين قدماً نصبت خلفه مدافع قصيرة المدى، وهذا تصرف ذكي جداً. فبالخوازيق المنصوبة على ضفة طونا يمنعون عملية إنزال محتملة. أصلاً، يستحيل شن هجوم من الضفة في هذه الظروف، لأن الجدران المائلة مغطاة بطين لزج بسماكة ثلاثة أشبار".

تمتم حاكم العالم وكأنه يكلّم نفسه: "هذا يعني أن اقترابنا من فينا لم يكن مفاجأة لهم".

قال وهيمي: "هناك المزيد يا حاكم العالم. لقد أفرغوا البيوت الخشبية في الأحياء المجاورة للسور لأنهم يعرفون مواهب معدّي

المتفجرات لدينا. وهذه ليست مشكلة مهمة بالنسبة إليهم لعدم وجود مدنيين هناك. وقد اقتلعوا أرصفة الأزقة، وشكلوا أسلحة وذخائر بسيطة ولكنها مؤثرة من خلال شد المطاط بين الأزقة كالمقاليع لتخفيف تأثير قذائف المدفعية. غير هذا، لديهم مؤن تكفي شهرين. وقد قبضنا على مراسلي فرندوش الخاصين. وجاء في الرسالة التي يحملونها أن الجيش العثماني يتكئ إلى ضفة نهر الرين الشرقية، وينوي دخول ألمانيا. يريد فريندوش من خلال هذا أن يستفز أخاه الملك كارلو".

ما زال سليمان خان آملاً على الرغم من كل ما سمعه: "بما أنهم يمتنعون عن مواجهتنا برجولة، فعلينا أن نستفيد من هلعهم في الداخل مهما كانت استعداداتهم أو نواياهم. وإذا رأونا أمام القلعة في هذا الفصل، فهذا يعني أننا أخذنا التفوق المعنوي".

نخس البرغالي حصانه، ودخل بين حاكم العالم ووهيمي: "نحن أيضاً سمعنا ما قاله الجاسوس وهيمي...".

يعرف وهيمي أن البرغالي يريد إهانته واحتقاره باستخدام كلمة "جاسوس". "... طالما أن الكونت حي، فإن فينّا ستصمد بوجود فريندوش في القلعة أو عدمه. وسقوط جنودنا في اليأس مسألة وقت. من الأفضل أن ننسحب وننتظر الفصل الجيد أفضل من أن نعيش انهياراً معنوياً".

هرع وهيمي لنجدة إبراهيم بتفسير أدهشه: "أوامركم على رأسي يا حاكم العالم، ولكن كما تعلمون، إن أمطار هذا الفصل لا تتوقف بسهولة. وإذا توقفت، فإن طمي طونا المرتفع يسبب فيضاناً، ومتاريس طبيعية. ولقد سُدَّت شبكة الصرف الصحي التي تحت فينا كلها، ويُخرج الماء القذر من المدينة باستخدام طواحين البغال، ومزاريب

المطر. حتى إن نقاط التفريغ السرية مملوءة بالماء. و لم يضعوا عليها حراساً لإدراكهم أن العدو لا يمكن أن يدخل من المكان الذي لا يستطيعون الخروج منه. ومن غير الممكن أن يحفر فنيونا نفقاً في هذه الظروف".

بينما كان حصان سليمان خان الأبيض الكحيل يقفز على قائمتيه الخلفيتين، قال مزمجراً: "لا تعتقدا أنني أستخف بكلامكما، ولكن الحكم للواحد القهار. وبما أننا أتينا إلى هنا، فإن انسحابنا من دون أن نريهم ما نحن قادرون عليه فيه ذلّ لجنودنا بعودتهم من دون غنائم. إذا عدنا فسيتململون أكثر، ويقولون: *جلبنا سلطان السلاطين إلى هنا، ثم التفت عائداً خاوي اليدين، وقد يئس من فرندوش وأخيه كارلو*".

أراد البرغالي ووهيمي أن يتكلما في اللحظة نفسها، ولكن حركة يد سليمان خان المدرعة أسكتتهما. "تناقش هذه الأمور في مجلس الحرب، ولكن قراري الآن حازم. هدفنا فيّنا والإمبراطورية الألمانية كلها. وحتى لو لم نأخذها فإننا سنقوي وحدات الطلائع لتستولي على كل أراضي الألمان والنمساويين. وهكذا سنشعرهم بأن يدنا فوقهم في كل لحظة، وسنري العدو والصديق أن أشد قلاعهم تحصيناً ليست بمنأى عن الخطر. فإمّا أن يخرج فرندوش لمقابلتنا بشهامة، أو يشاهد من بعيد قائده المسن وهو يقاوم في المدينة. وبدعاء المرحوم والدنا البطل سأختم حديثي: *اللهم انصر جند الإسلام على أعدائهم ما دامت الحياة على الأرض، واقهر الملاعين بجلالتك، وبحرمة سيد الأنبياء والمرسلين! آمين*".

قال الجميع معاً: "آمين!".

15 تشرين الأول 1529

نظر سليمان خان إلى الأحجار الكريمة التي تضج بالألوان تحت ضوء المشاعل المتراقص. كانت كل واحدة تتلألأ كنجم الربيع فوق الغطاء الكحلي الممدود على سطح طاولة خشبية. كانت أحجاراً كريمة رصينة إلى درجة أنها تدفع الناظر إلى الاستغراق في أحلام رائعة عبر تدرج ألوانها من زهري سيريلانكا إلى أزرق بديهشان وأخضر الياقوت المصفر.

كان السلطان سليمان القانوني يدقق بمجموعة من الكوارتز الزهري والعقيق الأحمر اختارها من أجل صياغتها عبر أداة تكبير كبيرة ذات قوائم رصاصية ثقيلة وهو يحمل بيده قطّاعة يلمع رأسها بغبار الجوهرات، ومطرقة صغيرة تناسبها. كان يرتدي قميصاً أبيض من القطن يشبه الكفن وفوقه درعاً من السلاسل، وسيفه مسلول من غمده، وكان متكئاً على كرسيه ذي المساند المرتفعة المرصع بمجوهرات تبهر العيون. على الطرف الثاني من الطاولة كان قد وضع خوذته البرونزية ذات الريشة والياقوتة الضخمة، والتي لا تزال تحمل آثار حرب موهاتش. كان رأسه مكشوفاً هذه الليلة على غير عادته. وحركت نسمة باردة شعره المغطى ببريق باهت.

للحظة، رف بعينيه الدمويتين. وكان صدغاه المنتفخة أوردهما يؤلمانه كما لو أن سكيناً حادة تنغرز فيهما نحو الخلف. حاول أن يركز بكل انتباهه على العمل الذي أمامه من دون جدوى. رغم هذا، لم يكن يريد ترك الأحجار والأدوات من يده مثل كل صائغ متعلق بمهنته. وبينما كان قفّازاه المصنوعان من جلد الغزال الناعم يحفّان كفيه، عاد مجدداً إلى القطاعة والكوارتز الممسوك بكماشة صغيرة محاولاً أن يعطي قطعة الحجر الكريم شكلاً بضربات ناعمة.

هذا النشاط النخبوي المتطلب انتباهاً كبيراً يريح ماريشال جيش كبير علق أمام تحصينات قلعة فظيعة لا يمكن تجاوزها. كان صائغاً مهماً. لا تقدر خواتمه وعقوده المنوعة التي صاغها بحساسية فائقة بثمن. ليس لأنه هو من صاغها، بل لأنها حقيقة غير عادية.

كاد أن ينسى البرغالي الذي يجلس بجواره منذ زمن طويل. وعندما تجرأ الباشا على الكلام في ما بعد، قال بنبرة خجولة: "منذ ثمانية عشر يوماً ونحن ندك الجدران بالمدفعية قصيرة المدى فقط. شننا هجومين كبيرين تحت ستار من النار على الأبراج. عاد نصف الجنود عندما غطوا بالطين إلى ركبهم في المرة الأولى. ولكن، في المرة الثانية لم يستطع بعض جنودنا العودة بسبب السيل المفاجئ الذي أحدثه المطر.

قال القانوني بموقف هادئ ولكنه يشبه هدوء ما قبل العاصفة من دون أن يرفع عينيه عن الأحجار: "مع الأسف، إن باب كارنتر الذي أضعفته رماية مدفعيتنا الماهرة على الأبراج الغربية غدا عقدة هذا الحصار يا إبراهيم. تلك الفتحة التي أحدثها رجال مدفعيتنا بتضحياتهم وبراميل البارود التي ألقوها على مسافة مئة شبر من الباب...". صمت لحظة، وابتلع ريقه بصعوبة على الرغم من هدوئه: "تلك الفتحة... ليست مناسبة لهجوم مباشر يا إبراهيم...".

قال البرغالي على عجل: "هذا كان خطئي يا سيدنا. لم أسمع منكم. كان يجب ترك هذا الأمر لعناصر الهلال...".

تابع حاكم العالم وهو يضع المطرقة والقطاعة في محفظة خشب الجوز بعناية: "لم ترد ترك هذا الأمر لعناصر الهلال، لأن صراعك مع كل من حولك يشوش عقلك يا إبراهيم. كان شغل الألمان ببعض الهجمات إثر انفجارات قذائف المدفعية، وتسلل عناصر الهلال إلى داخل الأسوار بهدوء ممكنين كما يفعلون دائماً. لقد فوّتنا فتحاً كبيراً

على قيد شعرة على الرغم من هذه الشروط الصعبة يا إبـــراهيم. لـــو نجحنا...". خفض سليمان خان صوته بغضب مستهتر يناسب خطوط وجهه الجميلة: "تصور الكوابيس التي كنا سنريها لأوروبا لو نجحنا. لو تجاوزنا كل تلك الدفاعات المتكاملة مع هذه النواقص بمدفعية الحصار، والأبراج، والمنجنيقات، فما الذي كان هؤلاء الجنود لن يفعلونـــه يـــا إبراهيم؟ أما كان شارلكان سيقتل من الخوف في قصر مدريـــد لـــدى سماعه اسمنا؟ ومنذ هجوم خضر بربروس باشا على سرشل، أصـــبحت البحرية الإسبانية والبرتغالية لا تجرؤ على إنـــزال مراكب الصـــيد إلى الشواطئ. لا بد أن كارلو سيجد الحل بالتخفي في إحـــدى مغـــارات جبال سيرا نيفادا بعد هذه الكوارث".

احمرت وجنتا إبراهيم السمراوان، وتخبط إلى أقصى الحدود، على الرغم من أن عينيه الزرقاوين ما زالتا شاردتين. وقال بصعوبة وبصوت كالشخير المتقطع: "ليس هناك نصيب يا سلطاني".

ضحك حاكم العالم بألم وتعبير شبه ساخر: "لا ينطلـــي علـــيّ مكرك بالتدين يا إبراهيم. اعرفْ جيداً أنني لا أريد صراعاً داخليـــاً في الدولة. أنت أيضاً تعلم أن خدمات وهيمي ورجاله كانت كـــبيرة في فتح بلغراد ورودوس. هل نسيت جلبه رأس جيلوا كِبْس قائد موقـــع بلغراد في كيس شعر مليء بالعسل؟ والفوضى التي حدثت داخل القلعة في رودوس بقتله قائد الصليب الحديدي سافينو؟".

"لم أنس يا حاكم العالم، ولكن قلبـــي لا يقبل أن يثق بوهيمي وعصابته. أنا ألجأ لعفوكم". بدأ صمت قصير ولكنه ثقيل. ووســـط هدير أصوات هموم آلاف السنين في المحور الصدئ للحياة العجـــوز، سمع إبراهيم نفسه وكأنه يتشقلب بفكره في بئر مظلمـــة. أدرك الآن بوضوح أن ليس له غير سليمان خان كغصن يتمسك بـــه في آخـــر

عمره على الرغم من قوته ومكانته كلها، ولم يستطع منع نفسه من الارتجاف".

فجأة، سمع سليمان خان يتمتم بصوت متقطع ومتفهّم، ويفتح ذاكرته مع استمراره بالكلام، وينطلق مع تفتح ذاكرته: "كلنا - من السابعة إلى السبعين - خطّاؤون يا إبراهيم، ولكن الدروس التي نأخذها ستكون مشاعل بأيدينا وسط ظلام المستقبل، وستنير طريقنا...". ثم دهش سليمان خان حين أدرك أن هذه الكلمات الحنون تركت في فمه طعماً مزاً. فابتسم كطفل سعيد وسط كل ذلك الكذب الكبير والقديم الذي يبدو معقولاً. كان ثمة شيء ينزلق في معدته محدثاً غلياناً؛ شيء عجيب يتعلق بالصداقة... إنه شيء مرٌّ يتعلق بشعوره أن كل لحظة من هذه الصداقة لا تختلف عن الذوبان ذرة تلو الأخرى في مستنقع الهزيمة... وكأن أحدهما بدأ يوقظ الآخر من حلم طويل.

أعاد البرغالي الموضوع إلى صعوبة الحصار: "بدأ الثلج يهطل في الأعالي يا حاكم العالم، والجليد يضرب الضفتين منذ عدة ليال".

نظر حاكم العالم إليه شارداً.

"يدخنّ الجنود أبواب الخيام بدهن العجل لكي لا تتمزق صباحاً. لأنه لا يمكن فتح القماش بطريقة أخرى. ولم تعد رائحة الجثث المتروكة في الساحة تحتمل. المكسب الوحيد بعد كل هذه الأيام هو علمنا أن الكونت فون سالمْ قد توفي في أثناء القصف. وحسب الأخبار التي جلبها عناصر الهلال، فإن فرديناند جمع جيشاً كبيراً في لينز. إذا صح الأمر فسيكونون هنا خلال أسبوع بعد المشي الاضطراري على الرغم من الجو القاسي".

"برأيك، هل يئس الطرفان يا إبراهيم؟". خطوط عميقة قسمت الجبهة العريضة أظهرت حاكم العالم أكبر مما هو عليه بعشر سنين.

"هل تكفي كلمة يأس يا حاكم العالم؟". همس إبراهيم في سرّه بقلق وهو يبحث عن اسم يخاطبه فيه: *من هذا الرجل؟ لم يعد هذا الرجل سليمانَ الذي عرفته قبل عشر سنوات... عيناه الجميلتان الخضراوان الشهلاوان تنظران إليّ، ولكنهما تبدوان وكأنهما تريان شخصاً مختلفاً عني. إلى متى سأرفض فكرة أنه ينظر إليّ بريبة منذ حادثة السم؟ إن عدم متابعته القضية مع الأسف لا تعني أنه أغلقها بشكل أكيد. أستطيع رؤية هذا. أنا واثق... أنا واثق من أنه لا يمكن الاستهانة بجهود حُرّم وكلبه المخلص المدعو وهيمي في هذا الأمر. تأخذ حُرّم مكان الجميع وكل شيء وحتى مكان الدولة بهدوء... وهيمي اللعين... ألا ترى؟ طالما أن حُرّم موجودة فإن الأرض التي نقف عليها تغدو أكثر انزلاقاً. ولماذا لا يأخذ الجلاد الطافح بالدم والوحشية رأسك؟ لو لم تنبه حُرّم لموضوع السم الذي أخذتُه من مقاتلي الطليعة التتار... لو لم تنبهها... ولو لم تقع في خطأ التوقيت يا وهيمي... كانت حُرّم، وأبناؤها، وأنا نعيش بفضل خطئك بالحساب، كانت الخطة أن أستخدم السم بعد فترة قصيرة. لأن التتار يمكن أن يشكوا فيّ، وعليّ أن أنتظر صابرا وقتاً أنسب.*

عبرت ابتسامةٌ خفيفة كرعشة شفتيه. خاف من تعبير نظرة سليمان خان الضبابي في تلك اللحظة، ولكن هذا لم يقطع سلسلة تفكيره الذي يقدح جانبه المخيف شرراً. *سيأتيك الدور يا وهيمي بطريقة ما... خذ حذرك، وانتظر... انتظر يا وهيمي... كيف ما كان ستنتهي شراكتك مع حُرّم... ما الذي يجعلك تثق بأنك ستجد لديها ثقة لا تجدها لديّ؟*

استمر البرغالي متجاهلاً نظرة سلطان سلاطين العالم الشكاكة: "جنودنا يموتون من التعب. بعضهم مرضى إلى درجة أن إخوانهم

الجنود يقومون بأعمالهم. وعدم كفاية الأطباء جعل خيام المرضى تطفح".

قال سليمان خان بحزم مصحوب بالاستهتار: "في هذه الحال، ستضرب الأسوار الليلة حتى الصباح، وستشعل الشموع، ويطيّر خبر إلى داخل القلعة بأن هجوماً واسعاً سيشنّ في وقت السحر؛ ليخافوا قليلاً أيضاً ونرى. ولتبدأ تحضيرات السفر فوراً. سنكون منطلقين في طريق العودة غداً ظهراً. ما رأيك يا صديقي؟".

"أقول إن هناك مشكلة لم نحسب حسابها يا حاكم العالم".

نظر سليمان خان نظرة تفكير إلى قائد جيوشه: "لم يعد يخرج من فمك سوى كلام الشؤم يا إبراهيم".

تابع البرغالي مطرقاً برأسه: "يا حاكم العالم، إذا بدأ الجيش بالعودة، فسيرسل الألمان خبراً لفرديناند يقولون فيه: *هزمنا العثمانيين*، وسيصفون حالنا بأنها هزيمة".

هز سليمان خان كتفيه بشكل خفيف: "ليفعلوا. آمر شجعاننا أبناء مالكوتش مع طلائعهم بأن يدخلوا النمسا قبل شروق الشمس. لنرَ ما إذا كانت قصة الجيش في لينز صحيحة. إذا كانت صحيحة فليتجنب الطلائع الشجعان تجميع قوتهم في نقطة واحدة. وليداهموا فجأة بعنف، وليشتتوا جيش العدو باسم خمسة عشر ألف من شهدائنا، وليبطئوه. وفي هذه الفترة، يجب ألاّ تعود مجموعات الطلائع الأخرى مهما كلف الأمر. وعلى الجنود أن يأخذوا الغنائم من المدن التي تظهر أمامهم. في هذه الحال، لن يجرؤ فرندوش على ملاحقتنا مع أعبائه. وليبلغ سادة الطلائع بأنني سأعاقب بيدي من يرتكب ظلماً، ليعلموا هذا. وسيستمرون بهجماتهم حتى ننقل أحمالنا إلى داخل حدودنا. لا أحدد لهم نقطة تهديد نهائية. إنهم أحرار...". ثم رفع حاجبيه، وقال

بتعبير المفكر: "أريد خادم أندريا غريتّي، وصديقك المقرب ألويسيو غريتّي في بودين فوراً. سيكون في بودين بصفة كبير مستشارينا، وسيسهل شغلنا لأنه صديق عائلة زابوليا. وعلاقة والده مع الهابسبورغيين جيدة. أسس والد ألويسيو أندريا غريتّي العائلة الأكثر احتراماً في غلاطة، وقدم لنا ولوالدنا خدمات جليلة. علاقة البندقية الجيدة مع العثمانيين اليوم جاءت بفضل سياسته البناءة. وأبلغ وهيمي بأن يبقى على ارتباط دائم مع غريتّي".

بعد مغادرة البرغالي، أخرج سليمان خان رسالة السلطانة حُرّم التي وصلت إلى موقع القيادة العسكرية ظهر ذلك اليوم من صندوق جوز مطعم بالصدف ومرصع بالعقيق والياقوت لكي يقرأها مجدداً. وبرفقة كلمات حُرّم البراقة كصباح الربيع، ابتسم لنفسه، وغاص في ذكريات ناعمة وهو يتمتم:

"سيدي ركيزة العالم حضرة السلطان سليمان خان ابن السلطان ابن السلطان ابن السلطان الذي يلجأ العالم إلى ظله الذي لا يُقدر بثمن. ليكن جسدي البائس وكلماتي هذه دواء لجروحكم وتراباً صلباً تحت قدميكم في بلاد الكفار التي يجوبها حكمكم وراياتكم. يا مظلتي ومصدر سعادتي وسلطاني، همي الوحيد أحوالكم وصحتكم، تلطفوا علينا بإبلاغنا بها. إذا كانت أحوالكم جيدة فاكتبوا إليّ - أنا التي لا قيمة لي - عن تفاصيل الأقاليم التي زرتموها، لكي أسعد بشعوري وكأنني بجانبكم وتحت جناحيكم.

إذا كنتم تسألون عن أَمَتِكم التي يتلظى قلبها بنار الفراق والهجران، وتُقهر، ويفور الدم إلى عينيها، ويدب السم الزعاف في كبدها، فهي ترقب طريق سلطانها ليلاً نهاراً متأوهة من دون كلل أو ملل منذ افترقت عنه. وقد سقطت متعبة مع أختكم السلطانة خديجة،

وتذوب المرأتان المتعلقتان بكم يوماً بعد يوم بالحديث عن الذكريات السعيدة. فقد الزمان نظامه بالنسبة إلي يا حاكم العالم. أشكركم على هداياكم التي تضاهي إحداها الأخرى بقيمتها، وتدعو لكم.

متعة لسانكم الأبدية حرم"

II

كان إبراهيم باشا البرغالي وحده في خيمته في أثناء قصف المدافع أسوار فينا القوية حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة، وإصدار الشموع بريقاً وكأن السماء نثرت نجومها على الأرض. كان يبدل درعه أمام مرآة بندقية ذات إطار من خشب الجوز محفور بزخارف نباتية على يد حفارين أوزبك. كان يرتدي درعاً على شكل قميص جديدة جداً وأكثر فخامة من درع السلطان تدعى "دُرو"، وإذا دخل ميدان الحرب مرتدياً إيّاها فلا بدّ أنهم سيعتقدون أنه الحاكم ذاته.

كان يثق بأنه وحده. لأنه نبه الحراس عند الباب ألاّ يُدخلوا أحداً. ولكن، من يستطيع منع حاكم العالم من الدخول حاملاً تحت إبطه رقعة الشطرنج من دون إرسال موظف تشريفات على غير عادته؟ في الحقيقة، كان تصرف سليمان خان ناجماً عن صداقته التي تظهر أكثر في ميدان الحرب، ويريد تجديدها بعد أن خربت قليلاً.

ثمة جنود مجتمعون حول النار في مدخل الفسحة المغطاة الخاصة الواسعة كاتّساع فسحة حاكم العالم. عندما رأى الجاويش الإنكشاري الذي يشحذ سيفه ويثرثر مع بقية العناصر القدماء حاكم العالم عند عتبة الوزير الأعظم، قفز وصرخ: "استعد!".

نصب الحراس رماحهم بجانبهم، ووقفوا باستعداد. ألقى سليمان خان نظرة امتعاض إليهم، ومر بجانبهم. سيطر على حراس البرغالي المزينين هدوء الاستهتار والخوف. ثمة أمر لا يمكن تفسيره بسهولة في نظرة سليمان خان الممتعضة. ترى هل يمكن أن يكون السبب فخامة الباشا التي تضاهي فخامته؟

انسل سليمان خان من البهو الصغير عبر معبر مغطى بالحرير. ولكنه قبل أن ينادي البرغالي، سمعه يخاطب المجهول بحرص وطموح، ولعله المرض. المشهد الذي رآه سراً من بين الظلال من النوع الذي لا يمكنه أن ينساه طوال حياته. فقد وقف البرغالي بكل عظمته أمام المرآة الطويلة تحت أضواء شمعدانات كهرمانية اللون. كان يبدو وسط الدروع اللامعة مسلحاً بأبهة مزورة تشبه ملوك الألعاب الغربية. وكما توقع حاكم العالم، ولعل ذلك ما كان يخشاه، فقد كان البرغالي يخاطبه وكأنه وجود مبهم.

"... أريدك أن تصدقني... أرغب بأن تحترمني مجدداً... أتمنى أن أنزع قلبي وأضعه بين يديك من أجل أن تحبني... أتوق لاعتبارك أنني لا يمكن التخلي عني...". كان الباشا يمد قبضتيه إلى الأمام وكأنه سيحتضن شيئاً بهما، وتابع بصوت وكأنه بكاء يخرج من وجه ممسوخ: "أتوسل إليك أن تفهمني... أجن من أجل أن تسمعني...". شعر سليمان خان بقشعريرة في جسده، فغادر المكان بسرعة كما جاء، وأمر الحراس بألا يخبروا البرغالي بمجيئه. انتقل إلى خيمته السلطانية، وبقي صامتاً ساعات طويلة، وقرب الصباح كتب هذه الأبيات:

"يا رب، تكرم عليّ بنظرة، وأعنّي

لأنني لا أطلب العون من أحد سواك.

سامحني على ذنوبي، وأمسك بيدي

ذنوبي كثيرة، تلطف عليّ بعفوك."

25 تشرين الثاني 1532

حدث ما كان إبراهيم باشا يخشاه. فعلى الرغم من شن مقاتلي الطلائع هجمات على النمسا كلها، وبولونيا، ومورافيا، وسيليزيا، وسلوفاكيا، وسلوفينيا، وبوهيميا طوال ثلاث سنوات، واحتلالهم غراتس ثاني مدن النمسا بشكل فعلي، إلا أن أصداء عودة العثمانيين خاوِي الأيدي من أمام قلعة في الشروط القائمة تتردد في أوروبا كلها. لأنه من المعروف أنه من دون سقوط فينا لا يمكن تحقيق سيطرة تامة على فرديناند. وبالجرأة التي أحدثها هذا الوضع، ومع غضب العثمانيين من عدم سحق النمسا تحت أقدامهم، سار فرديناند نحو بودين من جديد. أبدى ثلاثة آلاف جندي تركي تحت قيادة قاسم باشا، وعشرة آلاف جندي مجري مقاومة أسطورية في المدينة التي بقيت محاصرة طول شتاء 1530 - 1531 المثلج، وبدأت تتصدع تلك المقاومة في نهاية الموسم.

خافت مجموعة من الفرسان المجريين من ظلم فرديناند، فوقعت بغفلة فتح باب أرباد المسدود وغير المستخدم الذي يطل على مستنقع صغير لصناعة الفحم أمام العدو مقابل عفوه عن أرواحهم. وحسب إشاعة وصلت إلى أذن سلطان السلاطين في ما بعد، فإن قاسم باشا عرف بالأمر في الوقت المناسب نتيجة تنبيه سلطان السلاطين شخصياً في الحلم في أثناء غفوته لفترة وهو يحمل بندقيته ذات الفوهتين. خرج سليمان خان من وسط ظلام المستنقع الدامس مرتدياً درعاً خضراء، ولكز الباشا برأس سيفه، ونبهه قائلاً: "قم يا قاسم، العدو داخل القلعة".

قفز الباشا فزعاً بشكل أخاف حتى الحراس. وبينما كان ينادي على أبنائه الجنود، تحرك نحو منطقة الخيانة. وفي ما بعد، عندما كان الباشا يعلّق نبلاء المجر أولئك ومن ساعدهم على أسوار بودين التي

غدت ركاماً، لوّح بقبضته نحو جيش النمسا المنتشر على طول ضفة طونا والوديان، وصرخ: "نحن عثمانيون، نوينا الخروج في سبيل الله، حياتنا طاهرة، ومماتنا أيضاً، ولكن هذه عاقبة جماعتكم".

عندما خف المطر، وسمحت الطرق بالمرور، هرع الغازي محمد سلطان زادة إلى بودين بسرعة البرق. وفور تلقي فرديناند خبر وجود الطلائع على بعد خمسة عشر يوماً، شعر باليأس، وفعل ما فعله سليمان خان إذ شن هجوماً واسعاً ثم فك الحصار. ومع أن تسلل وهيمي أورخون جلبي والغر كمال الغرناطي إلى صفوف العدو قبل وصول الطلائع، وعاصفة الرعب التي عصفا بها هناك كانا أكثر تأثيراً من خبر قدوم الطلائع.

لا شك في أنهما لم يصلا إلى فرديناند، ولكن هلعاً من وجود فدائيين عثمانيين دب نتيجة إيجاد فرديناند صديقيه المقربين الجنرال مكسيمليان فون نوردبورغ قائد جيوش الشمال، والجنرال توماس فون براون قائد جيوش الشرق مذبوحين في خيمتيهما في الليلة نفسها. يُسمع منذ سنين بشهرة وهيمي حتى بين الألمان. كان اسم وهيمي يجوب شرفات قصور أوروبا الرخامية المظلمة قليلاً كشبح عمره قرن منذ أن قَتَل سافينو خلال حصار رودوس.

لا يُنكر أن هذا الصراع المتواصل، والحروب التي لم توقفها الطلائع قد حركت البنية الاقتصادية في الأطراف. ضحكت وجوه المشاركين بالهجمات بمن فيهم الجنود النظاميين، ولكن هذا الوضع لم يكن يناسب الفاسدين الملتحقين بالطلائع.

* * *

في الأشهر الأولى من عام 1532 توفي فجأة الصدر الأعظم الأسبق محمد بيري باشا. بعد أن أنهى الباشا واحدة من زياراته المعتادة

إلى القصر، خرج عائداً على الرغم من مطر الربيع الغزير الذي كـــان يغسل بيت العرش من أوله إلى آخره عصر ذلك اليوم، وإلحاح حـــاكم العالم عليه بالبقاء، لأن الباشا كان رجلاً حازماً ومبدئياً، وهو لا يعود بسهولة عن عمل نوى القيام به. وهنا يكمن سر خروجه أبيض الوجه بعد عمله وزيراً أعظمَ لدى سلطان سلاطين قوي مثل سليم خان.

ولكن الباشا مرض مشتكياً من وهن وحرقة في المعدة فور عودته إلى مزرعته في سيلفري. في اليوم التالي، شرب هذا الصـــدر الأعظـــم الكبير الذي كان سليمان خان يعتبره بمقام والده طاس حليب بصعوبة على أمل أن يهدئ من حرقة معدته، وقبل مرور وقت طويل، ســـقط رأسه على رَحْلَة أمامه راحلاً إلى عالم البقاء. مع الأسف، كانت هناك ادعاءات كثيرة مزعجة حول وفاة محمد بيري باشا الـــذي يســـتمتع سلطان السلاطين بحديثه، ويُسر كثيراً من نصائحه الدقيقـــة باعتبـــاره صديق جده.

كان ابن بيري باشا محمد أفندي قائم مقام قاضي أدرنة، وإبراهيم باشا البرغالي المثبت تخصصه بكل أنواع السموم هدف هذه الشائعات الثقيلة. بيّن سليمان خان بموقفه المعتاد أنه لن يرد على هـــذه التـــهم المسيئة لصديقه، ولكنه على الرغم من هذا أمر بملاحقة ســـرية لمحمـــد أفندي. كان حاكم العالم يرى أنه برحيل بيري باشا الـــذي يعتـــبره مستشاراً قوياً في شؤون الدولة لم يبق من يثق به سوى البرغالي، ويتألم من هذا الوضع.

في الفترة نفسها، أسلم محمد أفندي ابن بيري باشا الذي كان في مركز الاتهامات روحه بحريق كبير اندلع في ساعة متأخرة من الليل من داره وانتشر إلى الحي كله. وهكذا انتهى التحقيق المفتوح سراً بحقـــه. أنجز سليمان خان ختم قرآن سبع مرات خلال أربعين يوماً من أجـــل

بيري باشا الذي يكن له مودة كبيرة، ورآه مرات كثيرة جالساً مع والده يناقشان شؤون الدولة، وشعر بالراحة من ناحية النتائج المحتملة التي يمكن أن يصل إليها التحقيق، وأغلق هذه القضية التي يمكن أن تطال صديقه إلى ما لا نهاية، أو اعتقد أنه أغلقها.

في 25 نيسان 1532، كان خروج حاكم العالم الغازي من أجل الرد على حصار بودين ضربة ثقيلة لم يتوقعها الثنائي شارلكان - فرديناند. في الأيام الأولى لوصول سلطان السلاطين مع أحماله إلى حدود المجر، جاء إلى مقر القيادة العسكرية السفير الفرنسي أنطونيو رينتشون، ورُفض اقتراحه بالتخلي عن الهجوم البري، والدخول بالأسطول من الجنوب لضرب الجناح الإسباني للهابسبرغيين. في الحقيقة، يكمن وراء هذا الطلب قلق محق للفرنسيين. فحصار جديد لفينا يمكن أن يوحّد أوروبا كلها. ولكن سليمان خان رفض هذا العرض لأن هدفه كان جذب الأخوين شارلكان - فرديناند إلى معركة ميدان. وقد ضربت النمسا كلها على مدى ستة أشهر ونصف من دون انقطاع. كان الفرسان العثمانيون يجوبون بخيولهم بحرّية على ضفة نهر الرين الشرقية يانعة الخضرة. وعلى الرغم من كل الاحتياطات فإن المشردين داخل قوى الطليعة ينثرون رعباً من الأتراك لا يضاهى يرسخ في العالم الغربي ككابوس على مدى عصور.

عندما يأتي خبر الظلم إلى سليمان خان، يسارع بإرسال محكمة سيّارة مؤلفة من جندي وقاضيين وكاتب، ويعاقب رئيس المجموعة التي ارتكبت الظلم مع أعوانه فوراً. ولكن على الرغم من هذا لا يمكن القول إنّ الإجراءات المتخذة كافية.

كانت القوى الطليعية سريعة ودقيقة إلى درجة أن العدو لم يكن يشعر بها حتى اللحظة الأخيرة. إذ تخرج فجأة من ظلمة الليل الدامسة

أو ضباب الصباح الكثيف، وهاجم، ولكن لا يعرف حتى سادتها كيف ستكون الدقائق الأخيرة، لأن عودتهم ستكون كيفية. لهذا السـبب، تم وضع *الجرس التركي* المشهور على أبراج الحراس في مداخل الأماكن السكنية الكبيرة والصغيرة على حدود أوروبا.

بعض النخاسين الذين يقال إنهم شركاء بعض قادة القوى الطليعية لا يتركون هذه القوى على الرغم من إنزال السلطان بهم عقوبات شديدة مرات عديدة. يُباع الأسرى المأخوذون بأسعار باهظة في أسواق نخاسة تؤسس خارج الحدود قبل دخولهم البلد، والسوق غير الرسمية الدولية تفيد بملء أكياس بعض رجال الأعمال الظلاميين بالنقود. وهناك قسم من الأسرى يدخلون البلد من طرق نائية بالاستفادة من فوضى حالة الحرب. طبعاً الأمر ينسحب على الطرف الآخر أيضاً. إذ يتسلل الفدائيون الألمان عبر الحدود، ويخطفون من استطاعوا من النساء والأولاد، وتستمر سوق النخاسة بأعلى حجم تبادل كما في كل الحروب. وهذه الحوادث بشكل خاص تشكّل كارثة حقيقية للمدنيين في الطرفين.

كان البابا كليمنت السابع مدركاً أنه دفع ثمن اضطرار سليمان خان العودة من أمام فينا بعد أن قدم خمسة عشر ألف ضحية. لهذا أرسل العجوز الذي يضع القبعة الحمراء التي تحمل رمز نسر روما الذهبي هيئة عليا مؤلفة من كرادلة إلى إسطنبول، وطلبت اللقاء. رفض إبراهيم باشا طلبها اعتماداً على الصلاحية الممنوحة له من دون أن تمثل في الحضرة، وأعيدت بعد أن تلقت الكثير من الإهانات.

كان الفاتيكان غاضباً جداً من حملات الأسطول التركي بقيادة خير الدين بربروس في البحر المتوسط. يمكن لحركة الفتح التي لم تكتمل بوفاة السلطان محمد الفاتح خان عام 1481 أن تكتمل بإنزال جديد

على "أوترانتو" ودخول القوى البرية عبر جبال الألب من النمسا. وفي الواقع، إن سبب دعم طهماسب خطوة استباقية أمام هجوم تركي محتمل كهذا.

ولكن موقف شارلكان العام لم يتغير. فهو ما زال يتجنب حرب ميدان. وهو على حق بعدم المغامرة بمواجهة القانوني. إذ سيفقد نفوذه في فرنسا لمدة طويلة إزاء أي هزيمة محتملة، وستفقد مكانته قيمتها في العالم الكاثوليكي. وقد نجح حتى اليوم بكسب الوقت من خلال حروب إنهاك الجيوش التركية، وعدم دخول مغامرة كبيرة. ولكن الاستيلاء على غراتس، وريغنسبورغ مركز دوقية بافييرا، وحتى فادوز في بولونيا، وماريبور في سلوفينيا كانت ضربات موجعة لمكانة هابسبورغ.

عندما نزل سليمان خان مع جيشه في غراتس، أرسل آخر مذكرة إلى فرديناند:

"أنت تدعي أنك تلاحق قضية شجاعة منذ زمن. ليس لك أو لشقيقك اسم أو شهرة. قضية السلطنة والشجاعة محرمة عليكما. يمكن أن تكون لدى نسائكما شجاعة ولكن ليس لديكما أنتما. تعال لنحسم أمر السلطنة في صحراء النمسا. ولتبق الرعية الفقيرة براحتها، وإلا لا يعتبر نزول الثعالب إلى الصيد في غياب الأسود شجاعة. إذا لم تنزل إلى الميدان هذه المرّة أيضاً، فأخشى أن تضع بكرة نتح الماء من البئر على رأسك وتعتبرها تاج السلطنة كالنساء".

عندما لم يتلق سليمان خان رداً، نزل عبر إستيريا التي تشكل شرق صربيا وجنوب غرب كرواتيا، وكسر كل مواقع المقاومة التي أسسها الألمان في المنطقة، وأسر ثلاثين ألفاً. لقد شحن حاكم العالم نفسه إلى درجة أنه غض الطرف عن تجاوز القوى الطليعية نهر الرين،

ودخولها خط الطول تسعين في عمق الأراضي الألمانية القديمة. نعم، يمكن القول إن روح الفتح، وعودة الحياة إلى روح الأخوية تكمنان وراء كل هذه الهجمات المتقدمة، ولكن التجاذب بين أهل الفتح ومراقبي الدولة في عملية اقتسام الغنائم بعيدٌ عن الأخوة كما كان قبل قرن. إذ إنّ ضغط الزيادة السكانية على الأطراف، ومحدودية الغنائم يمنعان تأسيس هذا التوازن بسهولة كما كان في الماضي.

وبينما كان الصراع في الغرب بين سليمان خان وشارلكان يسير لصالح العثمانيين عبر السنين، فإن التفوق المؤقت الذي حققه الصفويون بقيادة طهماسب في تركستان شرقاً جعلهم يبدأون بتسريع نشاطهم كقوة في شرق الأناضول من جديد. لأن دعم الفاتيكان المتواصل أخذ حالة ملموسة عبر شخص شارلكان. وبفضل هذا عاد الفرسان الصفويون إلى حالتهم الأسطورية تلك عندما دخل طهماسب عامه السادس عشر. ما زالوا يستخفون باستخدام المدفعية حتى لو كانت من النوع الخفيف. ولم يتخلوا عن فكرة أن المدفعية المتنقلة على عربات الثيران، وخاصة على الأرض الوعرة تقتل تأثير الفرسان. كان هناك معتقد سائد بأن هزيمة الصفويين عام 1514 في معركة تشالدران ناجمة عن استخفافهم بحالة الجيش العثماني لأنه منهك، وعن تأخرهم بالهجوم.

غير هذا، فضّل سادة الصفويين الابتعاد عن كل أنواع أدوات الحرب التي يستخدم فيها البارود بسبب صعوبة مواجهة سرعة طلائع المغول والشيبانيين الأوزبك الشبيهة بالبرق بالأسلحة النارية. وهم يؤمنون بأن هذه الأسلحة لا تناسب مفهوم الشجاعة. في الواقع، إن طهماسب لم يتأخر بإعطاء إشارات أنه سيكون شاهاً يملأ الفراغ الذي تركه والده إسماعيل في فترة حكمه. أخذ طهماسب تنبيه شارلكان

وأركانه الحكماء بعين الاعتبار، وشكّل وحدات مدفعية خفيفة وسرايا رماة بنادق، واهتم بتدريبها وشجّعها شخصياً.

أما سليمان خان فقد كان مضطراً للتوجه نحو الشرق من أجل كسر قوة الصفويين التي ازدادت بشكل خطير، وتضييق نفوذهم السياسي، واستعادة السيطرة على خطوط التجارة. ولم تكن السيطرة على شمال العراق فقط كافية، إذ عليه أن يأخذ بغداد لإزالة شعور الانكسار وحالة الدهشة السائدين في العالم الإسلامي بعد حصار فينّا، ورفع مكانة الدولة العلية. والأهم من هذا، لكي يتمكن الأسطول في المحيط الهندي من الإبحار من دون مشاكل، والتدخل في طرق تجارة الأساطيل الأسبانية والبرتغالية الجديدة. لهذا لا بد من الوصول إلى خليج البصرة.

* * *

قال سليمان خان للبرغالي في ليلة مثلجة بعد العودة من النمسا، وما زالت الاحتفالات بالنصر مستمرة: "هذا الصراع أتعب شارلكان كثيراً". كانا جالسين في غرفة العرش على مقعدين مغطيين بقماش البروكار، تحت أضواء شمعدانات مشغّلة بأسلاك الفضة، وقناديل زجاجها ملون عليه زخارف صيد، وأضواء عقيقية اللون تفوح منها رائحة المسك، ويستمع أحدهما للآخر، وينصت الاثنان لصمت الليل. "وأتعبنا أيضاً... ولكنه أعطى نتائج أكيدة على صعيد انشغال الجنود، وازدياد الغنائم. حسب الأخبار التي تلقيناها، إن المتسكعين ومخربي الأرض في الأناضول بدأوا بالنهب في الأطراف. وإذا لم نحل دون هذا، فسيبدأ القلق من جديد. ومن دون إسقاط مدينة فينا ذات يوم لن نستطيع فتح ساحات جديدة تغذي زيادة السكان الكبيرة، وتمنع الخروج على القانون في الأناضول. ولكن هدفنا الآن هو الصفويون وخليج البصرة".

قال البرغالي: "سألتقي مبعثوي النمسا بعد عدة أشهر يا حاكم العالم. أنا واثق من أننا سنحصل على نتيجة جيدة للطرفين".

قال سليمان خان وقد نهض على قدميه: "يجب أن تفعل ذلك يا إبراهيم. هذا اختصاصك، لذلك لديك صلاحية اتخاذ القرار. لا أحد يصب الماء على يديك في السياسة، وخاصة في السياسة الخارجية".

سأل إبراهيم شبه ممازح مع ابتسامة محطمة: "هل حديثكم معي لم يعد سوى بسبب مواهبي السياسية يا حاكم العالم؟".

التفت سليمان خان إلى صديقه بنظرة متفهمة وابتسم، ثم سأله: "مرت سنتان على حفل ختان الأمراء، أليس كذلك؟".

نظر البرغالي عبر نوافذ غرفة العرش العالية نحو ظلمة البوسفور مفكراً وقال: "نعم، كان قبل سنتين. كان قبل عيد الأضحى بعشرة أيام. بدأ العيد في الأول من ذي القعدة، وانتهت ليالي الاحتفالات مع بداية العيد".

"هل شكرتك من أجل هذا الأمر يا إبراهيم؟ إذا لم أشكرك...".

صمت...

"أستغفر الله يا سلطاني. لم أفهم ما الموضوع الذي يستحق الشكر". وكان البرغالي على عتبة فضول قلق، فقد تنمّل جسمه كله حتى رؤوس أصابعه الآن.

"كان الهدف الأساسي من كل تلك الاحتفالات والصخب بمناسبة ختان الأمراء مصطفى وسليم ومحمد هو العمل على جعل الناس ينسون البقعة التي أريد أن يدمغ بها شخصي وسلطتي، أليس كذلك؟".

فكّر إبراهيم للحظة، ثم تحدث بجرأة لم يجد ضرورة لإخفائها: "نعم يا سلطان سلاطيننا. استخدم الأجانب هذه الحادثة ضدنا كثيراً.

وما زالوا يستخدمونها. إنكم تمثلون الدولة العلية، ولهذا فإن حماية مكانة الدولة من أولويات وظيفتي".

قال سليمان خان: "هذا هو السبب الأساسي لحبي لك". ثم نهض، ووقف أمام البرغالي مباشرة. "هل فهمت يا إبراهيم؟ لديك رقة وخاصية تفكير مهذبة جداً لا تتواجدان إلا لدى القليل جداً من الناس".

رمق البرغالي سلطان السلاطين من فرقه إلى قدمه من دون أن يُشعره. قسّت السنون خطوط وجهه الأصيلة، وقوّت لحيته. أنفه الصقري ما زال ظريفاً. ولكن عينيه الواسعتين فاتحتي اللون رقيقتي النظرة يمكن أن تتحولا إلى تعبير حاد وغاضب في أي لحظة.

"لم أفكر براحتي عندما أشركتك بصلاحيات السلطنة المطلقة يا إبراهيم...". سمع البرغالي أن الذراعين القويتين داخل القفطان الأخضر الزمردي المطرز بالذهب والواصل حتى كعبي الجزمة الجلدية السوداء الداكنة أصدرتا حفيفاً. ثم شعر بالمخالب الحديدية تلك التي أمسكت بكتفيه.

"حاشا لله يا سلطاني... أنا عبدكم العاجز فقط... وعلى العبد أن يعرف جيداً أن ما بيده ليس له، وإلا فيا ويله".

"أنت أخي يا إبراهيم... أنا أثق بأن هذه الأخوّة بدأت ببعض المخاتلات الظريفة، ولكنك ضربت جذورك في قلبنا مع السنين". شعر البرغالي أنه يتصبب عرقاً تحت قميصه القطني الدمشقي المرصعة ياقته بالمجوهرات. فقفز بشعور كاوٍ بالتأخر، ولكنه لم يستطع سوى أن يقول: "حاشا لله يا سلطاني". وارتجفت شفتاه المتوترتان، وشعر وكأن لسانه قد التصق بسقف حلقة بطبقة من القطران. كانت حال سلطان السلاطين مختلفة في هذه الليلة.

"أما حدث هكذا مع حُرّم؟ كانت بيننا درجة مشتركة، ثم مع الزمن تحولنا إلى ارتباطات دموية تغلغلت في نفسينا. هل ترى جانباً يمكن محاكمته في هذا الأمر؟ ماذا حدث يا أخي؟ أنت صامت... أنت، وأنا وحُرّم... ألم نخشَ بعضنا على الأغلب يا إبراهيم؟ وكمن سرنا باعتمادنا على قيمتنا على الأكثر، أليس كذلك؟ حبسنا أنفسنا بشكل متبادل، وأمسك كل منا قيد الآخر أيضاً...".

من دون أن يعرف إبراهيم ما يفعله، نظر للحظة إلى الطاولات والمقارئ المصنوعة من أخشاب الأشجار المدارية المحفورة والمرصعة، وأعمدة الجدران الخشبية المزينة التي صنعها المعلمون الإيرانيون والأوزبك خصيصاً من أجل بيت العرش. قدحت أنوار بيضاء أمام عينيه. ثم بدا له وكأن كل شيء غاية في الفخامة في الغرفة تداخل في ما بينه؛ من سطوح الخزائن الأدرنية المحفورة، إلى الأعمدة الجدارية المطعمة بالصدف، ومن الخزف البوهيمي والمينغي إلى حمالات البخور المرصعة بجواهر براقة، ومن مرشّات ماء الورد المصنوعة من زجاج البندقية إلى الطاولة السويسرية. ثم فجأة، أرخى البرغالي نفسه على ركبتيه، ومسح وجهه بالجزمة التي طُرّز على حافتها: "الدنيا خيال". والآن تحتكُ بالأرض ريشة الطاووس والألماسة الضخمة على لفته كثيرة الطبقات: "وجودكم هو سبب وجودي يا سلطان سلاطيننا".

قال له حاكم العالم هامساً: "ناديني سليمان. نادني سليمان الآن يا أخي...". وكان وجهه يرتعش في الظلمة الشديدة.

تابع إبراهيم: "لقد رتبت حفل الختان بشكل يجعل مبعوثي الدول الأجنبية وليس الأقطاب المتصارعة المنتظرة فتنة في البلد فقط يثقون بأن حاكم العالم عاد من الحملة منتصراً. وفي الحقيقة، إننا لم نفشل. ومهما بلغ الأمر، فقد كنا غير مستعدين، ثم إن هدفنا كان

إرعاب الألمان، وهذا ما حدث... نعم، حدث يا سليمان، وأنت تعرف هذا يا أخي".

أمسك حاكم العالم البرغالي من كتفيه، وأنهضه. ثم قال بصوت منخفض اهتم بأن يبديه حازماً: "ولكننا كنا نستطيع أن ننتصر".

شعر إبراهيم بدموع تحرق جفنيه وهو يئن بألم: "سلطاني...".

"وأعرف أنك ضغطت على المبعوثين والوزراء والعلماء الذين حضروا حفل ختان أولادي لتقديم هدايا قيّمة؛ كأقمشة مصر والهند والشام ولاهور والقدس، والأوعية الزجاجية المرصعة بالذهب والفضة، والأسلحة المزدانة بالمجوهرات، والخيول العظيمة مختلفة الأنواع والألوان، والفراء الذي لا مثيل له ولم يسمع به أحد، وآلات لاعبي الخفة العجيبة، وكل شيء... كل شيء كان من ترتيبك، أو لنقل تم تأمينه بضغوطك. دوهمت الكثير من المستودعات والورش. وهذا حقق شراكة بينك وبين زعماء الإنكشارية الذين يعملون بالتجارة. اعتبرت المواد المقترحة على الديوان للنفقات زائدة ولا لزوم لها في فترة كتلك، ولكن أحداً لا يمكنه أن يوقفك. وعلى الرغم من معرفتك أن هذه المعلومات لن تبقى سرية وكنت سأعلم بها، فقد كنت غير محتاط على غير عادتك من أجل أن تصل إلى أذني أبكر. أردت أن تثقل عليّ القيد الذي حول قدمي بدفع بعض نفقات المراسم من كيسك. لا، لا؛ القيد الذي حول رقبتي، وقد نجحت بهذا يا أخي... نجحت يا إبراهيم!".

ترنح البرغالي، ولكن ذراعي سليمان القويتين ساعدتاه بإيجاد توازنه. "لا أدينك يا أخي، وإنما أقدّم احترامي لدهائك فقط. طالما أنك موجود فأنا لا أخشى من شيء أبداً يا أخي... لأن درايتك تجعل الكثير من المستحيلات ممكنة. ولكنني أعرف مخاوفك أيضاً... المستقبل شيء من هذا النوع. إنه سيف حاد الطرفين. لهذا السبب، إن كل

أنواع السلطنة خوف. ولكن، عليك أن تعرف أن الاستخفاف بي أكبر خطأ يمكن أن ترتكبه أنت أو حرم... وأعرف أنني أفكر بذكائكما الحاد يا إبراهيم".

اندهش البرغالي: "سامحوني...".

ستلتقي مبعوثي فرديناند قريباً. طلبي منك وأمري لك أن تعمل ما بوسعك لتترك يانق قلعة (غيور) بيدنا. لأن هذه القلعة مفتاح فينا. هل تفهمني؟".

هز البرغالي رأسه، وظهر تعبير قوي في عينيه الزرقاوين، وقال: "لا تشغل بالك يا سليمان، قريباً يا أخي، كن على ثقة بأنك ستجد الشروط الأولية للاتفاقية كلها لصالحنا في القريب العاجل".

"وفي ذلك اليوم أيضاً... السؤال الذي سألته في أثناء مراسم الختان... حين سألتك أي حفل كان أفخم وأجمل؛ حفل زواجك أختي، أم حفل ختان أبنائي، وأجبت بذلك الجواب المدهش. حتى الآن هناك بين الوزراء من لديه فضول لمعرفته. أعرف أن هناك من قال إنك رأيت تلك الحادثة بحلمك قبل يوم. كنتَ تنتفخ بداخلك بعظمة هذا الجواب، وكنتُ أدرك أن ذكياً مثلك يحلل نفسيتي أفضل مني. هل تعتقد أنني لم أعرف أنك حسبت أنك ستواجه سؤالاً كهذا أولاً وأخيراً؟ لا، أذكّرك مجدداً بأنني لا أدينك. بل أريدك أن تعرفني أفضل فقط".

"أنا أعرفك...".

"أنت تعتقد أنك تعرفني فقط يا أخي".

تكلم إبراهيم بنبرة حازمة وحيوية: "عندما قلت لكم: *لم يُقم عرس كعرسي حتى اليوم، ولن يقام* كنت صادقاً من كل قلبي يا سلطاني. كان هذا إلهام لحظة، والله يعلم أنني قلت الحقيقة. لأن عرسي

شرّفه سلطان سلاطين مكة والمدينة، وسدّ الإسلام بـودين، ومصـر، والشام سليمان زماننا حضرة الخليفة المبجل فاتح الدول، وليس ثمة أحد على وجه الأرض يمكن أن يشرفه ضيف كهذا. وبفرض أن كل حركة من حركاتي محسوبة ومخطط لها مسبقاً كما تعتقدون، فماذا ينتج؟ ماذا ينتج يا سلطان سلاطيننا؟ يليق بكم الأفضل، وأنا عبدكم اللائق بكم في الماضي والمستقبل".

أبرقت عينا حاكم العالم بإعجاب إزاء الحقيقة في هذه الكلمات. ثم قرأ شطرين شعر لشاعر ذلك العصر الكبير فضولي سمعهما مؤخراً:

"إذا قال فضولي إن لدى الجميلات وفاء

لا تنخدع، فهذه كلمات شاعر، كذب بالتأكيد"

III

وضع سليمان خان المزيج الشافي الدافئ رائع الرائحة والمنعش على طاولة صغيرة من خشب الورد، ونادى زوجته: "تعالي يا حرم، تعالي يا شمس ليلي". دخلت حُرّم جناح حاكم العالم بمرح غير مستقر يشبه جو الربيع في إسطنبول؛ جو القصر القديم الذي يستمد سحره من ضوئه الداخلي القديم أصبح تحت إشرافها بالتساوي مع السلطانة الوالدة حفصة. آثار سعادتها وغضبها اللحظي المسبب للانهيار تغلغلت في كل زاوية من تلك الدهاليز الظليلة ذات رائحة الدخان، والغرف الصغيرة ذات القباب، والممرات ذات الشبك، والباحات ذات الأقواس. شخصية السلطانة حُرّم الطاغية، وقوتها التي لا تناقش أخمدتا حتى السلطانة حفصة التي بقيت لفترة طويلة تقف إلى جانب زوجتي السلطان الأوليين ماهدة فران، وغولفم، وأجبرتاها على أن تكون محايدة.

تابع سليمان خان زوجته وهي تمشي بظرف وكأنها تطير، وتنسل بخفة كالريشة وفي عينيه رعشة. قال في سرّه: لا تبدو أبداً أماً لخمسة أولاد في الثانية والثلاثين من عمرها. ما زالت صبية مغردة كما كانت في أول أيام مجيئها إلى القصر... إلى متى يمكنني أن أنكر أنها أكثر من يفهمني؟ هذه هي النقطة التي تتجاوز فيها فراسة إبراهيم وتسامحه، فهي لا تحاكم أحداً، وتعترف بأخطائها عندما تحدث، وتنجح بوضعها في المكان المناسب من الحياة. ولا تصطدم مع أحد وتساير، وبفضل هذا تفرض سيطرتها على كل الشخصيات التي لديها نقص... ولكنها تحذر بالتأكيد. وإذا لم تحذر... يجن جنونها في موضوع إبراهيم على سبيل المثال، وتتحول نشوة غضبها، وانفعال نشوتها الهدام إلى مادة تتغلغل في جدران هذا القصر القديم الذي بتُّ أكرهه، وتضغط علي بكل ثقلها. هذا يعني أن الارتباط بامرأة هكذا؛ إنه انسحاق الإنسان بقوة تحت وطأة شيء لا يريد مواجهته...

ولكن، ماذا عن الحب؟ تركت التفكير بهذا الموضوع منذ زمن طويل... يجب أن تكون تلك الرسائل التي تلحق بي في أثناء تلك الحملات الطويلة جداً على بعد مئات العقد من هنا، وتقطع ودياناً طينية ينيرها ضوء يبعث على السأم، وسهولاً صفراء قتلها القحط من أولها إلى آخرها، وجبالاً عالية مخيفة تجمد الأنفاس آثارُ حب حقيقي فارٌّ من الجنة، وليست نابعة عن قلق وجودها هي وأولادها، (أولادنا)... ولكن، ماذا ينتج؟ أنا دائماً أسأل نفسي هذا السؤال بسعادة هذا الخيال اللذيذ الذي أتمسك به، وأجد راحة عالمي الداخلي. هل يمكن أن يُحب سلطان السلاطين حقيقة؟ هل يمكن هدم الجدار الطبيعي بينه وبين الناس العاديين؟ ما الذي يمكن أن يقدمه سلطان السلاطين فعلاً لمن حوله سوى الخوف على حيواتهم، والقلق من

المستقبل، والشعور بالخيبة الناجم عن الخطر الدائم؟ مال وذهب وأرض وموقع؛ ولكن من يُري وجه الصدق على الرغم من معرفته بأنه يمكن أن يفقد كل هذا بأمر يخرج من بين شفتي؟

فجأة، خطر بباله أستاذاه اللذان لا يهتمان حتى بحصاة من هذه الدنيا، ولا يحيدان عن الحق والحقيقة أبداً، ويناضلان ويجاهدان مع من حولهما مضحيين بحياتيهما من أجل الاستمرار على هذا المنوال.

قال يحيى أفندي: "فكر بي وبحضرة مركز أفندي بجانبكم في أصعب أوقاتكم يا سلطاني. لأنه بموجب الحديث الشريف القائل: *يحشر المرء مع من يحب*، ستجدوننا ندعو لكم، وسيرتاح قلبكم".

إثر هذا تمتم: "يا مركز أفندي. يا يحيى أفندي...".

انطلقت السلطانة خُرّم بنسيم غير محدد وكأنها تنطلق من حلم جميل بثوبها الزهري المفتوح والمزموم ردناه بشريطين، وتنورتها المطرزة نهايتها بخيوط الذهب. كانت ترتدي أيضاً سترة صوفية سميكة ذات ياقة عريضة من فراء السمور. ويمتزج الغربول البنفسجي على رأسها بشعرها الأحمر الطويل وكأنه دفق نهر من نار. في نواة جاذبيتها سلطنة برّاقة تحتفظ بآثار حضارتين بكامل حيويتهما، وتقوي مكانتها التي لا يمكن الوصول إليها بعظمة تبني موقعها بشكل طبيعي. هل يستطيع من يكون هكذا أن يُحب حقيقة؟ لعله يحب... كانت خُرّم تنظر بفخر من ذروة العرش الراسخ تلك التي تدوّخ، وبثقة النساء اللواتي يعتبرن أن الأهم هو أنهن *محبوبات*.

حيّت السلطانة خُرّم زوجها بأدب يناسب عادات عصور راسخة لديها. وبعد ذلك، جلس الزوجان في جناحهما الواسع يراقبان أغصان السنديان في نار الموقد ذي المدخنة العالية المغطى بالخزف الإزنيكي. وفور انتباه خُرّم لقلق سليمان خان وأرقه على الرغم من تأخر الوقت

ليلاً، قالت: "أنا منتبهة إلى أن هناك أمراً واحداً في عقلكم. يحزنكم التفكير بما يمكن أن تصل إليه مواقف إبراهيم باشا التي تفتقر إلى البصيرة مقابل قوته التي تجاوزت الحدود. ثم بماذا كنتم تُتمتمون لنفسكم قبل قليل؟".

قال السلطان بابتسامة أنارت خطوط وجهه الدقيقة: "أنت لا تعرفين كل شيء، ثم إن قلقي لا ينبع من عدم ثقتي بمواهب إبراهيم".

لجأت حُرّم إلى جاذبية ضحكتها المرسومة على فمها الصغير الشبيه بزرّ الورد، وقالت: "اسمحوا لي في هذه الحالة أن أقدم توقعاً صغيراً".

"سمحنا".

"أنا أعرف أن قلقكم الأساسي من الفساد في قلب إبراهيم".

أغمض سليمان خان عينيه بتعبير يُظهر نفاد صبره، وقال بنبرة منبهة: "لا تبدئي من جديد يا حُرّم".

استمرت المرأة الشابة من دون أن تفقد شيئاً من نشوقما: "في هذه الحال، إنّ سبب قلقكم هو خروج أميركم مصطفى إلى سنجق صاروخان. وصل ابنكم الشهم إلى السابعة عشرة من عمره، ويقال إنه يشبه جده السلطان سليم خان كثيراً، وانتظار هذا الشهم أكثر هدر للوقت".

قال حاكم العالم: "لا". مشيراً بيده إشارة لطيفة، وكان ثمة جمود في توازن نبرة صوته التي كانت تصدح للتو. غير هذا، كان يعرف جيداً أن حُرّم مسرورة جداً لأن السلطانة الخاسكي ماهدة فران ستذهب مع ابنه الأمير مصطفى، ولأن غولفم ببنيتها الكسيرة والخامدة بسرعة ليست منافسة لها. "قلقي من المبعوثين النمساويين جان هوبوردانسكي وسيغموند فيكسلبرغ اللذين سيكونان هنا بعد عدة

أشهر. إنهما مبعوثان خبيران لا يعتمد عليهما فرديناند فقط، بل شارلكان أيضاً، ويعملان أي شيء ليحصلا على ما يريدان، ويعرفان كيف يفعلان ذلك جيداً".

قالت حُرّم بحدة عكرت متعتها: "في هذه الحال، التقوهما أنتم شخصياً".

انتفض سليمان خان من دون أن يخفي عبوس وجهه وحدّة صوته: "كيف تقولين هذا؟! مقابلة مبعوثي كارلو الذي يدعى الملك وهو بحكم والٍ لدى فرندوش على ألمانيا من دون أرض ليست وظيفة صدرنا الأعظم حتى. أنا سلطان سلاطين العثمانيين وسبعة أقاليم، وخليفة الإسلام، وإمبراطور روما الحقيقي الوحيد، فكيف أقابل مبعوثي ملك مزور كهذا؟".

قفزت حُرّم بكل جبروتها المعهود: "يقال إنّ أجدادكم كانوا أكثر تواضعاً أمام أعدائهم. حتى إنهم كانوا يشاركون بشكل مباشر في اجتماعات الديوان، ويبلغون القرارات الهامة شخصياً".

شعر حاكم العالم بضيق شديد، وفقد صوتُه بريقَه كما فقد تفكيرُه تسلسلَه: "أتقولين إن هذا يجعلنا متكبرين؟".

"حاشاكم يا سلطاننا، ولكن ذلك لا يبديكم متواضعين".

"لا تتجاوزي حدودك يا حُرّم! أنا متعب وكأن هناك شظايا زجاج في مفاصلي. لا تضايقيني الآن".

لم تزح حُرّم عينيها شديدتي الزرقة عن عيني حاكم العالم: "تنبيهي من أجل سعادتكم وراحتكم يا سيدي. كان من عادة جدكم السلطان محمد الفاتح خان رفع الكلفة بينه وبين الوزراء، ومتابعة اجتماع الديوان من خلف شبك ستؤذي الدولة في النهاية، وسترون".

"العدالة هي التي تبقي على الدولة منتصبة، وليست المراسم".

"يا سليماني، تواضع أجدادكم كان على رأس مزاياهم. سيستخفّ أعداؤكم بهذا في البداية، ولكنهم سيُسحرون بالتواضع الأبدي الذي يعرفون أنهم لن يشهدوا مثيلاً له في حياتهم فور مغادرتهم. هذا ما علمتموني إياه أنتم. تعالوا، وغيّروا هذا الأمر. انظروا، خلال فترة الاحتفالات، تنكرتم ونزلتم بين الناس مع إبراهيم. رويتم لي عن مدى سعادتكم لشعوركم بأنكم *إنسان* حقيقي. والآن، اخرجوا هويتكم الحقيقية أمام المبعوثين النمساويين، ورجّفوهما. لديكم الوقت للتفكير في هذا واتخاذ القرار. لا تتركوا دولتكم لأهل فساد مجهولي الأصل والفصل أمثال إبراهيم".

تملصت ابتسامة من بين شفتي حاكم العالم: "مشكلتك الأساسية هي إبراهيم، وليست آلية عمل الدولة وقواعدها يا حُرّم. أنتما لا تنسجمان بأي شكل. منذ البداية وأنت تحرضينني ضده وكأنك تريدين الانتقام منه".

لم تتراجع حُرّم خطوة: "شاركتموه بصلاحياتكم يا سليمان. ولكنكم ترون الآن أنه ينافسكم، وتشعرون بالندم سراً. إنه يحاول منافستكم بقصره وعبيده وحرّاسه وجواريه. وسمعت أن خيمته في ميدان الحرب تنافس خيمتكم. ويرتدي حرسه لباساً أكثر فخامة من لباس حرسكم. أنتم ترون بالتأكيد أن هذا يظهركم غير أكفّاء".

قال سليمان خان بنبرة حادة: "كفى يا حُرّم. ليس من مقام أحد أن يتكلم مع سلطان سلاطين عثماني بهذه الطريقة، حتى لو كانت زوجته. ولا تنسي أنني إذا كنت أوصف اليوم في العالم بأنني *رائع* فهذا بفضل إبراهيم. لستُ وحدي من يشعر بالامتنان له، بل الدولة والأمة أيضاً ممتنّتان له".

جنّ جنون السلطانة حُرّم نتيجة شعورها بالألم لاعتراض السلطان على أحكامها، ومقارنتها بخصمها. رفعت صوتها مجدداً من دون تردد:

"أوهامكم تؤجج تكبره. لو حدث لكم شيء في إحدى الحملات لا قدر الله، فسنبقى أنا وأولادي تحت رحمة يديه الدمويتين. وهكذا ستشرق الشمس لشريكته ماهدة فران، كيف ما كان فهي والدة ولي عهدكم. ولكن، لا تُخرجوا هذا من عقلكم، حتى السلطانة الوالدة حفصة منزعجة من هذا الوضع. إنها حزينة جداً لقيام من لا أصل له بأعمال ابنها...".

قال سليمان خان: "لا تُدخلي والدتي". ثم همس لنفسه بهذه الكلمات التي لم يطاوعه لسانه على قولها: "حتى أمي أصبحت في ظلك يا خُرّم. ولكن العجوز تصرفت بذكاء حين انطوت على نفسها، فقد رأت أنها لن تستفيد شيئاً من الصراع معك، فانسحبت عندما فقدت تأثيرها على الحرم، وتركت لك الساحة بذكاء. ولكن قوتكما تكفيني وزيادة. ماذا يقولون؟ *قطتان تجعلان الأسد يستسلم*. اعرفي هذا يا حرم، لا يمكن لإبراهيم أن يؤذيك، لا يمكنه... لأنه متواضع أكثر مما يبدو. فور عودتنا من الحملة أراد أن يسلّم قيادة الجيش، ولكنني لم أوافق. والسبب هو أن ذلك الفرمان صالح طالما أنا على قيد الحياة".

على الرغم من أن عيني خُرّم كانتا تنظران إلى النار، فقد نخرت قائلة: "نيّته أن يخدع بصركم... لقد اتفق مع ماهدة فران وكاد أن يسممني مع أولادي، ولكنكم... لم تأخذوا الأمر على محمل الجد...".

قال سليمان خان بصبر وسأم كبيرين: "قلت لك من قبل إنني لا أريد أن أسمع شيئاً في هذا الموضوع. أنت تتوقعين أن أقتل صديقي بسبب ادعاء لم يثبت. بعد التدقيق ظهر أنّ الطعام كان نظيفاً، وأغلقت الدعوى قبل فتحها. هناك موت بقدر ما هناك حياة يا خُرّم. لن أدخل هذا الأمر الذي تحاولين أن تجريني إليه".

شهدا حالة توتر وصمت قصيرة. كانت حُرّم هي التي خرقت هذا الصمت: "عندما يتعلق الموضوع بإبراهيم، تتوقف المياه الجارية بالنسبة إليكم، فلا تسمحون بقول كلمة واحدة بحقه. انظروا إلى وزير ماليتكم إسكندر جلبي فهو عالم فاضل ومؤهل أكثر من اللازم. وهو لا يقبل على نفسه فساد إبراهيم. اسمحوا له أن يحضر اللقاء بعد عدة أشهر بصفته وكيلكم على الأقل، وسترون كيف سيزيل قلقكم".

ضحك سليمان خان بصوت مرتفع من دون أن يسيطر على نفسه هذه المرّة: "هل أصبح إسكندر جلبي حليفك يا حُرّم؟ ما أخبار وهيمي؟ أنا واثق من أنك أخذت منه المعلومات عن إسكندر".

صرخت حُرّم فجأة نتيجة غضبها من عدم استطاعتها محو التصنّع في دهشتها: "هل ترون بهذا التركماني رفيقاً لي يا سليمان؟". ثم انكبت على ركبتي السلطان قبل أن يفتح فمه: "يا سيدي وكل ما في عمري، يا سيدي وصديقي وحبي الوحيد، يجب ألاّ يحزن أحدنا الآخر بقضايا الدنيا، أرجوك".

أخذ سليمان خان نفساً عميقاً وهو يشعر بالسأم وقال: "اسمعي إذاً.

يا حبيبٌ غير وفي أقسمَ على قتلي، تذكر قسمك

لستَ بحاجة إلى يمين آخر لكي تريح قلبي

عَصَبَ الوفاء عيني حبيبٍ انتظرت وفاءه

هذا تصور وخيال جميل مستحيل."

الفصل الرابع

زهرة برّاقة

I

"العشق الذي يتدخل فيه الدم يتلوى بالانتقام
أعرف، فقد مررت كثيراً من هذه الأمكنة
يبدأ نصري بعد انفصالي
وهذا يعود لمن يفهم أنه ليس ثمة نصر في العشق."

الشاعر مراد هان مونغان

7 أيار 1533

"Serenissimus et potentissimus dominus noster Ferdinqndus gratiosissimus Rex misit nos ad Mairestatem vestram".

صد إبراهيم باشا البرغالي الفارس الشهير هوبوردانسكي قائلاً: "دعك الآن من ألقاب فرديناند. خير الكلام ما قل ودل. القصد هو أنه في 17 تشرين الأول 1530 حسب تقويمكم، و24 صفر 937 هجري، لا فائدة من الكلام من دون التوافق مع المبعوثين نيكولاس جوريشيتس وجوزيف فون لامبرغ على الحد الأدنى من الشروط موضوع المباحثات، والقبول بزابوليا حاكماً مطلقاً على المجر باسم السلطان سليمان القانوني".

ولكي يثبت هوبوردانسكي أنه ليس الرجل الذي ينهار بسهولة، تململ ببطء في ضوء البهو الفخم المنعش، وتحدث بالتركية: "سعادة صاحب الفهم إبراهيم باشا، جئنا إلى هنا من أجل إيجاد طريق وسط معقول. نحن نثق من كل قلبنا بأن هناك الكثير من الخيارات المحتملة".

كان الفارس رجلاً ثقيلاً كالفيل. وعلى الرغم من كونه يحمل عار تحوله إلى مريض يستهلك ثروته بسرعة في خمارات مدريد وفينا، فهو من بقايا مقاتلي موهاتش المبتعدين عن ميادين الحرب. ويبدو - حتى في هذه اللحظة - بأنفه المتحول لونه إلى الباذنجاني بسبب بروز أوردته الشعرية، وحمرة وجهه كثير الحفر في غاية المتعة. لا بد أنه قَبِل بهذه المهمة من أجل أن يكسب مجدداً خدمة الدولة.

كان يؤلمه كثيراً كون ألبسته الضيقة كثيرة الألوان والشرابات والكشكش. وبنطاله الضيق الذي يُظهر التواء ساقيه بشكل خاص موضوع سخرية سرية منذ دخوله الأراضي التركية، ولكن ليس أمامه سوى التحمّل. يبدو وجه صديقه المقرب في السلاح سيغسموند ويكسلبرغر طبيعياً، ولعله أكثر "إنسانية" على الرغم من تقدمه بالسن أكثر. غير هذا، لقد كان متيناً ومن دون مشاعر كأحجار جدار قلعة عمرها قرن نبتت عليها الطحالب. لا أحد يستطيع أن يجرحه بسهولة.

استعرض هوبوردانسكي ألبسة العثمانيين الطويلة المنفوشة التي تظهرهم بمظهر أفخم مما هم عليه، وقال لنفسه متحسراً: "لو كان سيفي على خصري، لكان من الممكن أن أظهر أكثر قوة وأصالة مما أنا عليه الآن".

قال إبراهيم باشا ببطء من دون أن يترك قدح الشراب من يده: "لا طريق وسطي في القضية غير هذا. ستبقى قلعة غولة بيدنا؛ وسيعتبر صاحب السمو فرديناند سليمان خان كوالده، ويعتبرني شقيقه، ولن يذكر في أي مراسلة رسمية سوى جلالة سلطان السلاطين حاكم العالم سليمان خان، والإمبراطور؛ ويتخلى عن حق وصايته على المجر بشكل تام. مقابل هذا، سيتكرم سلطان سلاطيننا بقسم من ضرائب البلد على فرديناند باعتبارها هدية الوالد إلى الولد. ولكن، من حقنا ثلاثون ألف

دوقا ذهبية، وستدفعونها من دون اعتراض أو سؤال. وسيطلق سلطاننا أسراكم من دون مقابل كرد على شكركم لمقامه السامي، وننتظر منكم معاملة مماثلة لأسرانا".

اعترض سيغسموند ويكسلبرغر قائلاً: "سمو إبراهيم باشا، لنلتق حضرة السلطان سليمان خان، ونراجع معه الوضع الأخير؛ الوريث الحقيقي للمجر هو الملك فرديناند بسبب رابطة القرابة". كان سيغسموند رجلاً في الستين من عمره تقريباً، ولكن الذكاء يتدفق مع عينيه الفضيتين. كما كانت خطورته تبدو فوراً من نظرته ونبرة صوته. وعمل لسنوات طويلة فدائياً خاصاً متطوعاً لدى شارلكان. أراد أن يتابع كلامه، ولكن إبراهيم باشا أسكت الفارس العجوز بحركة من يده: "هذا مناسب! انظر أيها الفارس العزيز، أنا من يدير أكبر إمبراطور في الدنيا. الأحكام التي قدمتها متجذرة وباقية. والسبب يرجع إلى أن القوة كلها بيدي. أنا أعيّن موظفي الدولة وسادة أسيادها. ويبقى ما أعطيه معطى. ولا يمكن قبول التفاصيل التي أرفضها. ولأن كل شيء يتم بقراري، لا تطبق قرارات سلطان السلاطين من دون موافقتي. الحرب والسلم والسياسة والخزينة كلها بيدي. وسبب كلامي هذا أمامكم هو تأمين راحتكم وشعوركم بالثقة أمامي...

منح حضرة حاكم العالم سلطاننا السلطان سليمان خان القانوني دولة المجر ليانوش زابوليا، وستبقى له حتى صدور أمر آخر. وستعاد أموال النبيلة ماريا هابسبورغ شقيقة فرديناند وشارلكان ملكة المجر وأراضيها. انظرا، لو كان الملك لاجوس الثاني قد مات في فراشه، لكان من الممكن اعتبار مطالبة فرديناند بالعرش بصفته وريث صهره مقبولة. ولكن، بما أن لاجوس مات في ميدان المعركة، فلا نقاش حول حقنا

بالملكية، فقد حصلنا عليها بقوّة السيف. ثم مـاذا يسـمى اسـتغلال وجودنا في حملة النمسا في الأشهر الأخيرة من سـنة 1532، وعمـل القائد أندريا دوريا بأسطولنا؟ أنا أسألكما عما يعنيه احتلال كوروني على السواحل الجنوبية، وإنـزال جنود في باتراس وإينباهت في عملية احتلال سريعة؟". لمعت عينا البرغالي بمتعة القوة والغضب فجـأة: "إذا كنتم تخافون من مواجهتنا بشجاعة، فلماذا تغدرون؟".

عبث هوبوردانسكي بلحيته مستمداً جرأته من أيامه الماضية عندما كان محارباً: "يا صاحب الفهم إبراهيم باشا، كلمـاتكم وطلبـاتكم تتجاوز المنطق. من المستحيل بقاء قلعة جيل (غولة) بيدكم، لأنها تقـع في نقطة حرجة بالنسبة إلى فينا. نحن مصرون على مناقشة هذا الأمر مع سلطان السلاطين حاكم العالم. بعد اللجوء إلى عفوكم، أقول لكم إنّ هذه الكلمات الخارجة عن لياقتكم ليست لكم. لقد نصحكم بها ابـن ملك البندقية ومستشار الإمبراطور سليمان خان ألفيس غريتي. هـذه عائلة تجّار، وتحاول الآن الاستمرار بمملكة مصطنعة بـدعم حضـرة سليمان خان. يا باشا صاحب الفهم، لا يتوانى هؤلاء التجار الإيطاليون عن اللعب بقدر أمتهم من أجل مصالحهم. من مصلحة الإنسان الابتعاد عن تجار الدم. رجاء خذوا تحذيرنا هذا بعين الاعتبار".

ضرب إبراهيم باشا طاولة الأبنوس المطعمـة بالصـدف أمامـه بالقدح الزجاجي الذي كان يحمله بغضب خارج عن قواعد التهذيب: "لا تفكروا بأن هذه الكلمات علمني إياها غريتي. بالعكس، غريتي هو الذي رضخ لمطالبنا. قدم حضرته وحضرة والده الأصيل الملك أنـدريا غريتي خدمات جليلة للدولة العلية. وهما اللذان بنيـا السـلام بـين العثمانيين والبندقية، وحليفانا الثابتان. أرى فائدة في إعادة هذا الكلام لكي لا تقعا في الخطأ. غير هذا، أنا أبتلع إهانتكما لأنكما ضيفاي".

نظر هوبوردانسكي بداية إلى قطعة الجمر التي طقطقت بصخب في الموقد الضخم المغطى بالخزف والمرصع بالزبرجد والعقيق. ثم التفت إلى البرغالي بنظرة أشد برودة من رياح الربيع. شعر إبراهيم بأنه يُسحق تحت المفروشات المذهبة والمفضضة والمرصعة بالجواهر في الغرفة الواسعة جداً ذات القباب، وبأنه يتشقق ببطء تحت تأثير تلك النظرة الساحقة. شعر لأول مرة بخدر وسط رائحة زيت العنبر المرشوش على الحطب في الموقد. تململ قليلاً على المقعد البورصي الطويل عالي المسند الشبيه بالعرش، وشد نفسه، ثم قال بحدّة وكأنه خاف أن يفقد تفوقه في حرب الأعصاب التي يخوضها ضد المبعوثين، وأراد أن يقوي نفسه: "أيها الفارسان النبيلان، أنا لديّ قوة مطلقة، وإرادتي هي إرادة سلطان السلاطين. أعمل إذا أردت من دون علم سلطان سلاطيني، وأمنح دولاً وملكيات كما أريد إذا أردت. لا فائدة من كثرة الكلام في هذا الأمر. وافقا على هذه الشروط، وأبلغاها لوالي فينّا الذي تعتبرانه ملككم".

"وافقوا على إعادة المجر إلى جلالة فرديناند، ولنقدم لملكنا شارلكان عرضاً قوياً لكي يعيد كوروني وباتراس وإينباهت. بيدكم تسهيل مهمتنا".

ضحك الباشا باستخفاف شديد مظهراً انتفاخات أضراسه البيضاء العميقة، وقال: "أيها الفارسان عاليا القدر، نعرف كيف نسترد بالسيف ما اضطررنا للتخلي عنه بقوة السيف!".

نهض هوبوردانسكي بجسمه الثقيل جداً ببطء. فعله هذا قبل نهوض الباشا مخالف للأصول، ويعني عدم اعتراف واضح بالسلطة التي أمامه. أشار إبراهيم باشا إلى حراسه بغضب، فضغط الإنكشاريون ذوو الأجساد الضخمة على كتفي الفارس الذي ترك أيامه الجيدة خلفه، وأجلسوه بسهولة. وعلى الرغم من هذا، عبر الفارس عن حزمه بصوت

قوي أجش: "أنا مصر على لقاء حضرة السلطان، وإلا فلـــن أخطـــو خطوة واحدة".

فلم يبال الفارس على الرغم من قـــول الباشـــا: "ســـأرميك في الزنـــزانة، وأعلّق الكرة الحديدية بقدمك!".

يعرف البرغالي جيداً من هو هوبوردانسكي. لا يمكنه الخروج من هذه القضية بهذه الطريقة. نظر إلى وجه ويكسلبرغر الشـــبيه بوجـــه منحوت في حجر، وقال بصوت يُسمع بصعوبة: "حسنٌ إذاً".

* * *

بعد انتهاء هذه المباحثات بفترة قصيرة، سُمع في إسطنبول أمـــر غريب لم يسمع مثله حتى ذلك اليوم، ثم انتشر في ولايات الدولة كلها. في المساء نفسه بعد صرف المبعوثين، اصطحب إبراهيم باشـــا حـــاكم العالم معه، وانطلقا في طريقهما إلى بيت ألفيس غريتي. أمل البرغالي أن يكون هناك جو مريح في اللقاء مع المبعوثين، ونجح باصطحاب سلطان السلاطين غير المعتاد على الخروج من القصر. من الواضح أنـــه أراد أن يكون اللقاء بعيداً تماماً عن العيون الغريبة.

أنيرت الطرق كلها وأفرغت الموانئ من طوب قابِ إلى غلاطا من أجلهما. ما عدا السفن الحربية، سحبت كـــل المراكـــب التجاريـــة، وزوارق النـــزهة، والزوارق الشراعية الشبيهة بتلك التي تسير في المياه العذبة، وسفن الشحن الضخمة التي تموّج البحر عندما تسير، وســـفن الجر التي لا تختلف عن وحوش البحر المتعبـــة إلى مرمـــرة، وأشـــعلت مصابيحها الملونة احتراماً، ووضعت بحالة تأهّب.

حاول الناس المتجمهرون حول الطرق التي طوقها الحرس الخاص معرفة ما يجري تحت أضواء قناديل زيت شاحبة في فوانيس قذرة. مـــن الواضح أن شيئاً غير عادي سيحدث، ولكن ما هو؟ ليس الأهالي فقط،

بل إن سكان القصر كلهم، والوزراء والعلماء يتهامسون بأن سلطان السلاطين وقع ضحية للعبة البرغالي، ومن الممكن أن يكون قد سُحر. ولكن، حدث ما توقعه إبراهيم باشا من سياسته الحساسة. فقد انعقد لسان المبعوثين عند رؤيتهما سلطان سلاطين العثمانيين الذي لا يقابل الضيوف بسهولة حتى لو كانوا ملوكاً في بيت أجنبي، وكُسر عنادهما.

II

20 تشرين الثاني 1533

تحقق الاستقرار في أوروبا ولو لفترة مؤقتة بمعاهدة إسطنبول التي وقعها كورنيليوس دي شبّة مسؤول الخارجية الخاص لفرديناند. حان وقت القيام بحملة للقضاء على الصفويين، والتقدم نحو خليج البصرة، والنزول في مدخل المحيط الهندي. ولكن، قبل هذا تقرر استدعاء خير الدين بربروس باشا الذي عينه المرحوم السلطان سليم خان الجبار سيد سادة الجزائر عام 1519 إلى بيت العرش. كان من الواضح أن هذه الحملة ستكون من أصعب الحملات حتى ذلك اليوم. لهذا السبب، لا بد من قطع الطريق على متن أسطول الإمبراطورية بقيادة آلة الحرب أندريا دوريا. كانت الدولة العلية مضطرة لجعل قوة أسطولها لا يمكن أن تقاوم من أجل الرد على فقدان الموانئ المهمة على شواطئ مورا.

هدم الجنود الألمان والإسبان الذين استولوا على كوروني مئذنة جامع "علو" ذات البروزات المزدوجة، وداسوا سياج ساحته، ومسحوا الزخارف البديعة عن قبته، ورسموا عليها أشخاصاً. كلما سمع سليمان خان بهذا، كان يقبض بيديه القويتين على عمود ويشده ويحطمه أيضاً.

فبقدر ما قوي جسمه، وصلت موهبة محاكمته العسكرية والسياسية إلى درجة ساحقة. كان قلقاً لأنه يركز على فتح جبهتين؛ حتى وإن كانت إحداهما مستتراً عليها، ولكن الصفويين هدفه الأساسي الآن.

في أثناء عمله على هذه الخطة ليل نهار، دخل قائد جيوشه إبراهيم باشا على جدول الأحداث بحادث غريب وغير متوقع. كان معروفاً انزعاجُ علماء المسلمين من نصبه تماثيل هرقل وأبوللو وديونيسوس المعروفة باسم *ثلاثي الجمال* في حديقة القصر. ذات ليلة، استمد أحد مشاهير شعراء المرحلة فيغاني الجرأة من هذا الأمر، وألقى بيتاً من الشعر بوجود ثلاثة شعراء أصدقائه؛ خيالي وذاتي ولطيفي. وكان ذلك البيت الشعري في الحقيقة رداً على قصيدة رائعة لذاتي، حيث إنّ بينهما تنافساً جميلاً. أراد فيغاني أن يوازن التنافس ولو قليلاً بينه وبين صديقه العزيز ذاتي.

وكانت القصيدة التي ألقاها ذاتي في الأمسية الربيعية الباردة تلك:

"ما بك أيتها السماء تبكين؟ هل لديك صديق تركك وحيدة وشرد؟

هل لديك قمر برّاق يدور في كل مكان عدا عن المكان الذي تصلين إليه؟

أيتها الكروم والبساتين، هل شحب وجهك الخريف إلى هذه الدرجة؟

أم لديك سروة مالت إلى الطرف الثاني من الجدار لتنظر؟

صرخت: آه يا حبيبتي، أنا يجب أن أقدم روحي فداك!

نظرت *حبيبتي إلى وجهي بغضب، وقالت:* روحك! وهل لديك روح تضحي بها؟

يا ذاتي، تناثرت كخصلة شعر على جبين حبيبتك مرة أخرى.

هل أنت تتأذى دون كلل، أم إن لديك قلباً لا يخرج من البال كجني؟"

وحسب الرواية الشهيرة، فإن فيغاني توقف، ونظر إلى ليل الخريف البراق وهو يتنهد، ثم ألقى هذين الشطرين اللذين اشتهرا بسرعة بين الناس، وكلّفاه حياته نتيجة إثارته غضب إبراهيم باشا:

"جاء إلى معبد الحياة إبراهيمان

أحدهما محطم الأصنام، والثاني ناصبها"

الضرورة العسكرية والسياسية في تلك الأيام جعلت سليمان خان لا ينبس إزاء أمر وزيره الأعظم المتنازل له عن كل صلاحيته بخنق هذا الشاعر العظيم وليس الود بينهما، ولكنه تضايق كثيراً. كان لديه أصدقاء شعراء يحبهم، ويعرفهم عن قرب - ومن بينهم فيغاني - منذ أيام شبابه الأولى عندما كان سيد سنجق مانسيا. والآن، إنه يشعر بالخجل، وكلما تذكر هذه القضية ينقبض قلبه بألم وخجل على الرغم من كونه أقوى رجل في العالم. إثر هذه الحادثة المؤسفة، أُجلت أمسيات الثلاثاء الشعرية إلى أجل غير مسمى.

ونتيجة شعور حاكم العالم بالصغر والانكسار لمسؤوليته أمام أهل الكلام الذين يقدرهم كثيراً، أعطى نفسه للعمل أكثر من أي وقت آخر، حتى إنه فقد نفسه بالعمل. صار قليلاً ما ينام، ويكتفي بلقيمات يتناولها صباحاً ومساء، وعندما يشعر بأن عقله توقف من شدّة التعب كان يرمي النبال إلى أهداف بعيدة بشكل يجعل الرماة المهرة يعضون أصابعهم. يمكن أن يسامح إبراهيم على الكثير من الأخطاء بسبب صداقتهما القديمة وخدماته للدولة العلية، ولكن التخلص من شاعر عظيم مثل فيغاني..، لهذا السبب لم تعد لديه الرغبة بكتابة الشعر. وصار ينظر نظرة خاوية إلى الأحجار الكريمة على طاولته. كم يفقد من الأمور من دون أن ينتبه البتة!

يتأبط بعض صخور التدريب التي يحتفظ بها من زمان والده في باحة التدريب بتصميم يشبه تصميم والده السلطان سليم الجبار تحت سماء الربيع المتجمدة والموترة للأعصاب، المتحولة درجات لونها من الرمادي إلى الأزرق الباهت، وإن لم تكن الأكبر حجماً، وينجح بحملها عدة أقدام على كتفه. ولا تخطر على باله كلمة يمكن سكبها على الورق، أو لفظة يمكن قولها لتشرح شعوره بالانكسار وعدم الجدارة. شعر وكأن جسده كله يبرد في شتاء قديم جداً بقي في غاية البعد. وهو لا يعرف أن والده كان يحمل هذه الصخور حتى فسحة الباحة الثالثة، ويحملها على الطرق المرصوفة، ولكنه يستصعب حملها عندما يسير بها على الطرق الطينية الوعرة.

وقد رأى رئيس عسس إسطنبول مصطفى باشا الطوقاتي، المعروف باسم المخلب الحديدي، وهو أحد مشاهير رماة عصره بعينيه أن السلطان أطلق سهماً من وادي كاغتهانة، ودخل بين الغيوم الماطرة، ونزل على بعد ألف وأربعمئة عقدة، ولم يصدق ما رآه، وقال له السلطان كلما أخبره هذا أنّه مخطئ. أما السلطان فقد قال في ذلك اليوم ببساطة: "الريح، لا تقف عند ما حصل يا مصطفى، الريح جرته فقط...". وعندما ألح مصطفى باشا على وضع حجر هدف، تمتم سليمان خان بموقف جامد: "ليتنا نستطيع أن نضع ذلك الهدف على قلوب الصفويين الذين يقولون إننا نلهو في حرم القصر القديم، وعملائهم المحليين...". وأغلق الموضوع.

III

قال السلطان سليمان القانوني لوزيره الأعظم وصهره إبراهيم باشا في الأمسية الباردة التي خرجا فيها متنكرين: "لا معنى لانتظار شعور شعب الأناضول بالطمأنينة من دون إزالة الصفويين عن الوجود. لأنهم يستمرون بإشعال الأناضول كلها بنشاط جواسيسهم، ويغلقون طريق تبريز بورصة، وحلب، ويسدون طريق هجرة التركمان إلى الأناضول؛ إما بإخضاعهم للإقامة الجبرية، أو بتصدير مذهبهم إليهم عبر أصحاب اللفّات السوداء".

خرجا من جامع العرب بعد أداء صلاة العصر مع الجمع المتفرق إلى الأزقة الباردة، وكانا يسيران نحو أعلى زقاق بيرا بخطوات بطيئة على الرغم من وجود الحراس المتنكرين مثلهما خلفهما أيضاً. لم يكن سليمان خان يرتدي سوى قميص درويشٍ بسيط وسرواله، وسترة صوفية، وفوقها قفطان أوزبكي طويل نسيجه خشن، وعلى رأسه قبعة خضراء أوزبكية أيضاً ذات أربع زوايا. أما إبراهيم فقد أدخل نهايتي ساقي سرواله تحت جوربه الصوفي الطويل الذي يلبسه مع نعلين مكشوفين، ويلف نفسه من الأعلى بقميص أسود، ويسير غير عابئ بالريح الرطبة التي تعبث بياقته المفتوحة.

كان المحيط مناراً بضوء خفيف الزرقة وكأنه يزحف وسط الأزقة الطينية المظلمة المغطاة بالماء. كان المسلحون الروم الأرثوذكس الواقفون بقبعاتهم المغطاة بالوبر الأسود أمام الورش والمستودعات والدكاكين الغنية، والطليان الكاثوليك الذين تدعمهم عائلة غريتي وعملاؤها مع أبناء مذهبهم هم الذين يتحكمون بالتجارة. ولهذا السبب، لا أحد منهم يهتم كثيراً بمنع حمل السلاح. يأتي التفوق الذي حققه المستعمرون البندقيون على التجار الجنفيزيين الذين فقدوا

نفوذهم تماماً في السنوات الخمسين الأخيرة من الاتفاق السري الذي عقدوه مع عائلة غريتي ضد الأرثوذكس، لهذا السبب غدت المـاء لا تخر بين هؤلاء ورقباء الإنكشاريين الخارجين عن القانون والعصابات السرية. وعلى الرغم من حظر الزواج والتجـارة علـى آغـاوات الإنكشارية فهم يتزوجون بسرعة كبيرة، ويؤسسون بيوتاً، إضافة إلى أنهم يحولون التوازنات التجارية لصالحهم. ولكنهم لم يستطيعوا منـع الانقسام في مـا بينـهم. وصـاروا يختـارون بـين الكاثوليكيـة والأرثوذكسية، وتأقلموا بطريقة ما مع الحياة التجارية المتقلبـة غـير المناسبة لقواعد مهنتهم العسكرية وكبريائهم.

كان الإنكشاريون وراء غالبية الروم الأرثوذكس الذين يـديرون المراكب في ميناء "قرة كوي" خلال السنوات الخمس الأخيرة. يلـبس هؤلاء سترات واسعة من الوبر الأسود ذات جيوب فـوق قمصـان حمراء، وتحتها سراويل صوفية ضيقة من الأسفل، ومنفوخة من الأعلى ويتمايلون في الميدان متبخترين، لذلك يسـمون بـين النـاس *رؤوس الأفاعي*. وهم يحملون في زنانيرهم نوعاً من المُدى الرومية التي تشـبه السيف القصير العريض، ويحلقون رؤوسهم بتلك السكاكين التي تكون بحدة الموسى أحياناً، ويستعرضون أنفسهم في الساحة.

وعندما نفضت الأيدي عنهم بعد أن فرضوا الإتاوة على بعـض التجار مستندين إلى الإنكشاريين، ووجد بعضهم جثثاً من دون رؤوس أمام الدكاكين المقصودة قبل ستة أشهر، هدأوا قليلاً. وهذه الفترة هي التي أشعرهم فيها وهيمي وعناصر الهلال بظلالهم بكـل قـوة. لهـذا السبب، لا ينبس أحد حتى رؤساء عصابات الإنكشارية بكلمة، ويبدو أنهم انـزووا في إحدى الزوايا تاركين الأمر للزمن قليلاً. ومن المحتمل أنهم ينتظرون فوضى تجلبها حملة كبيرة لممارستهم أعمالهم الشريرة.

ومقابل كل هؤلاء هناك جنود بحرية محفل قونجاباش الشجعان. ويتألف هذا المحفل من جنود شجعان لا يدعون الطير يطير في نواحي مرسى أمين أونو، ومرسى أون قبانِ. يرتدون قمصاناً قطنية بيضاء في الصيف والشتاء لإظهار عدم تأثرهم بظروف الطقس، وفوقها صدارات مدنية أو سترات ذات طبقتين من البطانة. ويضعون تحت زنانيرهم خناجرَ طويلةً، ويلفونها بسبحات ذات تسع وتسعين حبة، وقصدهم أن يقولوا بهذا: *السلام أولاً* ، ويقولوا: *قلوبنا دائماً مع الإيمان والسلام، وألسنتنا دائماً مع الذكر.*

أمر سليمان خان بدعم هؤلاء مرات عديدة، إلا أن أحد إجراءات البرغالي السرية فرضُ صعوبات على تجارة الحبوب من موانئ القرم التي كانت تأتي إلى موانئهم على الأغلب. لهذا السبب نجحت أسواق سيواستوبول، ويالطا، وغوزلفة الواسعة برفع الأسعار بطرائق غير مباشرة ضد مصلحة الأتراك، ونشطت السوق السوداء. وإذا لم تكن هذه السوق مرتبطة به مباشرة، فإن رجاله هم من يديرونها. ويسيطر على السوق من خلال صوامع الحبوب الضخمة التي يشتريها باسم بعض أقرباء الأغنياء المحليين، ويضبط الربح لصالح الطليان والروم الكاثوليك حيناً، والأرثوذكس أحياناً. ومن جهة أخرى، يبقي سعر النقل منخفضاً بالقوة. كل هذا كان مع الأسف ضد مصلحة الأتراك. والأسعار الفاحشة جعلت عدة شركات متعثرة لا تستطيع متابعة العمل، ومن الطبيعي أن تتذمر من محفل قانجاباش المؤيدة للحزم.

إذ يصادر عناصر محفل قونجاباش بضاعة السفن التي يوقفونها قرصنة، ويرفعون فوراً راية جديدة، وينزلون البضاعة إلى البر سراً، ثم إلى السوق قبل إعلان الخبر. لم تكن باليد حيلة أكثر من هذا؛ على الرغم من أن عقوبة القرصنة إعدام فظيع أمام الأهالي. وبدعم من

وهيمي وعناصر الهلال دخلوا الصوامع، وأحرقوا ما لم يستطيعوا نهبه من دون التفكير بالقحط.

أمّا الشحنات التي يجلبها التجار اليهود المهرة ذوو الطرابيش الحمر شراكة مع بحارة محفل قونجاباش سراً من موانئ فارنا وبيالا وإزميت، فهم يبادلونها في مرسى بهتشة قابٍ بزيت الزيتون، والجبن، واللحم المقدد، والجلد المملح، وتستخدم بعض الأحجار الكريمة، ويحصل منها وهيمي ورجاله على حصة كبيرة. يعتقد وهيمي أن الشراكة التجارية مع اليهود أكثر ثقة من الشراكة مع الطليان، وستجلب مع الزمن ربحاً أكبر على الرغم من كونهم أقل من بقية الأقليات؛ لأن هذه المجموعة التي تبحث عن غصن تتمسك به، موثوقة أكثر من بقية المجموعات.

يدور أكبر صراع اليوم في ميناء يمش مقابل غلاطا مباشرة. وهو أكثر الموانئ حيوية لأنه ميناء خضار وفواكه طازجة، ويجري فيه البيع والشراء بسرعة مذهلة، وتتخذ إجراءات أمنية مشددة على ميناءَيْ أدرميت وبانضرمة بسبب احتمال فساد البضاعة نتيجة تأخيرها. كانت لدى وهيمي خطط لهذه المناطق، ولكنه ينتظر مرورَ الزمن، ونضج الشروط اللازمة.

الجانب الغريب في الأمر هو عدم اقتراب إبراهيم باشا ووهيمي أحدهما من الآخر. هذا جانب آخر من الحرب الباردة الدائرة بينهما. وكان سبب ذلك يرجع إلى عدم رغبتهما في تعكير أعمالهما بالملاحقات، وفي مضايقة سلطان السلاطين.

* * *

توقفا مرة، وشربا كأسين من شراب يغلي في سماور نحاسي مبيّض يحمله بائع ضئيل الحجم على ظهره. وفي أثناء صعودهما من طرق ذات أرصفة عالية أمام دور فخمة ظهرت عليها جهود حجّارين أرمن

ماهرين، رأى البرغالي أن سليمان خان ما زال شارداً بالتفكير، فقال: "إننا نعيش أكثر أيام الدولة العلية عظمة، حيث إن كلمتها مسموعة في العالم. أريحوا نفسكم قليلاً. حباً بالله، من حق الجميع الشعور بالراحة والتمتع بالقليل من اللهو، فلماذا هذا ليس من حقكم؟".

قال سليمان خان وكأنه يجادل: "نعم، ليس من حقي وحدي".

"هناك الكثير من الفتيات في الحرم يرتقبن قدومكم، ولسن من محظياتكم...".

قطب سليمان جبينه، وقال بموقف حازم حوّله إلى شخص غريب في الظلمة الخفيفة: "لا يا إبراهيم، ستُزوج من تُنهي تعليمها من فتيات الحرم لطالب مناسب من مدرسة القصر، وسيطلق سبيلها!". ثم عاد إلى طبيعته اللينة المحببة التي يعرفها البرغالي، وابتسم قائلاً: "هذه القضية تسبب توتراً دائماً بيني وبين حُرّم يا أخي. أنت تعرف أكثر من الجميع أنه ليس لديّ وقت كافٍ لأشبع نفسي يا إبراهيم. حِمل الرعية كلها، ومسؤولية العالم الإسلامي كله على هاتين الكتفين. أعداؤنا أقوى وأصعب بكثير مقارنة بما كانوا عليه في السنوات العشرين الماضية. فقد ازدادت قوة الصفويين مجدداً بفضل دعم الهابسبورغيين المالي والعسكري الذي لم نستطع قطعه. إذا فكرت بنفسي فيما شارلكان وطهماسب يدبران كل هذه الأمور، فسيحاكمني التاريخ غداً، وليس أنت يا إبراهيم".

بعد مرورهما بخان (بَرَكَة) الذي تعشّش رائحة الدخان في قبابه الرصاصية، وعبورهما ضباباً كثيفاً، دخلا زقاق الجمالين الطويل الضيق الممتد إلى برج غلاطة. ثمة سوق قماش صغيرة هناك. تجلب قوافل الجمال إليها أنواع قماش كثيرة من السندس إلى القنب مروراً بأغطية المخدات مما تدوخ به النساء المحليات ونساء الأقليات. نظر سليمان

خان إلى الحرير المطرز بخيوط الذهب الغليظة من دون أن يعرف أنه تحت رقابة رجال وهيمي ومر. هناك ما يجذب العجائز شبه المتثاقلات الناعسات الغنيات وكيلات آغاوات الحرم اللواتي ينزلقن بعباءاتهن العريضة الملونة. ولكن سليمان خان كان يريد دخول سوق الزجّاجين لأنه صائغ ماهر حقيقي. وقبل فترة قصيرة انتبه إلى أنه لا يجد الطمأنينة التي يجدها في هذا المكان الذي تسقط فيه آلاف درجات الألوان البراقة على جدران عمرها قرن نبتت الطحالب في شقوقها إلا في أماكن قليلة جداً. صوت اصطكاك الزجاج الناعم المختلط وكذلك صوت الناس يذكّرانه بصوت بداية انطلاق ماء شلال.

كل لون وكل شعاع ضوء كان ينبعث من مرشات ماء الورد المرصعة بالكوارتز والعقيق والياقوت، ومن طاسات الإمبراطورية الصينية، وأقداح زجاج البندقية الأحمر والأزرق وأصفر الزفير، وزهريات مختلفة الأحجام مطعمة بالياقوت الأحمر القاني ويبدّد الحدة التي في قلب السلطان. رأى سليمان خان *النعلين الشريفين* في صندوق زجاجي مذهّب بين رِيَش زُيّنت بالكريستال والفيروز بشكل خاص للقبعات واللفات الكروية والأسطوانية. توقف، وبقي صامتاً على هذه الحال لفترة طويلة وسط الازدحام. بعد مرور زمن، شعر إبراهيم باشا بأن كتفي السلطان ترتجفان بشكل خفيف، وحتى إن نَفَسَه كان متقطعاً. كان سليمان خان يصبّ دموعه فوق ذينك النعلين محاولاً ألا يُشعر أحداً بذلك.

* * *

بدأ مطر خفيف يهطل في الخارج. وكانت السماء كثيفة كقوام المهلبية. أظلم الجو باكراً، ولف المدينة بردٌ رطبٌ. كان الصديقان يحتسيان طاسين من الحساء بجانب واجهة أحد المطاعم الزجاجية مع

الازدحام الخارج من صلاة العصر مثلهما على الرغم من أنهما غير معتادين على تناول الطعام بعد العصر. يمكنهما سماع طقطقة قطرات الماء وهي تسقط بقوة الريح على السقيفات والواجهات الزجاجية، ورؤية برك الماء الطينية وهي تزداد عمقاً في الأزقة المظلمة خارج النوافذ الصغيرة.

تمتم سليمان خان: "هل كان من الممكن أن أحب هذه المدينة المبشّر بها لو لم تحتضن أجدادي؟". تفتحت ورود بريّة على خديه بتأثير حرارة الحساء ورطوبة المطعم. إنها ورود برية تُحفر وريقة تلو وريقة تحت ضوء قناديل مرتجف...

اندفع إبراهيم بانفعال كاتم السر ككل عبد مخلص يرى سيده مهموماً قائلاً: "هناك أسباب كثيرة تجعل الناس من السابعة إلى السبعين يحبون المدينة التي يعيشون فيها يا سيدي. ولكن حب إسطنبول يعني حب المدينة. فنحن نعرف حالة مدن أوروبا التي تقبض القلوب".

وافق السلطان بهزة من رأسه، ثم عبر عن شعوره من دون أن يتمكن من إخفاء تأثره: "لم يجرف السيل الذي حدث بسبب أمطار الشهر الماضي في باريس كومات النفايات في الأماكن القريبة من المدينة فقط، بل جرف مقبرة دار عبادة برِيس وسان جيرمان يا إبراهيم. وأخرج السيل من القبور الكثير من جثث المتوفين من جرّاء الوباء والتي لم تتفسخ بعد، وجرفها... وهرب سكان باريس أمام منظر الجثث السابحة في الشوارع وكأنهم يرون أشباحاً".

أضاف البرغالي: "امتلأت دور العبادة والبيوت والدكاكين بالجثث التي انجرفت إلى نهر السين، وانتقلت مئات الأميال حتى وصلت إلى هافر على بحر المانش".

قطّب سليمان خان وجهه وهو يفكر بصمت لأنه تم الغوص بأمر محزن فارغ.

ضحك البرغالي مستمداً الجرأة من صمته، وقال: "بكل الأحوال، لن ينسى الفرنسيون ذاك المنظر المخيف لعدة أجيال". ثم لوّن خطوط وجهه المحببة بتعبير جذاب وأضاف: "في الحقيقة، كنتُ أتمنى رؤية تعابير وجوه الباريسيين وهم يرون مياه المطر تجرف جثث الموتى في الشوارع". ثم قهقه بخفّة، ولم يستطع التغطية على القهقهة بصوت ارتشافه ملعقة حساء كبيرة.

"هل تجد هذا مضحكاً يا إبراهيم؟".

توقف البرغالي. وعندما رفع رأسه، انتبه إلى أن النور الذي كان ينبعث من عيني سلطان السلاطين الخضراوين قد تحول إلى رمادي حاد وجاف، فارتعد، وبدأت آلاف التعابير التي تجمّد الدم تظهر على وجهه؛ فقد أدرك أنه قلب شجرة صنوبر ولو صغيرة، ولكنه موهوب: "يا سيدنا، في الحقيقة، إن هذه الحادثة فظيعة إلى درجة أنني ضحكت نتيجة عدم استطاعتي تصورها في ذهني".

"مع أنك رجل واسع الخيال".

"لعل مسؤولياتي تعطل مواهبي يا سيدنا".

ابتسم سليمان خان ابتسامة حلوة وحادة: "حسنٌ، قل لي إذاً لماذا تحب هذه المدينة؟".

قلب البرغالي شفتيه مهموماً. وقوّت لحيته المنفوشة بشكل مهيب تحت شاربه سنجابي اللون الذي ورثه عن أبيه، وكلماته المفعمة بالأحاسيس موقفه الطبيعي: "أنتم سبب حبي لهذه المدينة يا سيدنا. لا حاجة لذريعة أخرى. جناب الحق يعطيني رزقي حيثما كنت، ولكن شرف مرافقتي حاكم العالم لا يقارن بشيء أبداً".

ابتسم سلطان السلاطين بتعبير مفعم بالتقدير، وبعد فترة قصيرة غيّر الموضوع: "لن يكون بربروس غير محق إذا رفض ترك الجزائر يا إبراهيم. إذ إنّ هدف بربروس ضمانة أمن شمال أفريقيا". كانت ملعقة السلطان الخشبية تغط ببطء في طاس الشوربة.

تلفّت البرغالي حوله وكأنه يعارض بربروسَ خيالياً وهو يقول: "ليس من مقامه أن يفعل هذا". ثم عاد إلى حسائه باشمئزاز. إلى أي مدى يمكن أن يكون مكانٌ كهذا نظيفاً يا ترى؟ تابع كلامه محاولاً مسح امتعاضه عن وجهه: "تباهى شارلكان أكثر من اللازم نتيجة نجاحاته في البحر المتوسط. يقال إنه يتحدث دائماً عن حملة للجيوش الصليبية سيقوم بها مع أندريا دوريا إلى إسطنبول".

تحدث سليمان خان بابتسامة جعلت بؤبؤَيْ عينيه كهرماني اللون: "حسب كلام وهيمي، لقد أعلن أنه سيهب أيا صوفيا لتصرف دار عبادة روما الكاثوليكية في سبيل إصلاح علاقته بالفاتيكان. إيه، ليس للسان هذا الملك كارلو رباط. ثقته بزيادة غناه تفقده تهذيبه. فهو يتصرف كمتسكعي منطقة حمام غديكلي باشا الشباب أكثر من تصرفه كملك".

لم يستطع إبراهيم الاحتمال، وقهقهة بصوت منخفض ما أمكن. إنّ تصرّفاً كهذا بحضرة السلطان قلة أدب كبيرة بالتأكيد. ولكن، ليس لديه مكان يهرب إليه في هذا المطعم المزدحم. كانت هذه القهقهة القوية تخفي شعوره بالراحة نتيجة تأجج الصراحة بينه وبين سليمان خان مجدداً: "ليمطر الله حياتكم بالخير والبركة يا سلطان سلاطيننا عالي الشأن... أسألكم العفو، من أين تعرفون هذا؟".

نظر السلطان إلى صديقه القديم مبتسماً، ثم تمتم بهدوء فيما التعب يبدو في عينيه الخضراوين: "اضحك يا إبراهيم، اضحك... اضحك

بقدر ما تستطيع، نحن هنا وحدنا. ليس بيننا فرق في هذه اللحظة. أما الجواب عن سؤالك فهو مخبأ لدى عدوك الأزلي وهيمـــي أورخـــون جلبـــي. سلمه الله لي، فالحيوية تدب في مخيلتي بفضل أخباره عن حياة إسطنبول".

حاول إبراهيم أن يضبط نفسه وهو يدس لقمة خبز الجلبان في فمه، ونجح وإن كان قد فعل ذلك بصعوبة. خرب مزاجه فور سماعه باســم وهيمي، وازداد خراباً عندما تحدث السلطان عن سوء علاقتهما. رمــى طعماً من أجل استدراج سلطان السلاطين بـــالكلام: "أعتقـــد - أنـــا محسوبكم - أننا إذا نشرنا شائعة عن محاولة اللاتينيين تحريض تمرد بـــين الأرثوذكس فسنكون موفقين يا سلطاني. الطائفة الأرثوذكسية حليفـــة متجذرة للعثمانيين منذ السلطان محمد الفاتح خان، وهي صادقة برفضها ضرب الدولة العلية في أثناء الحملة. ثم بإمكاننا أن ننشر شائعة بأن كارلو يسير بجيش كبير نحو إسطنبول، وسيمرر كل الأرثـــوذكس مـــن حـــد السيف قبل المسلمين من أجل إكمال ما لم يستطع الصليبيون إكماله".

بحسب طبيعته المؤانسة توقع إبراهيم أن يرفض سلطان السلاطين هذه الفكرة فوراً؛ لأن شائعة كهذه يمكن أن تحرض تمرداً مضاداً. وفي هذه الحال، لن يبقى هناك استقرار في بيت العـــرش أولاً ثم في الدولـــة كلها، وستتكاثر التمردات. ولكن الجواب الذي تلقاه الباشـــا كـــان مدهشاً بشكل لم يحسبه.

فقد أطلق سليمان خان قهقهة قوية وكأن دوره قد حان: "لقـــد فعلت هذا منذ زمن يا برغالي. منذ عشرة أيام والأفندیان عمر فهمـــي وأرطغرول يتابعان هذا الأمر".

أظهر إبراهيم استغراباً مصطنعاً على وجهه الأسمر الوســـيم. "في الحقيقة، إنه أمر حسنٌ لأنني عرفت أن لديهما عملاً غـــير مـــراقبتي.

تعرفون أن جماعة الجواسيس لا يُتركون من دون عمل. ولكـــن، مـــا التدبير الذي اتخذتموه إزاء مخاطر هذا الأمر يا سلطاننا؟".

تنهد السلطان بعمق، ودفع طاسه الذي فرغ، وقال بموقف موحٍ: "أحياناً يجب أن أتخذ بعض الإجراءات في السياسة الداخلية مـــن دون علمك. ولكن هذا لا ينطبق عليك، أليس كذلك يا إبراهيم؟".

حين أخذ إبراهيم نفساً مفاجئاً وهو يبتلع الحساء، ملأت حبـــات العدس المسحوقة أنفه وبلعومه، ولكنه نجح بألا يكح. لم يخرج صـــوته للحظة عندما أراد أن يتكلم، ثم قال بصوت منخفض وهـــو ينظـــف بلعومه وكأن شيئاً لم يكن: "لنُـــزِل بلية الصفويين هـــذه بـــإذن الله، وسيكون شارلكان في قبضتنا".

قال سليمان خان: "انظر يا إبـــراهيم، لا يمكـــن أن يكـــون الأرثوذكس زائغي العيون كالكاثوليك في هذا الموضوع. إذ لا تمحى من أذهانهم جروح الاحتلال اللاتيني في الحملة الصليبية الرابعة عام 1204، ولا يمكن أن تمحى. ولهذا، إنهم دائماً يفضلون الحماية الـــتي تؤمّنها الدولة. إنهم يخافون من مهاجمتهم بطريقة مفاجئـــة لحظـــة حصول تلك الفوضى، هل تفهم؟ هـــذه الحالـــة تتعلـــق بنفســـية الإنسان".

"ولكن مغامرة خطيرة كهذه...". وهز بيده بشكل خفيف. "يـــا سلطاني، أليست برأيكم مخاطرة كبيرة قليلاً؟".

قال سليمان خان: "لماذا يا إبراهيم؟". وشعر البرغالي من حركات جسمه بقلق لم يتوقعه: "كنت أتوقع أنك تفكر مثلي".

همس سليمان خان لوجه إبراهيم الظليل في مرآة ذهنه: *الرجـــل الذي لديه أسرار قبيحة رجل قلق دائماً. ما الذي تخفيه عني يا أخـــي؟ لماذا خفت من احتمال تحرّك الأرثوذكس؟*

غيّر السلطان الموضوع: "ستخرج غداً في حملة طويلة يا إبراهيم، وستنــزل مع جيشك في حلب، وتنظم أهل المنطقة، وتقوي الدفاعات طوال الطريق، وتحدد مخافر الإمداد بالعتاد والغــذاء المتقدمــة. وأنــا سأنطلق بعد أن ألتقي خير الدين، وأكلفه بالمهمة". توقــف للحظــة، وشعر إبراهيم فوراً بأن هنالك غرابة، ولكن الازدحام والصخب حوله غطّيا على ذهنه.

تابع سليمان خان: "أنت تعرف أنني لا أشــك بنجاحــك يــا إبراهيم. فأنا أثق كثيراً بتجربتك وذكائك وموهبتك، ولكنني لا أرتاح لانطلاقك كطليعي وحدك في هذه الحملة الكبيرة".

رفع إبراهيم رأسه باستغراب وقلق: "لا تقلقوا مــن أجلــي يــا سلطاني. بإذن الله...".

رفع سليمان خان يده مسكتاً البرغالي: "بقدر ما يُعتبر وزير ماليتنا إسكندر جلبــي عمود ماليتنا، بقدر ما لديه خبرة ومهارة في مثل هذا النوع من التنظيم. في الحقيقة، إنه متقدم بالسن، ولكن عقلــه جيــد. كلفتُه بمراجعة الأعمال كلها، وبأن يدعمك كلما وقعت بضيق، ويجد لك حلاً".

تمتم إبراهيم بسرعة وعلى وجهه الشاحب تعبير مهتزّ: "ألا تثقون بــي يا سلطاني؟".

"هذا الأمر لا يشبه قمع تمردات المتسكعين في مصر أو الأناضول يا إبراهيم. من المفيد أن يكون بجانبك شخص تطرق باب تجربته".

عندما فتح البرغالي فمه مجدداً، كان صوته يرتجــف بوضــوح: "إذا لجأت إلى عفوكم، وسألتكم عمن أوحى لكم بهذا... فبماذا تتفضلون؟".

"لا تغضب، ولا تتردد يا إبراهيم. هل تعتقد أنني لــن أدرك أن سؤالاً كهذا سيبرز في ذهنك ويقلقك؟".

"حاشاكم يا سيدي".

امتلأ صوت سلطان السلاطين الحار الآن بالصبر والود: "إن إرادتي أن يكون الأمر على هذا النحو".

"الأمر لسلطان سلاطيننا".

"ولكنني أعرف أنك لا تثق بابن آدم عموماً".

كان إبراهيم مطرقاً برأسه بيأس شديد ولم يرفعه، وسأل بصوت منخفض بحنان درويش: "ماذا يُتوقع من العبد غير هذا يا سلطاني؟".

أضاف سليمان خان وكأنه قرأ ما يدور في ذهن صديقه: "لا تُدخل حُرّم بهذا الأمر يا إبراهيم. أعرف أنني لا أستطيع تهدئة الحرب بينكما، ولكن اليوم هو يوم الوحدة يا أخي. البلد يغلي فتنة مثل مياه مرجل ولا يهدأ لحظة، ومع الأسف حتى قصري هكذا...". ارتخت كتفاه كشخص مصاب بمرض ميؤوس منه: "ولكن، كل هذه اللعنات بسبب ذنوبي أنا. إذا منح الله تعالى أحداً قوة فهذه ليست للا شيء يا إبراهيم. يُحاسب المسؤولون عن كل ما يحدث من الذرة إلى الكرة. جريمة سلطان السلاطين تحرق أمّته قبل أن تحرقه. بماذا سأجيب يوم الحشر على هذه الأمور يا إبراهيم؟".

تكلم البرغالي من دون أن يرفع رأسه: "لا تتكلموا هكذا يا سلطاني. إذا كان هناك مذنب سيحاسب في الدنيا أو الآخرة فهو أنا. لأن المساوئ الكثيرة لا يمكن أن تُزال من حولي من دون أن توسخني. ولكن عبدكم إبراهيم هذا يدخل بأنواع السفالات كلها لكي لا تُرى كنقاط ضعف الدولة العلية. لعل هذا هو الخطأ؛ وضع الخطأ أمام عيني بدلاً من إزالته. لأن الفساد الذي يهاجم مباشرة ينزل إلى تحت الأرض، ويصيب العضو كله بالغرغرينا كالالتهاب المتمدد تحت الجلد...".

هز سليمان خان رأسه بنعومة التسامح: "بيدك استمرار توفيقك بأساليبك نتيجة الحرية التي منحتك إياها يا إبراهيم. أعرف أنك تخوض نضالاً شرساً ضد الظالمين. في الواقع، كل شخص يلقى ما يستحقه. أنت ووهيمي تنزلان على أهل الفسق والفجور كسوط بيدي. يرغب القلب أن تكونا صديقين وحليفين، ولكن هذا ما أراده جناب الحق، ولا اعتراض على قدره...". وبدأ صمت قصير مع صوت المطر.

ارتعش السلطان قليلاً، برعشة خفيفة، وانتظر ابتعاد الأجير الذي يقدّم شراب ورد طازجاً بالعسل. "المهم في هذا الأمر أن إسكندر جلبي تحت أمرك. تجاوز الرجل الستين من عمره، وطبيعته لينة. غير هذا، لا يُتوقع منه أن يطمح إلى قيادة الجيوش. أُريدك الآن أن تركز على مهمتك فقط. لا تقلق، الألعاب التي تُحاك حولك لا تكفي لإخراجك من عيني... أنا منتبه إلى حد ما لما يحدث، وأتوقع منك احترام كلمتي يا أخي".

"على رأسي يا سلطاني. أنا موافق على كل حرف مما تقولونه. ولكن، يبدو لي أن هدف أصحاب الفكر المظلم الأساسي هو تحضير إسكندر جلبي ليحل محلي. أنا أبرئ السلطانة حُرّم، ولكنني أعتقد أن الأوساط صاحبة المصلحة من هذا الأمر تستهدف صداقتنا. هذا ما يقبض قلبي أساساً".

نظر سليمان خان إلى وجه إبراهيم الذي ما زال يبدو فتياً، وإلى لحيته الغزيرة، وعينيه الزرقاوين بزرقة البنفسج الجزائري وقال: "أريدك أن تبدي عناية خاصة بهذا الموضوع يا إبراهيم. أنت لم تحتل هذا المكان في قلبنا بمجاملاتك، بل بما فعلته ويمكنك أن تفعله". ثم تنهد سليمان خان بعمق: "هيا، هيا لنذهب يا أخي. أنت أيضاً اذهب لترتاح. إنّ طريقك طويل، ومهمتك صعبة جداً".

قال إبراهيم بتهذيب لا يقاوم: "سلطاني، هناك فسائلُ تبرز على حواف المنحدرات بين الصخور الحادة؛ تنمو باتجاه المنحدر لفترة، ولكنها تنتفض فور انتباهها إلى الوضع، وتبدأ بالمقاومة، وتنجح برفع رأسها نحو الأعلى في مواجهة الصعاب. لا بد للإنسان أن يُعجب بهذا النوع من الأشجار. إنها وحيدة، وثمة ريح باردة وسفوح ضبابية حولها، وفراغ جامد وامتداد لا حدود له فوقها... أنا أشبّهكم وأشبه نفسي بهذه الفسائل التي تتجاوز مصاعب لا تُعد ولا تحصى. ترعرع عبدكم على الإخلاص من المهد إلى اللحد، أما أنتم فسلطان حقيقي ووريث وحيد لجدكم الجبار الذي جابه العواصف الصعبة، وأثبت نفسه للعالم. ومع أننا لو لم نضرب جذوراً قوية في التربة الخفيفة بين تلك الصخور الحادة على ذلك الارتفاع، لتدحرجنا فوراً إلى تلك الهاوية التي تحتنا مباشرة، ولزلنا...".

"ما أصدق كلامك يا أخي!". كان صوت سلطان السلاطين قوياً ويمنح الثقة مثل درع برونزية. "لا تبدو هذه الكلمات محضرة من قبل، بل يبدو أنها تُنتزع من قلب قوي ومفعم بالمشاعر وتأتي".

تابع البرغالي تمتمته التي تُظهِر الكدر في رنة صوته: "على الرغم من كونكم مختارين فأنتم من البشر. وابتلى الله البشر بالنسيان. إذا أتاكم يوم أنساكم هذا الصدق فاسترحامي الوحيد لكم أن تتذكروا هذه الأمسية... نعم، أن تتذكروا هذه الأوقات الجميلة التي قضيناها في هذه النزهة. لأن هذه الدقائق الرائعة ستبقى حلية في ذهني حتى الممات؛ حديثكم، وضحككم، وأخوّتكم الرائعة هذه...".

مد سليمان خان يده، وأمسك كتف صديقه بأصابعه القوية. "يسمون هذا *يأس الحملة* يا إبراهيم. وهو يُرى لدى كل الجنود المحاربين. ويشبه مشكلة *المخاطر* لدى الصوفيين. فكلّما اقتربوا من الله

أكثر، داهمهم الخفقان المفاجئ. وفي لحظة غير متوقعة نهائياً يدخلون طريقاً مختلفاً تماماً تحت تأثير الهوى. وضعك يشبه هذه الحال. إنها ليست المرة الأولى التي نعيش فيها هذه اللحظات. لا تقلق، عندما ستقود الجيش غداً صباحاً، ستشعر أنك أفضل بكثير".

IV

21 تشرين الأول 1533

استيقظت صاحبة العزة ابنة السلطان سليم خان الجبار، والغالية شقيقة ركيزة الدنيا السلطان سليمان خان القانوني، وصاحبة العصمة حَرَم الصهر إبراهيم البرغالي المقبول السلطانة خديجة في تلك الليلة قبل أذان الفجر بعدة ساعات على كابوس مرعب. سيطر عليها شعور مذهل بالوحدة مفعم برائحة نوم يعكسها بقوة ليلٌ رمادي. كانت تشعر باليأس أكثر من حزن الفراق، وتتصبب عرقاً على الرغم من برودة الغرفة المحسوسة. ولكن تنفس إبراهيم المتوازن ساعدها على استعادة الهدوء. وقبل أن تعود إلى النوم تجلى الكابوس أمام عينيها مجدداً قطعة وراء قطعة؛ ولكنها لم تر أي كابوس أو حلم في الساعات التالية.

كان إبراهيم في غرفة سرية باردة وسط صواعد ونوازل مغارة عمرها ملايين السنين. كان زوجها مندفعاً بتحضير أنواعٍ من المركبات الساحرة وسط أنابيب زجاجية تنثر أضواء براقة كثيرة الألوان، وفتحات ينطلق منها دخان داكن، وموازين ماء تتأرجح كفّاها تلقائياً، وكرات زجاجية تقطر منها سوائل ملونة، وفوانيس وزجاجات على شكل بالونات مملوءة بسوائل عجيبة. كان متضايقاً، ثم فرح فجأة، وبدأ بإطلاق قهقهات أخافت السلطانة خديجة وجعلتها ترتعش رعباً. وعلى الرغم من محاولة

المرأة الشابة الانـــزواء في ظلال تلك الجدران العتيقة جداً إلا أن إبـــراهيم رآها. في تلك اللحظة، رأت السلطانة خديجة على وجه زوجها شيئاً مخيفاً يقطع الأنفاس لا تدري لماذا لم تنتبه إليه في البداية.

كان ثمة ثقب مظلم، حوافه متعرجة أسفل عيني إبراهيم الزرقاوين تحت الحاجبين الصقريين. انكمش بتعبير باكٍ والدم يسيل فوق شفتيه، ويتدفق إلى أنفه الذي يمسكه بيده باستغراب. التفت إلى خديجة مجدداً، وتحدث بصوت مخنوق يخرج من بلعومه: "لم أفهم يا خديجة، ســـقط فجأة...".

لم تتذكر السلطانة خديجة هذا الكابوس حتى ودعت زوجها. ففي أثناء خروج إبراهيم من البيت في الدقائق الأولى لغسل شمس الصـــباح الباحة بضوء خريفي أبيض مائل إلى الصفرة لا حياة فيه، ابتسم كمـــا يفعل دائماً، وقال: "أستودعك الله يا زهرتي البراقة!". ثم شـــد مقـــود الحصان موجهاً إيّاه. اختفى وجهه بستارة الشمس الضبابية. ودخـــل الحراس بين الزوج وزوجته بأجسادهم الضخمة البراقة أكثر من السماء مثل قلاع حديدية متحركة. في تلك الفترة الزمنية القصـــيرة، لفّـــت الحقيقةُ المختلفة السلطانة خديجة فجأة.

كاد أن يغمى عليها، وكأن جسمها الظريـــف انكمـــش تحـــت عباءتها الحريرية وشالها العجمي، وسروالها الحريري الذي يعلوه حـــزام ذو مرايا. انسحب دمها كله نحو معدتها، وخارت يـــداها ورجلاهـــا المتجمّدة. لأنه لم يكن لدى إبراهيم أنف. كما كـــان في كابوســـها تماماً... تعثر ذهنها عند ذلك الخط الرفيع بين الواقع والخيـــال. بعـــد ذلك، أنيرت نظراتها بألم لامع كالفضة، وفهمت أن ما عاشته نوع من المخاتلة. وفي تلك اللحظة، عضت لسانها نتيجة ذلك الخوف.

* * *

كسر سليمان خان العادات مرة أخرى، وركب المركب مع صديقه المقرب وقائد جيوشه إبراهيم باشا ورافقه إلى أسكودار ليودعه. انطلقا في سفر يضاهي الأحلام فوق أمواج زرقاء وتحت سماء باردة مغطاة بغيوم عاصفة مقطعة، وكأن حزناً غريباً عشش فيهما، فيما خيّم الصّمت خيّم عليهما في أثناء انـزلاقهما بين زوارق المراسم والحراس.

ذهبا معاً في الطرق الطينية إلى مقر قيادة إبراهيم باشا في "مالتبة". تجمّع أهالي القرى القريبة من شواطئ مرمرة يانعة الخضرة مغطين طرفي الطريق، وكادوا يدوسون بعضهم من أجل أن يروا سلطان السلاطين الذي يحكم العالم، وقائد جيوشه.

كان إبراهيم باشا كإمبراطور حقيقي بجيشه المؤلف من خمسين ألف فارس، وخمسة آلاف إنكشاري نخبوي، وعشرين ألف جندي نظامي، مع مئتي مدفع متنقل. وقد وصل إلى نقطة تقهر من لا يتحمل حراسه الخاصين، وخيمته الفخمة ومدخلها المفروش بالسجاد الحريري، وأركانه المتجمعين حوله. استقبله مساعد قائد الجيوش إسكندر جلبي بمراسم عسكرية. فرقة "المهتران" الموسيقية تضرب النوبة، وحلل الطعام تغلي، والجنود يستعرضون نماذج عن حرب الجبهة. بعد مشاهدة كل هذا من السرادق لعدة ساعات، وعندما كان الجو يظلم قليلاً فتحت الموائد، وقُدمت للجنود وليمة فخمة كآخر احتفال قبل الانطلاق بالحملة.

نـزل سليمان خان هناك على الرغم من أنه لم يخطط لهذا مسبقاً. وبينما كانت الأمطار تنهمر خارج النوافذ الصغيرة ذات السقيفات، جلس في خيمة إبراهيم الحمراء ذات الغرف المتصلة ببعضها بواسطة ممرّات ضيقة؛ كما كانا يفعلان أيام الشباب، وتحدثا حتى الصباح وهما ينظران إلى النار المشتعلة في الموقد. في الساعة الأولى

لتحول الليل إلى نهار، قال البرغالي بصوت لم يخفِ قلقه: "بربروس ليس جندياً بحرياً عظيماً فقط، بل إنه قائد يموت من أجله مقاتلو البحرية من دون أن يرف لهم جفن. ويُقال إنه يأسر القلوب فوراً بصراحته وجرأته".

هز السلطان رأسه ببطء، وأضاف على أسلوبه المتوازن في الكلام حباً عميقاً: "لم يبق من الإخوة إسحاق وأُرُوتش وإلياس وخضر سوى خضر بربروس، إنه أمانة لدينا. فقد ارتقوا جميعاً إلى مرتبة الشهادة، وكانوا مقاتلين طاهرين في حياتهم ومماتهم. والآن، سيقوم خضر بربروس مع قباطنة بحريته بالتجوال براية الإسلام على طريق القراصنة في شواطئ الأدرياتيك وإسبانيا وفرنسا. لقد أنقذوا إلى اليوم سبعين ألف أخ مسلم بربري أندلسي من ظلم الإسبان ونقلوهم إلى شمال أفريقيا. وما زالوا يمسحون الأرض بمكانة دوريا وصاحبه شارلكان. ولكن، لا تخرج هذا من عقلك يا إبراهيم، الدولة التي لا تحكم البحار، ضعيفة مهما امتلكت من قوة برية. وهذه هي مشكلتنا الأساسية. فمنذ فتح رودوس وأسطولنا نائم في ميناء غليبولو من دون تأثير. تجوب أساطيل البرتغال وإسبانيا، في بحار العالم، ونحن لا نستطيع أن نتجول سوى في شرق المتوسط. يجب أن ينتهي هذا. والشخص الذي يستطيع بإذن الله أن يعدّ بحرية تسيطر على البحار هو خضر بربروس باشا. كان المرحوم والدي أسد الدنيا يدعو له دائماً: *ريس خضر نصر الدين وخير الدين. لتكن رايتك منتصرة على أعدائك دائماً يا خير الدين*. حتى أنا كنت أناديه في أول تشريف له لبيت العرش خير *الدين*. خضر بربروس هو الريس الذي يعيش على *الخير* ويموت عليه يا إبراهيم. اعرف هذا جيداً".

شرد إبراهيم فيما كان يتأمّل الحطب المشتعل في الموقد الخزفي وهو يشعر بحرقة مزعجة غريبة في معدته. هذه الكلمات تكوي كبده

الآن بقضيب محمي في هذا اللهب. ولكن سليمان خان شعر بحاله، وقال مبتسماً ابتسامة ذات معنى: "خير يا إبراهيم؟ تبدو وكأنك لست مسروراً كثيراً من قدوم خير الدين باشا".

قال البرغالي مرتعداً: "لا يا سلطاني أبداً. أنا مسرور بالتأكيد. كل من يخدم هذه الأمة والدولة بإخلاص، فمكانه من دون شك فوق رؤوسنا". وعلى الرغم من كلمات التواضع هذه كلها، فإن التشنج المزعج في معدته لم يهدأ، بل ازداد متخذاً حالاً موترة للأعصاب. أصبح إبراهيم منتبهاً إلى أن مكانته تهتزّ تدريجياً بنظر سلطان السلاطين، وأنه لا يمكن أن يعود إلى مكانته السابقة بغير نجاح كبير، وعليه أن يسرع كثيراً.

انضم سيد سنجق بتلس شريف خان للصفويين ضد العثمانيين، وبجهود إبراهيم باشا ووهيمي الخبيثة الذكية، بايع عُلامة بيك وذو الفقار خان سيدا سنجقي أذربيجان وبغداد مع وحداتهما العسكرية العثمانيين، ولكنهما أبلغا أنهما لا يستطيعان مقاومة طهماسب لفترة طويلة. يستطيع إحالة عمل شريف خان لرجال عاديين مثل وهيمي ورجله الغر كمال، ولكنه يجب أن يُشعر بثقله ومكانته في المنطقة.

عند هذه النقطة، استطاع إبراهيم بذكائه الخارق أن يخفي بعض المعلومات التي توصل إليها جواسيسه عن السلطان. فقد وصلت علاقة التعاون التي بناها جوان دي باللي مؤسس طريقة سانت جين في رودوس منذ 1529 مستغلاً وجود وهيمي في ألمانيا حتى قبل ثلاثة أشهر بين طهماسب وشارلكان إلى طريق مسدود. مواقف شارلكان الفضفاضة وعدم مبالاته أحياناً تزعج الفارسيين، وتسبب أزمة ثقة كبيرة. من الواضح أن شعور شارلكان بالأمان الذي منحه إياه أندريا دوريا وأميرالات بحريته كان سبب هذا التصرف. ويبدو أن إمبراطور روما سئم من تغذية الشاه الشاب، والصرف عليه أكثر.

أقدم الشاه طهماسب بفعل نار الغضب والانكسار على خطوة لم يفكر فيها شارلكان، إذ أجج الفوضى في الأناضول لكي يتغلب على شعور قطعه في منتصف الطريق. كان الشاه يخشى غضب العثمانيين المحق، ولكنه يعرف أنه يجب أن يخرج القانوني عن طوره من أجل أن يجذب دعم شارلكان المطلق. ولكن إبراهيم يستطيع تصوّر وجه الشاه الشاب الزئبقي الشبيه بوجه والده وهو يتخبط بهذه الأفكار الدقيقة. لهذا السبب، سيكون أكثر المستفيدين من حملة بلاد فارس. وإذا تصرّف ببصيرة كافية فإنه سيغلق دفتر الدفتر دار إسكندر، ويمنع بربروس من ضرب جذور عميقة في عقل السلطان في آن واحد.

تشير المعلومات المخابراتية التي بين يديه إلى أن تبريز لن تقاوم. و لم يكن مخطئاً أيضاً. سينسحب طهماسب كما انسحب والده أمام السلطان سليم خان الجبار إلى قزوين، وبهذا سيحذر العثمانيون شارلكان أيضاً وبلغة حادة بأن هذه هي عاقبة من يعتمد عليه. والآن، سينزل الباشا باستعراض إلى أضنة عبر قونية في الطريق الجنوبي، ثم إلى حلب. وهنا نقطة الانكسار الأساسية. لأن القضية تتطلب إقناع سلطان السلاطين بأن جيشاً أقوى مما هو عليه قد تأسس في تبريز بدعم من شارلكان. لهذا فإنه في اللحظة الأخيرة سيتحرك وحيداً "مضحياً" باتجاه تبريز باسم حماية ولايات الأناضول الشرقية، والعشائر التركمانية والكردية. كان إبراهيم يثق بأنه إذا قابل السلطان بصفته "فاتح تبريز" فإن ممثلي بغداد المحليين سيبايعونه بسهولة بعد أن يخمد المقاومة الشيعية. وهكذا سيعودان إلى إسطنبول أحدهما فاتح تبريز والثاني فاتح بغداد، ويقويان رابط الأخوة بينهما.

ماذا لو لم تنزل السلطة الصفوية تماماً؟ لم يكن إبراهيم موافقاً على هذه الفكرة منذ البداية، ولكنه لم يظهر رأيه الحقيقي. إنه يتفهم مقاصد

سليمان خان بالتأكيد. دخل الخلاف المذهبي أيضاً بينه وبين إداريي هذه الجغرافيا التي لم يستطع أحد الطرفين حكمها منذ عهد أجدادهم، وكان هذا سبب مشاكل كبيرة دائماً. من الممكن ألا يستطيع تغيير إدارة دولة كهذه لديها جيش قوي وبنية دولة متجذرة في التاريخ وصاحبة كلمة في السياسة الدولية؛ ولكنه رأى منذ البداية أنه يستطيع أن يخرج رابحاً من هذا الأمر. إذ إنّ قوة الجيش العثماني الهائلة وما يمكن لهذا الجيش أن يفعله معروفان. ولكن، يجب على الصفويين تقبل حرب ميدان، وقد ارتكب الشاه إسماعيل هذا الخطأ مرة، وحُكم عليه بأن يُذكر بلقب *الخطّاء* طالما الدنيا موجودة.

بعد فترة قصيرة غطّا بنوم عميق على فراشين ممدودين؛ أحدهما بجوار الآخر عند نهاية الموقد الذي غدا الحطب فيه جمراً يطقطق. كانت ثمة ريح محمّلة برائحة الثلج، ومجمِّدة تجعل المرء يرى كوابيسَ في أثناء تيقظ الحراس. أحياناً، تتماوج خيام المحاربين البيضاء المثبتة بقوة في الأرض، والرايات الملونة، ورايات الفصائل بصخب حاد، وترتعد الحيوانات في الإسطبلات المتنقلة مما يجعل الجنود يستيقظون مرتعدين.

قبيل أذان الفجر مباشرة رأى إبراهيم باشا نفسه نائماً في قبر مفتوح. كانت تمتد فوق حواف القبر السوداء الكريهة سماء بيضاء كالحليب كما في لوحات رسام عصر النهضة هيرونيموس بوش المخيفة. كان يحرك يديه ورجليه، كما يحرك شفتيه مصدراً تمتمة لا يفهمها أحد حتى هو نفسه. حسنٌ، كيف حدث هذا؟ لا بد أن السبب تسمم طعامه. خطر بباله إسكندر جلبي فوراً، وقال لنفسه بقهر شديد: *لو أنني أسرعت. آه لو أنني أسرعت...*

كان ثمة مطر غزير يهطل في تلك الأثناء. دخلت قطرات المطر الكبيرة الباردة كالثلج معكرة الرؤية. وشعر بالاختناق نتيجة امتلاء فمه

منفرج الشفتين قليلاً وبلعومه بماء طيني. ثم ظهر سليمان خان فجأة فوق القبر. كان ينظر إلى صديقه إبراهيم وهو يبكي بشعور مدهش بالراحة والخلاص. لم يكن سليمان يسمح بأن يغرق صديق حياته على مدى سنين، ويذهب. لا يمكن أن يسمح بذلك... لا يمكن أن يسمح بهذا مهما حصل. ولكن سليمان خان كان واقفاً هكذا، ولا يساعد، ولا يبدو أنه ينوي المساعدة. ثم بنظرة لم يرها إبراهيم بعينيه الخضراوين من قبل قطّ، نظرة باردة كان يتحدث ويوجه حديثه نحو القبر: "الآن نحن متساويان. الآن أصبحنا متساويين يا برغالي...".

27 كانون الأول 1533

خرج سيد سادة الجزائر خضر بربروس باشا بأربعين مركباً ثقيلاً بكامل تجهيزاتها، وخمس سفن، وثلاث مدمرات لكل منها سبعون مدفعاً ومستودعان، وهاجم ميناء سجيليا في طريقه، وسيطر على أسطول إسباني صغير يتألف من ثماني عشرة قطعة، ثم رفع أشرعته باتجاه إسطنبول. رسا الأسطول السلطاني في ميناء نافارين جنوب غرب مورا بقيادة قبطان البحار أحمد باشا كمنكش الذي خرج لاستقباله. وصل خضر باشا بعد أسبوع من التاريخ المحدد. تلقى أندريا دوريا خبر وجود الأسطول الإمبراطوري في ميناء بريفيزة، فأمر بفتح الأشرعة، والهجوم عليه، ولكنه فور تلقيه خبر أن بربروس جاء إليه بهجوم كبير، فضل القبطان الجنفيزي المشهور الانسحاب، وإفراغ الميناء.

لم يكن خضر باشا على عجلة من أمره؛ لمعرفته أنه في النهاية سيخرج دورياً أمامه. كان واثقاً أن طريقه سيفتح تماماً بإذن الله بعد أن يستند إلى قوة الدولة العلية، ويحصل على الإمكانيات بشكل منتظم.

قام بمناورة استعراض قوة رجّف من خلالها الأرض والسماء أمام ميناء بريفيزة، ثم توجّه إلى نافارين.

استقبل الأسطول السلطاني المؤلف من مئة وخمسين قطعة من مختلف الأحجام بربروسَ في ميناء نافارين بمئة طلقة مدفعية. بدأت المدافع تُطلق على شرف بربروس قبل وصوله إلى الميناء بثلاثة أميال. هنالك جو احتفالي رائع بين مشاة البحرية. وعلى الرغم من اصطحاب أكبر أميرال عرفه العالم وسيعرفه خضر بربروس باشا الأسطول السلطاني وتشريفه بيت العرش، فإنه من النادر رؤية شعور بالسعادة إلى هذه الدرجة.

الفصل الخامس

أرض الرافدين*

* تاريخيًّا، في الفترة الممتدّة بين عامي 1534-1920، كان العراق مقسّماً إلى ثلاث ولايات عثمانية:

1- بغداد وتتألّف من ثلاثة ألوية (بغداد، كربلاء، الديوانية).

2- الموصل وضمّت كركوك وأربيل والسليمانية.

3- البصرة وتمتدّ من حدود ولاية بغداد. وهي تشمل الكويت وقطر والمنطقة الشرقية والبحرين.

I

"تولد الأفكار الكبيرة من قلب كبير

أكثر من ولادتها من ذكاء حاد."

ديستوفيسكي (المرأة الخرقاء)

27 أيلول 1534 – تبريز
سفوح جبال سهنت الغربية
مقر قيادة سليمان خان

نظر وهيمي أورخون جلبي إلى كمال بغضب مصطنع وهو يشعر بالسأم من سؤاله كل قليل: "بعد ذلك يا آغا؟ بعد ذلك؟". وكان انعكاس لهب النار المتأججة أمامهما على بشرته يظهره أكبر سناً مما هو عليه؛ وكأن الخطوط المتكسرة حول عينيه المغمومتين تظهره كشخص تجاوز السادسة والأربعين بكثير. نعم، كان يتعب، ويتعب كثيراً، وبدأت استراحاته تمتد لوقت أطول من السابق. كان يعترف لنفسه مكرهاً في أصباح بعض الأيام التي ينهض فيها متأخراً جداً بأنه تقدم بالسن. استنشق هواء الجبل المحمل برائحة الصخر الحاد والتراب، والهابط من المرتفعات الحادة شاكراً ربه. ولكن هذه البرودة المنعشة تشعره بارتخاء أكبر، وبالرغبة في النوم أكثر. التفت، وتململ على بطانية كان قد مدها تحته بعناية. هز رأسه إلى

الطرفين بقوة، وأنّب كمالاً قائلاً: "انتظر حتى نهاية الكلام يا ولد".

كان منتبهاً إلى أنّ غضبه غير مقنع. كانا طوال النهار يؤمنان سلامة أحمال الجيش المتقدم بصعوبة تحت الشمس الكاوية على طول وادي سهنت. اختنقا بغمامة الغبار التي أجّجها المشاة والفرسان وعربات المدافع، وسال العرق على وجهيهما المغطيين بطبقة قذرة صفراء تاركاً وراءه أثراً طينياً. وما زال لساناهما جافّين كاللباد، وفي حلقيهما طعم حثالة لم يقض عليها المسير الصعب بأي شكل.

اغتسل أورخون جلبي مع بعض الضباط الإنكشاريين فوراً عندما أخذ الجيش استراحة بجانب منبع شلال. فرك جسمه مرات عديدة بالصابون المعطّر والكيس، ودهن نفسه بروح الكافور، ورأى باستغراب أن طبقة من الأوساخ تنزل مع كل دلو ماء.

قال للغرناطي مجدداً مؤنباً: "لا أدري كيف ستكون جاسوساً جيداً بقلة صبرك هذه؟ تعرف أن عمر فهمي أفندي من رجال الهلال الخاصين، ويُعد مثل أخي. يبدو بديناً وحازماً، ولكنه سريع، ويشبه نمراً سينقضُ على عدوه في أيّ لحظة. لهذا السبب كان من حراس سلطان سلاطيننا الخاصين بإذن منه. أمره سلطاننا بكتابة ما يدور من حديث في ما بعد لمعرفته الجيدة بذاكرته المدهشة".

أمسك كمال معلمه من كتفيه وهزّه. كان قوياً إلى درجة أنه أجج النار التي أمامهما: "دعك من هذا الآن، واحك لي البقية يا وهيمي آغا! أكمل! أو تريد مني أن أسحب الكلام من فمك بالملقط!".

صرخ وهيمي وهو يشد جسمه المهتز كالشوال: "هس! بهدوء يا قليل الأدب! هل ستلقي بي إلى النار إذا لم أتكلم؟ استقبل سلطان

سلاطيننا خضر باشا وثمانية عشر قبطاناً ليقبلوا يده، ثم خاطب بربروس قائلاً: *كان والدي يناديك نصر الدين خير الدين. وأنا أعرفك خضر خير الدين باشا، وهكذا أناديك*. وبعد ذلك ألبسه ومن معه عباءات حريرية، وأهداه سيفاً مرصعاً بالجواهر، وخاتماً ذهبياً ذا حجر ألماس بحجم حبة جوز من صنع يده، وذهبيات إسبانية تبرق. ولكن خير الدين باشا لم يمد يده إلى النقود، بل لبس الخاتم، وقبل السيف، ورفعه إلى رأسه، ثم قال: *القرار لسلطان سلاطيننا، والتوفيق من ربي*. وكال السلطان مديحاً كثيراً للبحار الكبير الريس آيدن الذي يلقبه الإسبان *كاشة ديافوللو* أي *ضارب الشيطان*، والريس طورغوت الملقب *دراغوت*. وقدّم مدية طويلة للريس مراد لم تر العيون مثلها، ولم تسمع الآذان عنها.

قدّم خير الدين باشا لسليمان خان مئتي أسير مختارين حاملين على أكتافهم طيات قماش وأواني ذهبية وفضية، وثلاثين نبيلاً أوروبياً من رؤوس الفساد الذين كانوا يحملون أكياس الذهب ومربوطين من أكتافهم بشكل إشارة ضرب، ومئتي شاب وغلام أقوياء محملين بشوالات الذهب والفضة، ومئتي ولد سليمي البنية في رقابهم عقود لا تقدر بثمن، ومئتي فتاة من ألطف فتيات أوروبا ليكنّ جواري للحرم. ولم يكتف بهذا، بل أهداه قافلة من مئة جمل محملة بالحرير، ومجموعة من حيوانات أفريقيا الوحشية".

"رحماك يا آغا، هل هذا كله صحيح؟".

"بالتأكيد صحيح. يوافق الرجل الخاص أرطغرول أفندي على ما قاله عمر فهمي. اسمع أولاً؛ وافق خير الدين باشا بربروس على أن يكون قبطان البحار بحمد الله والثناء عليه. وطلب منه السلطان أن يذهب إلى حلب لأخذ تصديق إبراهيم باشا على أمره بتعيينه رسمياً

سيد سادة الجزائر، ويعود. وبهذا، يُري سلطان سلاطيننا بربروس الأولوية والقيمة الكبرى التي يعطيها لنديم قلبه، وكاتم أسراره إبراهيم باشا البرغالي. ركب خير الدين بربروس باشا حصان سباق، وانطلق من دون توقف، فكان في حلب بعد عشرة أيام. قبّل يد الباشا، وحصل منه على الموافقة، وبعد أن استضيف ليومين، عاد إلى إسطنبول مجدداً بأقصى سرعة ليصلها في عشرة أيام. هذا أمر لم يستطع إنجازه أمهر الفرسان. ولا تنس يا كمال أن الباشا كان قد بلغ في تلك الأثناء السبعين من عمره. حتى إن حضرة الباشا وجد وقتاً ليمر على قونية وبوصة في طريق عودته، وزار مرقد كلّ من مولانا جلال الدين الرومي، والسلطان أمير".

سأل كمال بصوت ناعم ينطلق من فمه المفتوح شبراً: "أرجوك يا آغا، هل كان دولة سيدنا الباشا من الذين يطوون الأمكنة؟".

"تعقل يا بني، أنا لا تدخل هذه الأمور عقلي. ولكن، بلطف جناب الحق الكثير من الأعمال المستحيلة تغدو سهلة يا غرناطي. هل هناك حدود لقوة الله؟ حاشا".

"حسنٌ، بماذا تحدّث خير الدين بربروس باشا وسلطاننا يا آغا؟".

"اسمع أولاً، تحدثا ليلاً ونهاراً بقضايا الدولة، والوجود الإسباني في البحر المتوسط. وأعطى سلطان السلاطين صلاحية كاملة لخير الدين بربروس باشا ليحد من سلطة الإسبان في غرب البحر المتوسط. واتفق الاثنان على أن انتباه الإسبان مشتت في هذه المرحلة نتيجة اضطرارهم للتقدم عسكرياً وتجارياً باتجاه المحيطات وشواطئ العالم الجديد.

ووُهب الباشا أربع عشرة دوقا ذهبية من دخل جزر ميديللي، وإيريبوظ، ورودوس. غير هذا، لقد بشره سليمان خان بأن مليون دوقا ذهبية موضوعة في الاحتياط جاهزة للاستخدام في أي وقت من أجل

نفقات الأسطول العاجلة. وأضاف: *أدر الجزائر مع من تشاء وكيفما تشاء. يكفي ألا يقع البربر في الفتنة التي يحرضهم عليها الجواسيس الإسبان. عملك الأهم هو التخلص من البلية أندريا دوريا، وبعدها اطلب مني ما تتمناه.* تجاوز حضرة الباشا حدود الأدب فور سماعه اسم الجنفيزي، وقال معترضاً: يا *سلطان سلاطيننا، أي كلب دوريا هذا لتذكروه على لسانكم المبارك؟*

ولكن بربروس باشا ندم على ما فعله، وتضايق كثيراً. وشعر وكأن جسمه الضخم قد تضاءل حيث هو. حاول أن يُخفي يديه الشبيهتين بالصخور القاسية الضخمة في ردني العباءة، وهو الذي لا يفقد هدوءه بأي شكل. ولكن سيدنا ابتسم ابتسامته المتوازنة والمنضبطة المعهودة، وقال: *أعرف اندفاعكم الانفعالي أنتم البحارة. وفي هذه الحال، أعطيكم الحق بالتأكيد يا باشا. لا تخجل من دون سبب.*

في اليوم التالي، هرع خير الدين بربروس باشا إلى حوض بناء السفن في الخليج مباشرة. وعلى الرغم من معلومات الباشا المسبقة، فقد غضب كثيراً حين رأى أن كبير مهندسي حوض بناء السفن الذي يعمل فيه عشرون ألف عامل كالنحل هو البندقي فرانسيسكو غيوستينيانو، وأغلب العمال من روم جزيرة المسكة وأسرى حرب. وقال لأركانه: *لا بد من تأسيس كادر خبير من المهندسين والعمال الأتراك.*

كان واضحاً أنه ليس في أوروبا حوض يستطيع إنزال عدد سفن مثل هذا، وفيه كل أنواع المعلمين المهرة. وعندما علم خير الدين أن البندقيين يطلبون السفن من حوض الخليج من أجل أسطولهم الرائع، امتقع وجه الباشا بحمرة الغضب.

كان خير الدين باشا يعرف أن الأسرى يعملون بعقود وأجر، وأن من يجمع النقود يصبح حراً باختيار العودة إلى بلده، ولكنه كان يحمل في داخله شيئاً من الشك نحو أولئك الأسرى بسبب عدم إيجاده فرصة للتكلم معهم. لأنه يستحيل فرض تطبيق كهذا على وجهاء البربر في منطقة حكمه. ومنذ يومه الأول هناك، جمع غالبية الأسرى، وأبلغهم أنه سيدفع لهم ثلث قيمة تحريرهم في حال عملوا بشكل منتج، وسيقبل من يرغب منهم في مشاة البحرية. هبت عاصفة فرح قوية تستحق الرؤية بين الأسرى الذين يعرفون الباشا. وكان حضرة الباشا يعتقد أنهم إذا انخرطوا بالعمل بشكل صادق، فسيكون من الممكن إنشاء أسطول شبيه بأسطول البندقية ويمكن تجهيزه خلال عام.

وفي أثناء الحديث في حلب، فتح مع إبراهيم باشا موضوع الفائدة من الذهاب إلى أمريكا، والتحرك في الوقت المناسب للحصول على أراضٍ واسعة هناك. ولكن الباشا لم يسمح بهذا. لم يكن خير الدين بربروس باشا موافقاً على فكرة أنه ليس لدى العثمانيين عمل في البحار البعيدة، ويكفي أن يقبضوا على البحر المتوسط وبحر الهند، ولكنه لم يضغط كثيراً لكي لا يبدو أنه يعاكسه في التفكير. كان سلطاننا يؤيد فكرة أمريكا، ولكنه متفق مع إبراهيم باشا بأنه ليس من الصحيح القيام بعمل كهذا قبل التحكم بالبحر المتوسط.

أبرز خير الدين باشا ببرودة جماعتنا من الأتراك في التجارة يوماً بعد يوم، وأنهم لهذا السبب لم يبنوا أسطولاً تجارياً ضخماً كما تفعل دول العالم، وصار لديهم تقصير يصعب تلافيه. ولكن سليمان خان شرح بهدوء أن هذه المقولة شائعة، ولكنها ليست صحيحة تماماً. وشرح تأثير التجار الأتراك واليهود من التابعية التركية على سوق البندقية، وحتى إن هذا التضامن التركي الموسوي قوي إلى درجة أنه

ضايق الطليان في الكثير من المرات. وتحدث عن مركزي بارغوزا وأنكونا التجاريين اللذين يديران التجارة لصالح العثمانيين متباهياً. وأضاف أن الأسواق الموسمية التي تنشأ على طريق بورصة، وأدرنة، وراغوزا، وأنكونا، وفلورانسا التجاري قد قويت إلى درجة أنها ستشل تجارة مشاة البحرية، وأن هذا الوضع ما زال مستمراً.

بالتأكيد، ليس هناك من لم يسمع بسيطرة محفل قونجاباش على موانئ البحر الأسود. وعرّج بأسى كبير على ضرورة ابتعاد الأتراك عن التجارة، لأن هذه ضرورة دينية، وفي الوقت نفسه تعطي التجارة فرصة لتغلغل فكر الفساد والجواسيس الصفويين في الأناضول.

ونبّه بربروس بشدة لكي يحافظ على عدم التدخل بأساطيل ملك فرنسا فرانسوا، وملك البندقية أندريا غريتي التجارية والعسكرية طالما أنها تحافظ على السلام. ثم قال له: *انظر يا خير الدين باشا، لا أحد يعرف أكثر منك أن البحرية أكثر أقسام الجيش إنفاقاً. إذ إنّ نفقة إدارة سفينة حربية والإشراف عليها اليوم ستة آلاف دوقا ذهبية في السنة وسطياً. ويتشكل أسطولنا النائم في غاليبولو والذي لا يفيد سوى بالتشريفات من مئتي سفينة حربية. ولهذا، إن نفقاته في السنة مليون ومئتا ألف دوقا. غير هذا، إن نفقات الحروب البرية تزداد باستمرار. وضرورة تأسيس المشاة المسلحين بأسلحة نارية ثقيلة، وتطويرهم، وسوق هؤلاء وإدارتهم بمثابة ضربة قوية إلى نظام رماة السهام ومستخدمي السيف والرمح من فرسان الأعطيات. ماليتنا قوية حالياً والحمد لله. وما زال لدينا فائض ميزانية بمتوسط خمسين مليون فضية سنوياً، وهذه تكفي للتخلص من المشاكل القائمة. ولكننا إذا لم نزد تأثيرنا على طرق التجارة في الفترة القادمة، فمن الممكن أن ينقلب كل شيء ضدنا بلحظة واحدة، نعم بلحظة واحدة. لهذا السبب، إن إزالة*

الحكم الصفوي، ونشاطك في غرب البحر المتوسط يحملان أهمية حياتية.

شرح خير الدين باشا بربروس لسلطاننا المعظم أنه لا مجال للقلق، وأنه سيبني سفناً حربية عظيمة بواسطة معلمين مهرة سيجلبهم من الجزائر، وأن هؤلاء سيدربون المعلمين الأتراك بالشكل اللائق، وستكون تلك السفن مؤثرة على طرق التجارة، وستؤمن نفقاتها بنفسها، وأضاف: *سلطاني، البندقيون قلقون من توترنا مع الإسبان مقابل علاقة تحالفنا القوي معهم. وفي حال حصول هزيمة عثمانية فإن قلاع شرق البحر المتوسط كلها ستقوى، وتستجر جنوداً بالسر. وقد فُرض على رهبان المنطقة دفع ضريبة ضخمة تصل إلى مئة ألف دوقا بإذن من البابا، وليس ثمة ما يشبه هذا في التاريخ القريب. برأيي، على البندقيين أن يخرجوا من تحت عباءتكم، وأن يضعوا أيديهم تحت الحجر. ميناء برشلونة دائماً ملجأ آمن لثلاثمئة سفينة تابعة للكافر دوريا. يستطيع دوريا أن يرفع أشرعة أسطوله المستعد في كل لحظة مع بحارته الخبراء نحو البحر المتوسط، ولكنه يتردد بمواجهتنا مباشرة. لهذا، إن حريقَ تكبره الذي نخره السوس يخمد مع الأيام. أذكركم مجدداً بأننا إذا أسسنا تحالفاً عسكرياً مباشراً مع البندقيين فسيوسّع آفاقنا. غير هذا، لا شك أنكم تعرفون صعوبة الوثوق بفرانسوا في هذه الظروف.*

قال سليمان خان ضاحكاً: *أنا أعرف من هو فرانسوا. إنه مؤسس سياسة أنا سرج على ظهر من يكون حماراً، ومطبقها. وهو يخاف من وجود الإسبان بجواره من جهة، ويقف قريباً منا ويلعب مختلف الألعاب من أجل اللحاق بقيادة العالم الكاثوليكي من جهة أخرى. ارتاح ملك إنكلترا هنري تيودور الثامن كثيراً منذ أن أعلن عام 939 تأسيسه حركة الأنكليكانية الإصلاحية، وانفصاله رسمياً عن كنيسة روما. لأن*

إنكلترا باعتبارها دولة جزيرة، ستكون صاحبة كلمة لا تقل أهمية عن كلمة الإسبان في البحار قبل مرور قرن إذا استمرت بالنمو بهذه السرعة. ولكن، يجب ألّا تدهشنا خشية فرنسا من إنكلترا لأن الإسبان يحرّضون الصراع بين النبلاء الفرنسيين بشكل مستمر. لهذا السبب، نحن نقف حذرين إزاء فرنسا.

ضحك خير الدين باشا وقال: *سلطان سلاطيننا العظيم، سمعت من بحارتنا أن أسطولنا بقيادة الريس محمد أراد الاقتراب من ميناء مرسيليا بسبب العاصفة في الشهر الماضي، فأطلقت مدافع السور طلقات تحذيرية لكي يبقى بعيداً. لا يمكنني وصف صعوبة هذا الأمر عليّ. يجب على فرانسوا أن يركع كل يوم ويدعو لكم لأنكم حررتموه من شارلكان.*

قال السلطان: *هذا زمن يفرض علينا إمساك وردة بيد وخنجر بيد. لا نستطيع بسهولة معرفة أيهما ستمتدّ أولاً ولمن يا خير الدين باشا. ولكننا نعرف عدونا جيداً*".

سأل كمال بانفعال: "بعد هذا لن يصمد في وجه العثمانيين أي شيء حتى روما، وليس قلعة فينا فقط، أليس كذلك؟".

"بلى بإذن الله. ولكن، على خير الدين بربروس باشا أن يُسرع يا كمال. نحن أقوى من السابق، ولكننا لسنا متفوقين كالسابق".

كان كمال ينتظر صامتاً وعيناه الزرقاوان طافحتان بالأسئلة.

"ما أود قوله يا بني هو أن العالم الغربي تخلّص من كل القيود التي تكبل ضميره. إذ يتكاثر عدد الرافضين للكنيسة الكاثوليكية والمنتقلين إلى البروتستانتية واثقين أنهم سيجدون فيها مجالاً أكبر للحركة بحرية. ولكن هذا لا يجعلهم أكثر تصوفاً وليونة بل على العكس، فهم يتصرفون بحرص أكبر، وبما يتناقض مع جوهر إيمانهم. إنهم بعيدون

فكرياً عن تأسيس مركز روحي، ووضع المبادئ في يد واحدة. إنهم يتحدثون عن إدارة ذاتية للكنائس. وفي هذه الحالة، سيطبّق كل كاهن تطبيقاً يناسب فكره وبنيته الروحية، ولن يستطيعوا تأسيس رقابة حقيقية، وهذا ما سيؤدي إلى تشتت كبير في العقيدة.

هل تصدق يا كمال أن البروتستانت يمارسون حرية كبيرة في ما بينهم؟ لم يتركوا إهانة لم يهينوا اليهود إيّاها لأنهم يقبضون فائدة تصل إلى ثلاثين أو أربعين بالمئة من الإنسان الأوروبي الواقع في أزمة، ويسرقون الناس باحتكارهم التجاري. بالمختصر، ليست لديهم ذرة تتوافق مع النصرانية.

قلقي الأساسي ينبع من هذه النقطة يا كمال، إذ إنّ بنية عقيدة نصفها من اليهودية ونصفها الآخر من المسيحية ستدفعهم ليكونوا أكثر أنانية وغدراً. والخطوات التي خطوها حول الفائدة أهم مؤشر على دنيويتهم. سيحل الظلم الاقتصادي البروتستانتي قبل أن يعود سيف الكاثوليك الملوث بالدم إلى غمده من الحملات الصليبية إلى شمال أفريقيا والأندلس وشواطئ أمريكا. لهذا السبب، على خير الدين باشا أن يسرع، ويحوّل الوجود العثماني في البحار إلى تفوق ساحق. يجب أن لا نكتفي بالبحر المتوسط والمحيط الهندي، بل أن نمد أيدينا إلى شواطئ العالم الجديد".

"أليست أولوية السياسة الخارجية العثمانية دعم البروتستانت من أجل تفتيت الكاثوليك يا وهيمي آغا؟".

"بلى، ولكن يبدو لي أن العثمانيين سيتخلون عن دعم البروتستانت في القريب العاجل. فمن يستطيع مواجهة ظلم من يحول عقائده يا كمال؟ غير هذا، قبل مرور زمن طويل ستدخل أوروبا حرباً داخلية كبيرة بسبب الخلاف المذهبي، وأخشى أن يخرج البروتستانت

من هذا الصراع أقوى طالما أن اليهود يدعمونهم. ثم إن الدمار الـــذي ستجلبه الحرب يعني بشكل طبيعي إعادة بناء القارة سياسياً واجتماعياً. من أين تعتقد أنهم سيجلبون التمويل لهذا؟ بالتأكيد ســتجد مجموعــة المرابين الأغنياء أوروبا كلها في يدها فجأة، وتشكلها من جديد، وكما تريد".

"هل تعتقد أنّ هذا الخلاف المذهبـــي بالنتيجة مؤامرة يا وهيمي آغا؟".

"لِمَ لا؟ مختصر الكلام أن القوة الاقتصادية مفتاح القوة السياسية يا كمال. ماذا نستطيع أن نقول؟ اللهم اجعل النيات خيراً، والعواقـــب خيراً".

فجأة، صدر دويّ يشبه الرعد، فنبّهه كمـــال قـــائلاً: "قرعـــت الطبول". رفع وهيمي رأسه، واستمع للحركة خارج الخيمة. نعـــم، في الحقيقة، كانت فرقة الموسيقى العسكرية تقرع الطبول. حينئذ فهم أنه حان موعد لقاء سلطان السلاطين والصدر الأعظم.

II

بتاريخ 19 آذار 1534 خرج سليمان خان القانوني بحملته الكبرى السادسة مجرداً سيفه اللامع، ومبهراً أعين الأصدقاء والأعـــداء بجـــيش مؤلف من مئتي ألف مقاتل. ولم يكن مسؤولو القنصـــليات الأجنبيـــة الذين نُصب لهم سرادق مزين ومغطى بالحرير يرفعون أعينهم عن هذه الفخامة، ومن بينهم.أمثال الكاتب الثاني في القنصلية الفرنسية جين بيير دو والناطق باسم القنصلية الإنكليزية وليام أليسون اللذين كانا يكتبان كل تفصيل من هذه المهابة بناءً على تنبيهات رؤسائهما.

أُمسكت ريش الكتابة حساسة الرؤوس، وأُخرجت رزم الأوراق المصقولة بالملح ورمل الصحراء من محافظها الجلدية، ووُضعت على خشبة حُفر خلفها تجويفان للركبتين تشبه المقارِئ. وملأت الأيدي الماهرة الأوراقَ بسرعة كتابة ورسماً للوجوه الدقيقة، وتكدّست الأوراق واحدة فوق الأخرى.

وكما سيروى في ما بعد للسلطان بشكل خاص، فإن مبعوث النمسا سباستيان فون فايكة اندمج بازدحام آلاف الناس المتجمهرين على طرفي الطريق في ذلك اليوم البارد والعاصف، وبدأ يصفق راسماً على شفتيه ابتسامة عريضة لحظة رؤيته سلطان السلاطين على صهوة حصانه البني، فارتطم ردن قميصه المزموم بطرف قبعته وأسقطها.

كان سليمان بسرواله الأبيض على حصانه الكحيل مختلفاً عن كل السلاطين الذين شهدهم العالم حتى ذلك اليوم وسيشهدهم لاحقاً. فقد وضع على رأسه لفة ضخمة عليها ريشة طاووس حمراء طويلة تعلوها ألماسة كبيرة، وكان يرتدي قميصاً مخملياً طويلاً مطرزاً بخيوط ذهبية صفراء وحمراء، يعلوه قفطان من فراء ثعلب أسود بأزرار ألماسية براقة. ودخلت ساقا سرواله الأسود الرفيعتان داخل جزمته الجلدية التي كانت من اللون نفسه، ولها مهمازان فولاذيان. ولكن العنصر الذي منحه تلك الفخامة أساساً كان مخبأ في مكان أبعد من هذه التفاصيل المشهدية. وهذا هو سبب تأثر المبعوثين الأجانب به أكثر عندما يقارنون بينه وبين شارلكان. لقد كان يستطيع حمل كل هذه العظمة في تواضع غير متوقع من خلال مواقفه المحملة بالسكينة.

* * *

كان سليمان يسير هذه المرة بجيش نخبوي تم اختياره من كل الولايات على أن تكون لديه قابلية للحركة في الظروف الجبلية. على

سبيل المثال، لم يتم اختيار حملة البلطات ذوي القمصان الصفراء والحمراء ذات الحواف المذهبة وذوي القبعات المخروطية والأسطوانية من الجنود الخاصين. إنهم فرسان لا أحد يعرفهم، وجوههم غريبة، وليسوا من الذين يقبضون رواتبهم كل ثلاثة أشهر. وكانوا يرتدون صدرات ويحملون رماحاً برّاقة ذات شرابات من شعر ذيل الحصان، وعلى ظهورهم دروع برونزية حُفرت عليها آيات قرآنية. هذا يعني أن سليمان خان يجري وراء أمر لا يمكن توقعه، وجريء إلى أبعد الحدود.

حاول سليمان المهيب أن يعبر المدن التي يمر بها كلها في ضوء النهار. وفي أثناء استماعه لهموم رعيته، وعمله على حل مشاكلها في مكانها، كان يتسلل إلى قلبه ألم ناتج عن شعوره بإلقاء الفقر مرساته في هذه المدن بسبب تغيير طريق التجارة. ولكن انطباعاته عن المدن الكبرى التي تشكّل كل واحدة منها جزءاً من أقوى أجزاء السلطنة في العالم منحته شعوراً بالسعادة من جديد. وطوال شهرين قضاهما في مدينة كُتاهية كان يرسل حراسه الخاصين مرتدين دروعهم إلى غابات الصنوبر في جبل مراد المشهورة بحجلها للصيد. وفي هذا الوقت، كان ينزل إلى الأسواق متنكراً بوجود وهيمي أورخون جلبي وعناصر الهلال من دون أن يشعر بهم أحد حتى من أقرب المقربين شاعراً بانفعال غريب.

وتمكّن من تحديد المجرمين المخربين الذين يعصفون بين الناس ويفرضون الإتاوات على أصحاب الدكاكين، والغشاشين المهرة الذين يتلاعبون بالموازين والمكاييل بشكل لا يمكن ملاحظته. ثم أرسل عناصر الهلال متحجري القلوب بزي الفلاحين لمراقبة من يساعد المجرمين. ومن تثبت عليهم المحكمة السيارة الجرم، كانوا يُعدمون عند السبيل ذي

الخزف وسط السوق بأمر من السلطان الذي كان يحافظ على صلابته، ولكنه في الليل يرتجف ويصارع الكوابيس حتى الصباح في خيمته السلطانية. في الحقيقة، كان هذا تمرد روحه المرهفة في صراعها ضد ظل والده الذي لا يغيب عنه. إلى متى سيتشتت مع تلك العاصفة المسماة *الجبار*، والتي لا تعرف الهدوء؟

أمر ذات صباح بإعطاء الأولوية لإصلاح الجامع الكبير العائد إلى عصر بيازيد الصاعقة لأن الرطوبة تغلغلت فيه من أعلاه إلى أسفله، وتساقطت زخارفه بسبب تشقق رصاص قبته من أوله إلى آخره. وبعد ذلك، أمر بالاعتكاف على إصلاح السقيفات التي تعزف حزناً عميقاً من دون غناء بأصوات القباقيب وخفقان أجنحة الحمام في الجوامع القديمة. وصار كبير البنائين علي العجمي وكبير المهندسين عبد المنان أوغلو على رأس عملهما مع معلمي البناء بقيادة المعماريّ سنان. وبدأت فعليات تأهيل كبيرة في كُتاهية عموماً؛ بدءاً من أقواس الجسور الضعيفة والمتصدعة من عدة أماكن، والتي تنقل الماء العذب النابع من الأعماق، إلى غرف الخانات والحمامات المتصدعة على مسافة يوم، مروراً بقباب المدارس الدينية البشعة التي نما العشب حولها.

بعد رحلة مريحة استمرت عشرين يوماً في جو صافٍ ودافئ تخللتها استراحات صيد وصلوا إلى قونية. وبينما كان سليمان خان يقبّل حافة المقام المزخرفة مصبباً الدموع، حوّل الأهالي المدينة الكبيرة إلى ساحة احتفال، وتناهى هديرهم إلى جدران المقام المغطاة بالخزف والقبة الخضراء. فتحت موائد عامرة بلحوم طرائد صيد منوعة مشوية، وصينيات طافحة بالأرز بالعصفر، وحلويات من كل الأنواع، ورتبت الألعاب بعد الطعام. عاش الناس فرحاً من الصعب أن يعيشوه مرة

أخرى في أماكن السكن الكبيرة والصغيرة التي يمر فيها الجيش. نـزلوا في هذا الموقع خمسة أيام.

وعند اقترابهم من قيصري التي كانوا سيقيمون فيها ثلاثة أيـام، صادفوا راهباً يعيش في كهف ساحة كنيسة أرمنية مهجـورة حيـاة انـزواء متواضعة. ولا يُعرف ما يأكله وما يشربه. كانت تفوح مـن لحيته الشائبة وألبسته التي لم تر الماء قط رائحة من الصـعب تحملـها. وحين سأله سليمان بلباقته المعهودة عما إذا كان يريد شيئاً، هزّ الراهب كتفه غير مبالٍ، ورفع عن رفّ طيني بجواره كتاباً جلده أصفر وأسـود من تأثير السنين القاسية، وصفحاته متصلبة كألواح الخشـب. وعلـى الجلد كُتبت كلمة تُقرأ بصعوبة: *نيكرونوميكون*.

سأل المسن مبتسماً بفمه الخالي من الأسنان: "هل تريد أنت شيئاً من ديار الظلمات يا سليمان؟". بعد صمت قصير، وقبل أن يمد وهيمي يده لأخذ الكتاب الذي تفوح منه رائحة سمك متفسخ، أمره السلطان: "قف! سنذهب من هنا!".

دخلوا سيواس في يوم بارد هطلت فيه الأمطار بشكل مخيف. وعلى الرغم من هذا، لن ينسى سليمان خان استقبال الشعب له بانفعال طوال حياته. وبعد أن قبّل حاكم سيواس أشرف بيك يد السلطان، قبّل يـده مبعوثو الشيباني الأوزبكيون، وتمنوا له القوة في مواجهة الصفويين. ألبس سلطان السلاطين مبعوث الشيباني علي أكبر عباءتين، وأرضى الآخـرين بمختلف الهدايا. ثم دعا لشعب الأوزبك كله الذي يقف سداً في وجـه حركة المغول في الشرق، والصفويين في الغرب، وطلب من المبعوثين أن يدعوا له ولجيشه. جلب وجود السلطان سروراً عظيماً إلى سيواس، فبقي في هذه المنطقة أيضاً فترة قصيرة، وتمت ملاحقة المجرمين، وبعد استتباب الأمن في المنطقة، سُرّعت أعمال البناء.

بعد سفر دام تسعة أيام، وصلوا إلى قصر أرزنجان مع المطر في العشرين من آب. مثُل أمامه في هذا الموقع مبعوثو شروان شاه خليل خان الثاني الأذربيجاني، وقدموا له احترامهم القلبي، وأبلغوه بولائهم غير المحدود. دعا سليمان خان لكل منهم، وأهداهم فراء سمور وسكاكين ضخمة وسيوفاً مرصعة بالمجوهرات. وبعد أسبوع، وصل إلى سهل *أرض روم*؛ المدينة القديمة التي كانت عظيمة بموقعها على طريق الحرير في زمن ما. كان الثلج قد انهمر فوق سفوح بلاندوكان، وباتت ظروف السفر أصعب.

ارتاح الجيش السلطاني أسبوعاً في أرض روم؛ وجاء مبعوثو إبراهيم باشا وأبلغوا السلطان أنّ قوات الطليعة ترزح تحت ضغط الصفويين، وأنها متضايقة جداً. فقرر سليمان خان الإسراع بعد هذه المرحلة. خطة إبراهيم باشا تُنفذ.

قطعوا سهول موش وبتلس في ثلاثة أيام من دون تمهل، ووصلوا إلى شاطئ بحيرة *وان* التي بقيت تحت السيطرة الصفوية لفترة قصيرة. ولكن الظروف الجوية ساءت كثيراً. إذ إن هطول المطر والثلج والفيضانات المستمرة، والمستنقعات التي جُرفت تربتها، ومياه السيل العميقة كانت تصعّب المسير. خرج كبير المهندسين الإنكشاري المعماري سنان بتحدٍّ وقال إنّه يستطيع بناء ثلاث سفن يمكن استخدامها بين شاطئي البحيرة حيث يتمترس الجيش من دون أن يغادر إلى أي مكان.

لم تغب عن الأذهان مهارة كبير المهندسين حين بنى جسراً متحركاً خلال تسعة أيام نقلت عبره أثقال الجيش كلها عناداً للناصحين بانتظار هدوء نهر *سافا* الذي غضب وفاض في أثناء حملة بلغراد، ونشاطه الذي لا مثيل له في عملية إعادة بناء رودوس. عرض

المعماري سنان المهارة نفسها مجدداً، ونجح بإنـــزال ثلاث سفن ضخمة إلى الماء خلال أسبوعين. وإثر النجاح العظيم الــذي أبـــداه في تلـــك الظروف، سُر سليمان خان كثيراً، مما جعله يُرّفع الإنكشاري سنان إلى أعلى رتبة؛ وهي *كبير المعماريين*. في الحقيقة، إن ذلك اليوم هو اليـــوم الذي لمع فيه نجم سنان إلى الأبد.

III

لاحق إبراهيم باشا مع جيشه مجموعة فرسان صفويين شوهدت في نواحي قزوين، وفتشهم ثم عاد إلى تبريز. في تلك الأثناء، خـــرج علامة بيك سيد سادة تبريز الذي عينه الباشا شخصياً غرب المدينـــة بميل مستقبلاً الجيش السلطاني، وقبّل يد السلطان، وعبّر عن حزنـــه الشديد لوفاة الوالدة المحترمة، وعزاه بها. كان التـــاريخ 27 أيلـــول 1534.

وصل إبراهيم باشا قبل انتهاء مراسم الاستقبال. كـــان طافحـــاً بشوق حار، وحازماً في صداقته الدائمة، ولكنه قلق جداً. كان يشـــعر بانقباض في قلبه نتيجة إحساس مبهم بأن هناك أمراً ما لا يسير جيـــداً منذ خروجه من إسطنبول. شعر بأن خديجة متضايقة من شيء مـــا لم تفصح عنه في رسائلها. إذ كانت زوجته الشابة تشدّد عليه لكي يكون حذراً إلى أقصى درجة، وهذا ما يقلق الباشا. هل تخفـــي عنـــه شـــيئاً يا ترى؟ وهناك هزيمة جبل قزلجا أيضاً... ما هذا التعكير؟ ولكن، أليس هو فاتح تبريز؟ فقد سيطر على تبريز في الأول من محرم قبـــل وصـــول السلطان... ألم يهرب الشاه طهماسب قبل أن يواجهه؟ ألـــيس هـــذا النجاح نجاحه؟ ألم يحضّر لكلّ هذا بعناية ودقة كبرى؟

كان لا يزال على صهوة حصانه العربي الأصيل يستعرض وحدات الجيش بمراسم تبهر العيون، وخلفه فرقة الحراسة الخاصة التي رفعت الراية الحمراء والبنفسجية مؤججة الغبار خلفها. وحين رأى حراس الخيمة السلطانية راية الباشا، عرفوها، وأفسحوا لها مجالاً في ساحة المراسم الواسعة. خيّم صمتٌ ثقيل على مركز القيادة في ذلك الوقت.

كان باب الخيمة السلطانية المصنوع من جلد وحيد القرن الأفريقي الأبيض المبطن بالجلد القاسي مغلقاً بإحكام. لم يُسرّ إبراهيم باشا من هذا. الآن، يمتد بهو صغير أمامه يلتهب تحت أشعة شمس المساء. بعده توجد غرفة العرش الغارقة بأضواء قناديل درجات حرارتها المتنوعة تتراقص مثل مغارة بحرية قضى فيها ساعات طويلة وسعيدة. في نهاية البهو، وبعد تجاوز الباشا مظلة الحرير والكتان الخام فوراً شعر بالمتعة والراحة المطلقة. فقد أججت هذه الفخامة المألوفة التي تؤطر أيامه القادمة شوقه إلى اللقاء.

إذ صفت الكتب التي لا يتركها الحاكم مطلقاً في مكتبة من خشب الجوز مزخرفة بزخارف هندسية على طول الجدار خلف العرش الواقع أمام عمود الوسط. أمامها طاولة مكتب من خشب كندي أحمر مزخرفة من الأمام زخرفة تدوّخ بدرجات الأصفر والأحمر، وبجانبها المقارِئ من الخشب الأحمر. ووراء الطاولة، يوجد كرسي مرتفع المسندين الجانبيين، وقد طُرّز على مسنده الخلفي المبطن بالبروكار شعار الدولة العثمانية. فيما تمتد المقاعد الطويلة المطرزة بخيوط الذهب والفضة إلى الزوايا السبع الأخرى. وتترك الشمعدانات فوقها انطباعاً بأنها تختلط مع الظلال الداكنة أكثر من إعطائها ضياء براقاً. لم يتخل إبراهيم قطّ عن تذكر الليالي التي قضاها حتى الصباح في الحديث بجانب الموقد

الموجود إلى يسار الغرفة الواسعة. شعر وكأن الحياة تـدب في تلـك الرسوم النباتية المرسومة على خزف الموقد مع شرر النـار، وتتحـرك بشكل خفيف جداً. شعر الباشا أن عينيه تدمعان.

كم هي مألوفة هذه الحصيرة واللباد والفراء الممدود فوق التراب الناعم المسوّى... وهذا المقعد العريض الموضـوع في الزاويـة الـيمنى العميقة والذي حفرت عليه مناظر الصيد يذكر بالمعلمين التركستانيين والفارسيين، وقد غُطّي بناموسية حريرية تتماوج بشكل خفيف وكأنها بحر معتدل. كم مرة راقبه إبراهيم وهو نائم هنا ويهتز كالأحلام.

مرت تلك الانعكاسات المشهدية لمنظر واحد في أوقات مختلفة في ذهنه. وانعقد حلقه بحس الفراق المفاجئ. أفرجت روائح المسك والعنبر المنبعثة من مباخر مصنوعة من حجر الكوارتز الشفاف ستارة السـنين بهدوء، ولم يستطع التحمل أكثر، فركع أمام ولي نعمته.

شعر بالسعادة لأن الحاكم مد يده بهدوء، وداعب شـعره. قـال إبراهيم باشا لنفسه وبلعومه مسدود: *كما في الماضي*. وبعد أن نهـض قال: "بداية، أريد أن أعزيكم يا سلطاني"، وعقد ذراعيه أمام العـرش المرصع مباشرة.

كان سليمان خان مرتدياً درعَ حبكة، وسيفُه مسلول من غمده وموضوع بالقرب منه لتطوله يده كما يفعل في كل غـزوة، ولكنـه جالس وهو يفكر. كان إبراهيم يعرف جيداً كيـف يسـيطر علـى الكلمات، ويخيفه جداً قول ما لا معنى له أمام الناس الذين فقدوا قريباً لهم. نظّف بلعومه بشكل خفيف، وتابع قـائلاً: "عرفـت أن الحـزن غمركم بوفاة حضرة السلطانة والدتكم دولة حفصة عاليـة الشـأن وصاحبة العصمة بعد أن ودعتني بخمسة أشهر، في يوم الخميس الموافق الرابع من رمضان، وبوفاة العالم الكبير والولي شيخ الإسلام كمال باشا

زادة الذي كان المرحوم سليم خان أيضاً يعزه ويحبه قبل مرور شهر في يوم خميس حزين أيضاً وافق الثاني من شوال. نحن هنا لم نعرف ما الذي يمكن أن نفعله نتيجة حزننا يا سلطان سلاطيني".

نهض سليمان خان عن العرش الذي تلمع كل جوهرة مرصعة عليه بلون وكأنها كائن مستقل، وهرع الخدم البيض لرفع المِقرَأ الذي أمامه باحترام.

"حمداً لله على سلامتك يا إبراهيم". وأمسك السلطانُ البرغالي من كتفيه بمودة. ولكنه لم يعانقه كما يفعل عادةً. حينئذ ارتعش ظهر إبراهيم الذي يتصبّب عرقاً في برودة ليلة الخريف. قال لنفسه: "إنه يعرف. لم يضع هذه المسافة بيننا نتيجة حزنه وهمّه فقط. فقد جاء وهيمي ورجاله إلى هنا قبل شهر، وعرفوا أنني وقعت الأوامر الموجهة إلى حاكم بغداد ذو الفقار خان بصفة *السلطان قائد الجيوش*، وأبلغوا السلطان بذلك. ولكن كيف؟

يبدو لي أنني أخطأت بالإصغاء لكلام علامة باشا. كان الباشا محقاً بتوقعه أن تربط بتلس ونواحيها به بعد أن سيطر عليها بأمري. ولكن تركي بتلس لشمس الدين بيك، ابن الخائن شرف خان الذي أمرت بخنقه كان أفضل بكثير. لأنه الرجل الأنسب من أجل التصالح مع عشائر الكرد الأخرى في المنطقة. بايعتنا قلاع أرجيش وعادل جواز وأخلاط من دون حرب. ولكن، لماذا لا تكفي علامة باشا سيادة أسياد تبريز؟ فقد أمسك بي، وقال: *إذا كان شاه العجم يخاطب السادة لديه بلقب سلاطين، فهل كثير على كبير وزراء سلطان السلاطين العثمانيين لقب سلطان؟* وهذا ما جعل دمي يغلي، وحرّضني. لقد تهوّرت. نبهني إسكندر جلبي مرات عديدة حول نتائج تصرف كهذا، ولكنني لم أسمع منه. أعرف أنه غضب مني كثيراً بسبب هذا

الموضوع. فعدم أخذ تنبيه من عيَّنه حضرة الحاكم مساعداً لي بعين الاعتبار يتعارض مع تقاليد الدولة العثمانية القديمة. ستجعل السلطانة حُرّم فضيحتي مجلجلة إذا سُمع بهذا الأمر في إسطنبول... في الواقع، لقد أعلنت سيطرتها على الحرم بعد وفاة السلطانة حفصة وذهاب السلطانة ماهدة فران مع الأمير العظيم إلى صاروخان. وغدت الخاتون غولفم مجرد ظل تعيش لا تأثير له في الحرم بعد وفاة الأمير مراد خان بمرض الزهري.

غير هذا، ما الذي يعنيه أن يمنح سلطان السلاطين موظف الإسطبل الشاب رستم جلبي رتبة باشا ويعينه سيد سنجق ديار بكر من دون أن يأخذ رأيي؟ أطعم السائس رستم خيول حُرّم من كيسه الكثير من المأكولات، وسقاها ماء بالعسل على أمل ميؤوس منه. كان يسهر حتى الصباح بجانب الفرس الحامل، ولا يدعها للسائسين العاديين. وكان يعتني بفرس السلطانة حُرّم *لالة زار* كعينه. وها هو قد قبض الثمن، فتحوّل من مجرد سائس عادي إلى الجلوس على مقعد الباشوية. في الحقيقة إنه جاهل، ولكن يبدو عليه التحفز السافل الناجم عن الجهل. فهو يطبق الأوامر التي يتلقاها من دون شبهة أو شك. إنه دمية حقيقية تلعب بها حُرّم بكل معنى الكلمة. آه يا حاكم العالم! كيف يسمع شهم مثلك لم ير العالم له مثيلاً من امرأة؟

حسنٌ، بماذا سأجيب حول كارثة جبل قزلجا عندما يسألني سلطاني؟ صعد علامة هذا الذي رفعته من بيك إلى باشا إلى مقامي برفقة مساعدي إسكندر جلبي من أجل القضاء على مخفر صفوي في المنطقة يمكن أن يتسلل خلف الجيش ويتسبب بمشاكل كبيرة. لقد أقنعني بمهارة أن الأمر سيكون سهلاً جداً. نعم، سمعت من إسكندر جلبي وعلامة باشا في هذه القضية المهمة جداً. ولكن علامة خرج

بعشرة آلاف رجل آملاً بتحقيق نصر أكيد، و لم يعد سوى بمئتي رجل. الذين أنقذوا هم حراسه الخاصّون؛ من قبيلته. ما روي لا يُصدَّق، وقلبي لا يقبل فكرة أن محارباً كعلامة لديه تجربة يمكن أن يقع في أخطاء كهذه.

ولكن، حسب ما عرفت في ما بعد، فإن سفح جبل قزلجا موقع مناسب جداً للدفاع بالنسبة للعدو. لأنه لم يكن هناك سوى درب واحد للصعود نحو الأعلى، وذاك الدرب ضيق. أهلك علامة باشا جنودنا في ذاك الطريق، ولكنني أنا من سيدفع الحساب الآن. فإذا لم يكن إدخال الجنود في مجموعات تتألف كل منها من ألف جندي يصطفون مثنى في طريق كهذا دفعاً نحو كمين قاتل، فماذا يكون؟ مثلاً، كان من الممكن العبور بمجموعات تتألف الواحدة من مئة جندي بشكل محتاط. ولكنه لكي لا يُفقد الحملة عنصر المفاجأة، دفع بالجنود كلهم إلى ذلك المعبر، واستطاع الخروج بصعوبة عندما بدأت الصخور تتدحرج على المقاتلين الشجعان، ووجدوا أنهم محاصرون من الجانبين". فجأة، لمع البرق في عقل إبراهيم باشا. ولكن هذه الفكرة *خام* لأنه لم يتخلص من تشوش عقله بعد.

* * *

قال سليمان خان بصوت مرتفع قليلاً وهو مبتسم بتهذيب كما هو حاله دائماً حين انتبه لشرود إبراهيم: "قبل أن تأتي يا إبراهيم، كنت أفكر بوالدتي، وأقرأ الآية 151 من سورة الأنعام". كان يرتدي رداء مخملياً ثقيلاً أسودَ يغطي الدرع. ثم بدأ يقرأ بعربية فصيحة: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

في تلك اللحظة، تأججت رغبة البرغالي برؤية والديه التي أجلها طويلاً. وصمم على جلب عائلته التي بقيت بعيدة عنه، وعلى أن يرسل لها مختلف الهدايا القيمة والرسائل فور عودته إلى إسطنبول. شعر بشوق كبير ليس له أي تفسير منطقي.

"لا أستطيع شرح مدى حزني يا سيدي. المرحومة السلطانة حفصة جعل الله مثواها الجنة دعمت محسوبكم دائماً، ورعته كابنها. لن أحزن إلى هذه الدرجة لو فقدت أمي. غفر الله لها".

هز سليمان خان رأسه بشكل خفيف، وقال: "آمين!". ثم بدأ يشرح بصوت خفيف على الرغم من أن عينيه ما زالتا تنظران إلى الأرض. "كانت أمي في الخامسة والخمسين من عمرها. لم تكن لديها مشكلة صحية جدية. في ذلك المساء، أفطرنا في غرفتي الخاصة كأم وابنها. كان هناك ضوء زهري يشبه عصير توت الأرض الذي كان يسيل من بين أصابعي عندما كنت أجمعه من حديقة القصر وأنا صغير. كان يتدفق إلى الغرفة وكأنه نهر... تحدثنا عن الماضي يا إبراهيم... كنا - أمي وأنا - نتحدث في ليالي رمضان عن أبي أحياناً".

"أنا أيضاً شهدت بعض هذه الأحاديث يا سلطاني".

"بلى. قبل أن أخرج إلى صلاة التراويح اشتكت من نوبة ألم شديد كتلك النوبات المستمرة معها منذ زمن طويل، وأرادت مراجعة كبير الأطباء. أنت تعرف، عندما تبدأ تلك الآلام فهي تستمر أسبوعاً في مواسم معينة، حتى إن والدتي كانت تنزف من أنفها أحياناً. وكان رئيس الأطباء يعطيها علكة الأفيون لتمضغها، أو يضع علقاً على صدغيها، أو يغلي أعشاباً طبية لتستنشقها؛ بالنتيجة فهي أمور معروفة. هدأت الآلام بالأساليب نفسها في ذلك المساء أثناء وجودي في الجامع، ولكن مشرفة الخدم لدى أمي وجدتها متصلبة في فراشها عندما أرادت

إيقاظها صباحاً...". أخذ سليمان خان نفساً طويلاً، وخرج أنينه الحاد من أعماق رئتيه، ثم تابع: "كان ينبغي لي أن آخذ المرض بجدية أكبر يا إبراهيم. صرت أثق بأن القريبين منا هم أقل من يحظى باهتمامنا. كم هذا مؤلم...".

فجأة، سأل إبراهيم بموهبته الفريدة سؤالاً رجّف قلب سليمان خان: "هل تحدثتما في تلك الليلة عن المرحوم سليم خان يا سلطاني؟".

لم يستطع سليمان خان إخفاء ارتجاف شفتيه. تنفس بشكل مريح أكثر، وأفلت نفسه لذكريات تشبه الماء الفاتر المعطر. "كانت تهبّ من الحديقة نسمة ربيعية محمّلة برائحة المطر في ذلك المساء يا إبراهيم. وكانت السماء تظلم ببطء. أتذكر غيوماً فضية. كنت أشعر بأني أكثر سعادة عندما أنظر إليها. حدثتني والدتي عن أيام شبابها الأولى في قصر جدي غيراي خان منغلي، وعن انفعالها في الأسابيع الأولى بعد اتخاذ القرار بتزويجها من والدي... وأخبرتني عن انطلاقها في الطريق بالجهاز الذي تحمله قافلة جمال يبرق ريش زينتها المحنّى في ضوء الجمر، وعن السفن الشراعية المزينة كالعرائس، والولائم الكبيرة التي حضرتها بنات النبلاء الروس الصاخبات والمسرورات، وزوجات المبعوثين العثمانيين اللواتي يفرضن احترامهن الشديد نتيجة تربيتهنّ عالية المستوى...". لمعت ابتسامة خفيفة على وجهه الشارد الحزين. "قبل أن أتركها بزمن قصير، سألتها للمرة الأخيرة عن والدي من دون أن أنتبه. قلت لها: احكي لي يا أمي، بماذا كان والدي يفكر؟ ما الذي كان في أعماق قلبه؟ كيف كان يصارع بلية السلطنة هذه؟

فضحكت والدتي بمتعة، وغاصت في بئر ذكرياتها، وغابت يا إبراهيم. بعد فترة طويلة، قالت بعينين رطبتين: *كان والدك رجلاً حاد المزاج. ولكنه واثق بأن هذا ضروري من أجل مصلحة شعبه، وأن*

أي تساهل في شؤون الدولة سيرتد ظلماً على الرعية. ولكنه كان يشعر بوحدة لا تنتهي، ولم يستطع تجاوزها في أي وقت بسبب حساسيته المفعمة بالأسرار وقسوته التي لا ترحم. ولكنه كان سعيداً بكتبه وسجادة الصلاة الخاصة به يا سليماني. لم يكن يشعر بالحاجة لأحد. حتى لي..." صمت سليمان خان بسحر الكلمات التي كانت لا تزال تطن في أذنه. أنهى والداه مرحلتهما، وخرجا بسلام من المشهد القذر لهذا الوطن الحزين. ولكن، ماذا عن هذه البرودة في قلبه... وهذه القشعريرة...

فجأة، غيّر الموضوع: "برأيك، ألم يأخذ طهماسب شيئاً من جرأة والده يا إبراهيم؟".

كان البرغالي مدركاً أنه لا يستطيع تجاوز آلام كبيرة كهذه إلا بانهماكه بالعمل. ثم من يمكنه أن يعرف هذا أكثر من عبد؟ قال وإيقاع قلبه يتسارع: "لقد انسحب يا سلطاني إلى قزوين التي اتخذها مقرًّا للعرش، ولم يُظهر جرأة للخروج أمامنا".

"حسنٌ، كيف بإمكاننا أن ننهي حكم سلالة الصفويين إذا لم يقترب الشاه لمواجهتنا؟ وكيف نرسي حكمنا في المنطقة يا إبراهيم؟ أليس هذا أول أهداف حملتنا؟".

"سنقوم بالتعيينات اللازمة، وسنكسب قلوب وجهاء المنطقة وأهلها حالياً يا سلطاني".

هز سليمان رأسه إلى الجانبين بمعنى النفي، وقال: "لا نستطيع فعل ذلك يا إبراهيم... لا نستطيع يا أخي. الشعب يفكر بسلامته، وفور انسحابنا سيتبع الشاه، ولا أحد يستطيع إدانته بهذا التصرف. ولا بد للإداريين المحرومين من دعم الشعب أن يبايعوا الشاه. هكذا تسير الأمور يا إبراهيم. جده الشاه إسماعيل عرض شرف مواجهة أبي،

وشهد على قوة العثمانيين. الملك كارلو ناصح طهماسب سيمنعه بالتأكيد من مواجهتنا، لأن الاثنين يدركان أننا لن نستطيع البقاء طويلاً في جغرافية صعبة كهذه، وأننا في النهاية سنقفل راجعين. وليس بالإمكان اعتبارهما غير محقين. إذا حاولنا الولوج إلى الأجزاء الداخلية، فسينقطع ارتباط الجيش بما خلّفه، وسنخسر قوتنا كلها في الأراضي الجبلية والممرات الضيقة والكهوف. فوق هذا، سيستمر هو بالتراجع. لننتظر مرور بعض الوقت حالياً يا أخي. إذا أعطانا الله تعالى عمراً فسنهاجم الشاه في الربيع".

"إن استفززناه كثيراً، فلن يحتمل حينئذ...".

"الزمن يتغير يا إبراهيم. إذا بصقت بوجه ابن آدم، فسيقول هذا مطر، ويمشي. هل تركنا إهانة لم نهن بها ابن الصفويين في رسائلنا؟ ماذا تغيّر؟ لا شيء... لأن طهماسب عزم أن يكون رجل حساب مثل كارلو، وليس رجل قلب مثل والده. نعم، إنه يرعى أهل الفن والعلم. أصلاً لا بد لسلطان يدعي أنه يرفع راية الإسلام من أن يفعل هذا. ولكن، ماذا عن الشهامة؟ ماذا عن الجرأة والكرامة؟ يبدو لي أن عصرنا يمضي يا إبراهيم". وأشار نحو الخارج عبر النافذة: "انظر، لا يوجد مثل جبال بلاد فارس الحادة هذه لإخفاء المخافر الكثيرة يا أخي. لم تؤد حركتنا حتى الآن سوى إلى دعم قواتنا في المناطق الحدودية وعلى رأسها تبريز. أنا قلق من الاستهتار بطهماسب لأنه فتي. انظر، يبدو أن الشاب الصفوي حذرٌ أكثر مما توقعنا...". نظر إلى البرغالي نظرة سأم وتابع: "هدفنا الآن بغداد يا أخي. ولكن، بداية أريد منك أن تقدم لي تفسيراً معقولاً لكارثة جبل قزلجا يا إبراهيم".

تحوّل قلق الباشا من مواجهة السؤال باكراً جداً إلى خوف، وغُرز في صدره كالرمح. لم يهنئه سليمان خان على فتح تبريز بعد. حباً بالله،

هل يعرف السلطان بكل تلك الخطط التي أخفاها بمهارة كبرى؟ بدأ الكلام مسرعاً وهو يحاول إخفاء توتره: "عملت بمشورة إسكندر جلبي الذي عينتموه مساعداً لي يا سيدي، وهناك أيضاً بالتأكيد علامة باشا الذي يشحذ أسنانه لي شخصياً بسبب إعطائي بتلس لشمس الدين بيك. ومع الأسف، لقد فشلا...". صمت لحظة، ونظر إلى جزمتة اللامعة. ثم أضاف بهدوء: "مسؤولية هذا الأمر تقع عليّ بالتأكيد. ولكن، يبدو أن هناك ما هو أكثر من هذا".

سأل سلطان السلاطين بحدة: "مثل ماذا؟".

"أعتقد أن وهيمي تردد بين إسكندر جلبي وعلامة باشا كثيراً من أجل تحويل هذا الأمر ضدي يا سلطاني".

نظر السلطان إلى وجه البرغالي متردداً: "ما الذي تعنيه بقولك هذا؟".

"جاء إلى هنا قبلكم...".

"أنا أرسلته يا إبراهيم. هل تشك بي أيضاً؟".

خشي البرغالي أن يتحول مجرى الحديث فجأة. وحين قال: "حاشاكم يا سلطان سلاطيننا". التصق لسانه بسقف حلقه وكأنه فَقَدَ قدرته على الكلام. ثم قال بابتسامة خجولة مظهراً تعرّضه للغدر، وشارحاً شكوكه: "يا حاكم العالم، وهيمي حرّض إسكندر جلبي وعلامة باشا على عملية جبل قزلجا. علامة يعرف المنطقة جيداً، ولكن رغبة الانتقام تكمن وراء عدم تنبيهه لي، إضافة إلى وجود من شجّعه على هذه الهزيمة".

"هل أرسلت وهيمي إلى المنطقة قبل الحملة؟".

لم يجب إبراهيم.

زأر سلطان السلاطين قائلاً: "سألتك سؤالاً يا إبراهيم".

"لا يا سيدي. بدا لي أن المعلومات التي قدمها لي علامة باشا كافية. فقد شجعني بقوله إن مأوى الشيعة الأساسي في هذه الديار هو جبل قزلجا، وإن دخول الجبل بالقليل من الجنود، والقضاء على المأوى أمر سهل. وانزوى عند رأس نبع أول الشق الجبلي، ودفع المقاتلين إلى الطريق وهو يقول: *بدءاً من هنا يوجد بلد جميل جداً. اذهبوا أنتم، وانهبوا على مزاجكم، وأنا سأراقب من هنا*. فقد حسب أنه بذلك يثأر مني في قضية بتلس يا حاكم العالم. ولكن، لا يمكن أن يكون قد أقدم على هذا الأمر وحده. بالتأكيد هناك من نصحه وشجعه".

زأر السلطان بصوت أجش: "أنت لا تثق بوهيمي". ضربتْ حمرة الغضب بشرته البيضاء، وامتزجت خضرة عينيه بخضرة البحر النفطية العميقة. "لم تبالِ بإسكندر جلبي، وجعلت الرجل المدعو علامة باشا، وأرسلت معه عشرة آلاف من مقاتلينا إلى الهلاك في الممرات الضيقة...".

"سلطاني...".

"اسكت! اسمع يا إبراهيم! بإمكاني أن أقطع رأس الكلب المدعو علامة، ورأسي إسكندر ووهيمي إن كانا قد سانداه. ولكن توازنات المنطقة حساسة جداً. إن التحاق شخص مثل علامة قدَّم خدمات جليلة من قبل للشاه، وله مكانته في المنطقة، وتعيينه سيد سادة تبريز تصرف جيد، ويحمل أهمية كبرى. ولكن أخذ رأسه الآن سيهز موقفنا هنا أكثر مما هو مهتز أصلاً.

أنا أدينك بسبب سوء معاملتك يا إبراهيم وليس بسبب إجراءاتك. ماكرو الشرق أمثال علامة يريدون التقدير دائماً. وبرأيي، إنّ تركك بتلس لشمس الدين بيك ابن الخائن شرف خان تصرف موفق، ولكن ضعفك يكمن بإدارتك علاقتك مع من حولك. أشعِر الإداريين المحليين بتفوقك، ولكن لا تضغط عليهم. إذ إنّ أجسامهم

منـــزلقة مثل السمك. فهم ينـــزلقون بلحظة، ويصبحون مفترسين مثل الحيوانات المفترسة الجريحة".

"سلطاني، لقد منحت الكلب المدعو علامة سيادة سادة تبريز، فماذا يريد أكثر؟".

"إنه يعرف يا إبراهيم أننا لن نبقى هنا، فلن نستطيع البقاء إلى الأبد. وهذا سبب تلويه، ولو أخذ بتلس، لهدأت الفتنة بعد فترة. في الواقع، إنه حالياً ليس ممتعضاً من وجود العثمانيين المؤقت هنا، بل يخاف من غضب الشاه. لهذا السبب من المحتمل أن يلعب على حبلين. ولكن، لقد حدث ما حدث يا إبراهيم. لا تضغط على إسكندر جلبي أيضاً. أنا أفكر مثلك. لقد وقَع دفتر دارنا في لعبة علامة الذي يعرف المنطقة جيداً. ولكن، لا تدخلني في ما بينك وبين وهيمي، وما يمكن أن يكون يا إبراهيم، وقد قلت لك هذا من قبل. والسبب في ذلك يرجع إلى أنه ليس لديّ شك ولو مقدار ذرة بولاء وهيمي وولائك لي وللدولة. ولكنكما تعرفان أفضل ألعاب القوة وتلعباها ضد بعضكما. وأجد أنه من المفيد التذكير بهذا؛ فكل منكما يرتكب شيئاً بحق الآخر يا إبراهيم. إذا دُمّي أنف أحدكما في حال مشكوك بها، فسأعتبر الآخر مسؤولاً عن ذلك. وستكون نهايته أسوأ. اعتبر هذا تحذيراً".

"أمركم على رأسي يا سلطاني".

رقت نظرات سليمان خان مجدداً، ثم سأل بهدوء: "أفكر بتأسيس ولاية مركزها أرض روم تضم شمال شرق الأناضول كله يا إبراهيم، ما رأيك؟".

انتعش البرغالي حين رأى أنه خرج من الورطة من دون خسائر، ووافقه مباشرة: "أنا أيضاً كنت أفكر بهذا يا سلطان سلاطيني. أقول بالتوفيق".

"طريق العقل واحد. لا يمكن أن نقوّي وجودنا في النواحي وحدودنا في القوقاز إلا بتأسيس قيادة عسكرية كبرى. ومن المناسب تعيين ابن خال والدي محمد باشا ضولقادر أوغلو، فهو عسكري ماهر، وشجاع مقدام. حضّر قائداً عسكرياً وقاضياً خلال ثلاثة أيام يا إبراهيم. وستقوم بالتفتيش العام في طريق العودة. لننزل إلى العراق عبر مركز العجم همدان. همدان عاصمة العراق السلجوقية، ومنطقة سكن دائم للأتراك. لنأخذ البيعة، ولنشكل تعيينات ولاية البصرة بعون الله. ليجتمع الديوان لنتشاور في ما إذا كنا سنقيم في بغداد أم همدان".

IV

خيم على اجتماع الديوان إصرار إسكندر جلبي على زمن انطلاق حصل تضارب في الآراء حوله. كان الديوان على وشك إصدار قرار نهائي بقضاء الشتاء في تبريز، ثم السير باتجاه بغداد. ولكن إبراهيم باشا قال بمناورة ذكية إن إسكندر باشا لديه معلومات حول المنطقة أكثر من جميع أعضاء الديوان. حتى إنه رفع من شأن العجوز بلغة محترمة إلى درجة أن وهيمي شعر فوراً بأن ذا اللحية البيضاء غير المعتاد على الألعاب السياسية قد انتفخ بفعل الإطراء. وبالنتيجة، قال إسكندر جلبي وهو متمسك بقوة باحترامه: "بالتوفيق يا سلطاني. أَمَتُكم رفيقة حياتي من هذه المنطقة، وأنا بفضل هذا أعرف جوها. الموسم مناسب بالنسبة لهذه المنطقة. وبهذا لن نضيع الوقت أيضاً".

سليمان خان أيضاً شك بموقف إبراهيم، ونظراً إلى معرفته بطبيعته الغدارة، شعر فوراً بأنه يمكن أن يُحاول الثأر لنفسه لقضية جبل قزلجا.

كإداري ممتاز عليه أن يتدخل في هذه النقطة ويقول الكلمة النهائية، ويغلق الموضوع.

في تلك الأثناء، بدأ وهيمي الذي أصبح مكانه ومكانته غير قابلين للنقاش بصفته حارس السلطان الخاص بالكلام بعد أن استأذن الحاضرين: "لا شك أن معلومات إسكندر جلبي صحيحة يا سلطان سلاطيننا، ولكن الفصل سيئ. فقد هطل الثلج على القمم باكراً، والجو ليس مستقرًّا. لو كان جيشنا أخف، لما كبرت مشكلتنا. ولكن مطراً خفيفاً يمكن أن يوجد لنا مشكلة بسبب هذه الأحمال كلها. يجب ألاّ نتحرك إلى همدان قبل الربيع، وأن نقضي فصل الشتاء في تبريز بالتأكيد. وهكذا، سيرتاح جنودنا، وسننقذ حيواناتنا من الموت".

شعر إسكندر جلبي بثقة زائدة بتأثير مجاملة إبراهيم باشا فقال: "يا دولة سلطان سلاطيننا، وهيمي جلبي محق، ولكن الجو في همدان معتدل بفضل ريح الجنوب، ويمكن أن نصل إليها بمسير اضطراري مدته خمسة عشر يوماً. وبهذا سنتخلّص من المخاطر كلها، وسنتخلّص من برد هذا المكان القاسي، ومن بلية طهماسب الذي يُخشى أن ينزل إلى بغداد قبلنا. إلحاحي ناجم عن إدراكي أهمية فتح بغداد. ليس من الصواب أن نُنزل الجيش هنا في هذه الأيام المعتدلة. لا يمكن الوثوق برأي غير العارف في هذا الموضوع".

كان وهيمي سيعترض مجدداً، ولكن السلطان قال: "سنذهب. إسكندر جلبي محق، علينا ألاّ نضيّع الوقت. ثعلب منطلق أفضل من أسد مضطجع. بإذن الله في الربيع القادم ستكون بغداد وخليج البصرة لنا".

24 تشرين الأول 1534

ولكن، لم يحدث ما كان مأمولاً. إذ ظهر أن وهيمي كان محقًّا بتحذيره. فبسبب المطر الذي هطل فجأة، والثلج الذي سقط على المرتفعات، لم يصل الجيش خلال عشرة أيام إلى السلطانية التي تقع جنوب تبريز مباشرة، فكيف سيصل إلى همدان؟ وتدحرجت معظم عربات الطعام واللوازم في الفتحات الجبلية عن المنحدرات الحادة بسبب الدروب التي صارت زلقة بفعل الثلج. حتى إنّ سليمان خان توتر من القرقعة المشؤومة، فنزل من العربة السلطانية، وامتطى حصانه، وكان يسير بصعوبة على الرغم من أنه مربوط بفرسانه الخاصين من الأمام والخلف. وخشية خسارة عربات المدفعية كلها، تقرر ترك مئة مدفع حصار في الخلف. أما مدافع الهجوم الخفيفة البالغ عددها مئتين، فقد سُحبت بألف صعوبة وصعوبة برفقة أدلة ثقة من وديان معرضة لمداهمات العدو والسيول.

بعد خمسة وعشرين يوماً وصلوا إلى همدان، ثم بعد عشرة أيام وصلوا إلى قصر شيرين. ولكن الأمطار التي لم تهدأ جعلت الأنهار كلها تفيض، وحولت الوديان والسهول إلى مستنقعات لا يمكن قطعها. وقبل الوصول إلى السفوح الجنوبيّة الغربيّة لجبال زاغروس اضطر الجيش للوقوف كلياً في منتصف النهار، وأعطي استراحة. أدفأت رياح الجنوب الجو قليلاً، ولكن مياه الثلج الذائب المنحدرة من الأعالي اختلطت بمياه الأمطار، وشنّت هجوماً كاسحاً على الجيش السلطاني.

حين رأى سليمان خان حال الجنود الجائعين والمبللين أمر بعزل إسكندر جلبي فوراً بغضب لا يقل عن غضب والده الجبار. وإذا كان هذا الشخص ضعيف الإرادة وسهل التحريض الذي تعتبره السلطانة حرم بمقام والدها هو المسؤول عن كارثة جبل قزلجا، فيجب

أن يدفع الثمن. ولكن سليمان خان كان يحفظ في زاوية من عقله دور إبراهيم في هذه القضية.

حين رأى العجوز جلبـــي فجأة وهيمي بجوار خيمته مساء اليوم نفسه، لم يعرف ما يجدر به فعله لاعتقاده أن نهايته قد حانت. كـــان متأكداً من أنه سيُعدم، ولن يلوم السلطان على هذا. فقـــد استشـــير بموضوع الانطلاق، ولا بد أن وقت الحساب قد حان.

نهض جلبـــي بثبات، وبدأ يخلع ما عليه من أشياء قيّمة ليعطيهـــا لوهيمي. أعجب وهيمي بحال العجوز وصلابته، وقال بموقف محتـــرم: "القرار السلطاني والخاتم فقط يا إسكندر جلبـــي. لقد عُـــزلتم مـــن منصبكم، وسحبت منكم الأملاك التي بعهدتكم".

"هل عفا عن روحي؟".

"لا مجال للقلق. أمر سلطاننا: *عليه ألاّ يحزن، ليس هنـــاك عبـــد معصوم عن الخطأ. ولكن، من غير اللائق أن يتخذ في المجلـــس موقفـــاً حاسماً ومصمّماً بناء على معلومات متوقعة، وأن يتكبر. إنه مسؤول عن كل هذه الخسائر، ليعلن التوبة"*.

قال إسكندر العجوز: "على رأســـي". وســـجد شـــاكراً الله، واستغفر، وتاب.

V

30 تشرين الثاني 1534 - بغداد

حين سمع محمد تكلو والي الصفويين على بغـــداد أن الســـلطان سليمان في خانقين على مبعدة سبع عقد من بغداد، واستقبله هناك ذو الفقار خان وحاكم جيلان مالك مظفر، رأى بصفته إنساناً عقلانياً أنه

لا جدوى من المقاومة، وترك المدينة وراءه مخلفاً سبعين مدفعاً برونـزياً على الأسوار.

عند دخول سليمان خان بغداد كانت السماء في أفقها الغربـي تتحول بدرجات الألوان الحارة من الأحمر الدموي إلى البرتقالي بمنظـر رائع. وكانت هناك قصور بلون العقيق والياقوت تذوب على الصحراء أمام الحزام الأحمر (الهيراتي)* في الأفق. يعتبر هذا المساء الرائع بعد يـوم ماطر وقاسٍ تطوراً غير متوقعٍ للجميع.

يبدو أن تلك الدقائق الرائعة الممتدة إلى ما لا نهاية توجد حالـة نفسية مشتركة لدى الأهالي. إذ إنّ شعب المدينة كله يشاهد سـلطان السلاطين على رأس جيشه العظيم تحت الأضواء التي صـفاها المطـر الغزير الذي هطل لفترة قصيرة، ويحفر ما يراه بين الذكريات الأكثـر استثنائية في حياته.

تسببت هذه المدينة بهبوب عاصفة في أعماق نفس سلطان السلاطين العثمانيين المهاب ركيزة الدنيا وحاكم العالم منذ اللحظات الأولى لدخوله هذه المدينة المباركة الرمزية التي كانت تحت حكم الصفويين.

وحين أُغلقت أبواب المدينة المسـماة *الـزوراء* الضـخمة ذات الزخارف الفولاذية والأحزمة البرونـزية المذهبة، والتي تـدعى بـرج الأولياء لأنها تحتضن مقابر الكثير منهم، وتعرف باسم *دار الخلافة* لأنها كانت بيت عرش الخلافة العباسية، حاول سليمان خان تجفيف عينيـه الخضراوين المغرورقتين من دون أن يُشعر أحداً. انتقـل السـلطان إلى القصر الواقع داخل القلعة، والذي تتوهج قبابـه الإجاصـية الملبسـة بالذهب بآخر حزم أشعة الشمس لابساً درعه، وحاملاً سيفه.

---

* نسبة إلى هيرات، مدينة أفغانية اشتهرت كأهم مراكز فـن المنمنمـات الإسلامي الشهير بلونه الأحمر. م.

تقدم عابراً دهليزاً صغيراً ذا قبة. وفجأة، فُتح أمامه مكان واسع مليء بزخارف تركستان المثلثة التي أججت في قلبه شعور التواصل مع جذور الأجداد، ولم يستطع أن يمنع نفسه من الارتعاش أمام روعة الفن الإسلامي الروحية. تطورت العمارة الإسلامية في عهود السلاجقة، ووصلت إلى ذروتها في عهد الصفويين والعثمانيين، وهي تتسرب إلى الروح بهدوء كإكسير؛ تاركة وراءها حالة شبه حالمة.

بقي سليمان خان في غرفة قصره الخاصة لفترة أثناء انتظاره انعقاد اجتماع الديوان بعد صلاة العشاء، وأمسك الريشة بإلهام جديد جداً وهو جالس إلى طاولة مكتب الوالي الهارب المصنوعة من خشب الورد:

"لنقل الله الله، ولنرفع راية السلطنة

ولنسر من كل طرف، ولنسحب الفرسان إلى الشرق

لنتسلح بحزام العزيمة من طرفين

ولنلتق بالغبار والتراب، ولنحتمل هذا الطريق

لندس الأسوار والأبراج بأقدامنا

ولنسحب الألم والحزن الأسودين من عينيك

الإسلام بريق واضح، وهو فرضٌ علينا

جلسنا كثيراً، وتحملنا ذنوباً كثيرة

أتمنى أن يكون دليلي أبو بكر وعمر

يا محبيه، امشوا ولنسحب الفرسان نحو الشرق"

الفصل السادس

الصديق مخبوء داخلي

I

"قال كا: أحياناً تفكرون بالأمر نفسه وباللحظة نفسها.

إذا كنت تفكر فهذا يعني أنه موجود.

أورهان باموق (ثلج)

3 كانون الأول 1534 - قصر بغداد

تابع إبراهيم تأمل المساء المدفون ببطء في مخمل عينيه اللامعتين الصدفيتين الزرقاوين، وتأرجح بين أمسه ويومه على وقع النغمات الحزينة التي ينثرها كمانه. بدأت خطوط وجهه الدقيقة تتعمق بفعل التعب والهم. للحظة، سمع طرقاً خفيفاً على بابه، وأدرك أن القادم هو محمد غازي الشركسي من حرسه الخاص. عدل قبعته المخروطية بشكل خفيف، والتفت. كان ثمة تعبير دهشة ممزوجة بالانفعال على وجه محمد غازي الذي لا يبدو على وجهه أي تعبير عادة. أغلق دفتر النوتات الذي كان أمامه، ووضع الكمان على المقعد الطويل تحت النافذة ذات القنطرة: "ما الأمر يا غازي؟ ما هذه الحال؟".

"جاء شخص بهيئة درويش يدعي أنه الشاعر الكبير فضولي يا باشا".

فسأله إبراهيم وقد فار دمه فجأة: "هل أنت متأكد يا غازي؟ كيف نتأكد أنه هو؟".

"لديه ورقة مكتوبة باسمه تحمل خاتم الشاه طهماسب. ويقول إنه يريد أن يقبل يد سلطاني، ويقدم له قصيدة كتبها له".

كان الدرويش الذي أدخل بعد وقت قصير رجلاً ضئيل الحجم في العقد الرابع من عمره، وبدا مهموماً ومهزوماً مثل مدينة خربة. فبجبته ترابية اللون التي لا تحصى رقعها وسترته الطويلة لا يبدو أنه رجل يمكن أن يثير الانتباه. إذا كان الشخص الذي يدعي أنه هو فعلاً، فإن اسمه اللامع قد تجاوز حدود البلد منذ زمن. وما هو معروف جيداً هو أنه لم يتلق اهتماماً من الشاه إسماعيل ولا من طهماسب.

اقترب عدة خطوات، وبتعبير باسم ظهر في عينيه الداكنتين كبئرين عميقتين حيا الباشا، وقبّل يده. استقبل إبراهيم باشا الشاعر الكبير على الرغم من أنه لا يحب المتواضعين والبائسين كثيراً، وقال له بعد حديث قصير شاعراً بانقباض في قلبه نظراً إلى كونه عبداً سابقاً: "سأبلغ حضرة سلطان السلاطين حاكم العالم بمجيئكم أيها الشاعر. ارتح الآن في غرفة الاستقبال".

شعر الشاعر بموقف الرجل غير الموثوق الذي يقف أمامه، فتفهم الأمر، ولعن نفسه وغادر من دون أن يعرج على غرفة الاستقبال. وفي ما بعد تذكر أنه نسي القصيدة التي يقول في أحد أبياتها: "جاء سلطان سلاطين شهير الاسم إلى برج الأولياء" في غرفة الباشا نتيجة ارتباكه.

17 كانون الثاني 1535

يوم تم تحديد قبر مؤسس المذهب الحنفي الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بعد أن خربه المتعصبون، زار سلطان السلاطين التربة المباركة بصحبة أركانه، وقضى الفترة الهادئة بين صلاتي الظهر والعصر تحت سقيفة بسيطة نصبت مؤقتاً وهو يقرأ القرآن.

أصر العجوز على رفض هدايا سليمان خان على الرغم من رجاء السلطان الشخصي. وقال بعدئذ: "أعطوني شيئاً قيماً بالنسبة إلي فقط، وليس بالنسبة للآخرين". وأشار بطرف إصبعه المرتجفة إلى حصاة عادية قرب قدم سلطان السلاطين. وبعد ذلك خيّم الصّمت.

كان صوت السلطان مخنوقاً بسبب دمع عينيه الذي فاض فجأة: "أنت تريد حجراً لا قيمة له يا تُربـــي!".

قال العجوز بهدوء وقد رسم ابتسامة على شفتيه: "حتى هـــذا لا أريده. أتمنى أن يخبأ حتى أموت، وأرجو أن يوضع في قبري بعد وفاتي".

قبل سليمان خان الحصاة التي وضعها حامـــل ســـلاحه بيـــده، ومسحها بدموع عينيه، وبينما كان يقدمها للتُربـــي، بشّره: "اعتبر أن رغبتك قد تحققت". وتجلى أمام عينيه انفعال بهزاد أشهر نقاشي ذلـــك العصر وهو يجسد هذه اللحظة.

سيجمد الشخصيات في ذهنه بداية؛ لحظة وضع الحصاة في كف العجوز، ثم سيرسمها بعينيه قبل أن يرسمها بفرشاة السمور على الـــورق المصنوع خصيصاً من القطن الصافي. وسيكون ذلك الورق المصـــقول بعاج الفيل عالم النقاش كله لأسابيع. وسينهك نفسه من أجل نقل تلك اللحظة الرائعة وجعلها خالدة إلى الأبد.

* * *

بالنتيجة، فضل التربـــي الجلوس بجبته الخشنة والبسيطة المصنوعة من وبر الماعز، والتي لا يخلعها عنه نهائياً، ولم يعرج على الموائـــد الـــتي دُعي إليها. بداية، استغرب البرغالي هذا الوضع، وبعد فتـــرة قصـــيرة غضب منه كثيراً. فكيف يرفض رجل بسيط وتافـــه كهـــذا هـــدايا السلطان، وموائده؟ لا يجوز لطفل صغير أو مجنون فاقد عقله تمامـــاً أن يتصرف هكذا مع خليفة المسلمين جميعاً، وكبير ممثليهم.

حين سمع سليمان خان رأي إبراهيم في هذه القضية، شرح للباشا أن هذا النوع من الرجال لا يبتعد عن الحرام فقط، بل يبتعد إلى أقصى حدّ ممكن عن الشبهات بسبب التزامه بحياة الزهد، ولهذا السبب يبتعد عن الأغنياء ورجال الدولة. ولكن الباشا لم يستطع إخفاء امتعاضه من المعاملة المفعمة بالحب والرحمة التي يعامل بها سلطان سلاطين رجلاً تافهاً كهذا. وحين سيأتي التربي، سيجد طريقة ما ليطرده من الحضرة. لهذا السبب، لم يكن منتبهاً إلى أن تفصيلاً مهماً جداً غاب عنه؛ إذ لم يعد سليمان خان يدعوه كثيراً إلى الجلسات التي يعقدها في الأوقات المعتادة. وقد نبه حارسه الشخصي عند الباب، وكبير حراس القصر إلى ضرورة عدم إدخال إبراهيم حين يأتي من دون إرسال رجل تشريفات.

لم يكن البرغالي مدركاً المعنى الكامل لهذا الأمر. فهو متضايق إلى درجة كافية من تهديد وهيمي الذي لا يُمحى بأي طريقة من الجوار، ومن استماع السلطان لإسكندر جلبي حتى الآن على الرغم من عزله. ثم هناك ذلك الشاعر الضئيل التافه المدعو فضولي، والذي استطاع إخفاء قضيته حتى هذا الوقت، ولكنه يعرف أنه لا بد أن يظهر مجدداً. والآن، إخلاص هذا التربي العجوز أجّج حسده كثيراً من الداخل، وصار يحاول أن يتنفس وسط جهنم الحسد تماماً.

من جهة أخرى، يبدو أن السلطان لم يتأثر بالسياسة الماهرة التي نهجها في فتح تبريز، وذكره دائماً باسم فاتح تبريز. ثمة شيء لا يسير على ما يُرام، ولكنه لم ير عمق الهاوية التي يترنح على عتبتها المغطاة بالطحالب بسبب عدم تحديده نقطة البداية.

في أحد تلك الأيام، التقى البرغالي ذلك التربي المسن تحت أشعة شمس المساء الغاربة، والتي تدمغ أزقة بغداد الخلفية الضيقة والظليلة

بدمغتها. فقد أمر رجاله بأن يحضروا المسن إلى حضرته وهو لا يــزال واقفاً عند عتبة مطعم خانق تفوح منه رائحة الزيت المحروق والبصــل المقلي.

لم يكن المسن مستغرباً قطّ من جلبه بالقوة، وإجلاســه بــالقوة. كان يبدو عليه هدوء الإنسان المتوكل الذي يؤمن بأن كل ما يصــيبه من الحق.

خاطب البرغالي التُربــي بصوت غاضب: "لا تعتقد أنني خدعت بما تحدثت عنه وقلت إنه حلم يا عجوز. لم يكن هــدفي مــن إتاحــة مثولك في الحضرة تأمل ألعابك المختلفة لكي تمــلأ عــين الســلطان. ولكنك بتصرفاتك غير المؤدبة التي تُسمّيها تواضعاً والتي تستخف بنــا من خلالها، وبكذبك استطعت أن تصطاد قلب ســلطان الســلاطين النظيف جداً. أنا لست ابن البارحة يا سيد، ولا تنتظر مــني أن أبتلــع هذا!".

أجاب المسن من دون أن يحزن مما سمعه مطلقاً: "نعم، رأيت ذلك الحلم يا باشا. أنا لا أكذب! فقد زارني الإمام الأكبر في حلمي فعــلاً. وبيّن لي أن الشاه وجنوده سيكونون هنا قريباً، وسيعرّضون أهل السنة لظلم كبير، وسيهدمون قبره الشريف، ويخرجون عظامه ليحرقوها. لقد قال لي: *لهذا السبب أزِل الصندوق الذي فــوقي، وضــعه في المكــان الفلاني القريب. فهناك دُفن شخص ظالم، ويستحق الحرق. لأنني حتى أنا أضطرب مما نشره في الأطراف من ظلام الإلحاد والفتنة*. وأمــرني: *ضع صندوقي مكان صندوقه!* ولو لم أتصرف كما قيــل لي لتعــرّض الإمام الأعظم لإهانة كبرى".

صده البرغالي قائلاً: "أنت مجرد كذاب. ليس من الصعب توقــع ظلم كهذا قبل الاحتلال. وقد رفعت الصندوق نتيجة توقع بسيط".

"أنا لست من النوع الذي يجري حسابات دقيقة يا حضرة الباشا. ومثلما أؤمّن حاجاتي بشكل يومي، لا يتجاوز فكري القاصـر اليـوم الذي أعيشه".

صرخ البرغالي بحدة: "أنا خربت الكثير من ألاعيب أمثالك. أنـا أقرأ قلبك يا سافل...".

في هذا الوقت أيضاً، لم يتخلَّ المسن عن هدوئه مطلقاً، وقـال وكأنه يتحدث عن شيء عادي جداً: "تتأجج نار الحسد في عينيك يا باشا. هذا ناجم عن انحطاطك إضافة إلى ميراث أيام عبوديتـك. لو كنت قد خصيت، لتخلصت من شخصيتك الحاقـدة السـافلة هذه".

اسودّت بشرة إبراهيم باشا السمراء بثقل هذه الكلمات الـتي لم يسمعها حتى في أيام عبوديته، إلى درجة أنه لو رأى نفسـه في مـرآة لاعتقد أنه سيموت جراء توقف قلبه. ثم تحوّل لون بشـرته بالسـرعة نفسها إلى لون شديد الزرقة، واصطكت أسنانه، وبدأت تتطاير أمـام عينيه نقط بيضاء بسبب انقطاع نفسه من شدة الغضب.

فمدّ جسده نحو العجوز، وأمسك ياقته بيديه القويتين، وقرّب وجه المسن من وجهه، وقال بهدوء: "احمـد ربـك لأن السـلطان يكترث لأمرك. وإلا كنت سأقطع لسانك الكذاب المغرور هذا الآن فوراً".

لم ينتبه البرغالي إلى أن المسن قد قطب وجهه بشـكل خفيـف، وتمتم: "تنبعث رائحة الغيرة من أنفاسك الفاسدة يا باشا".

قال إبراهيم: "والخوف مـن أنفاسـك". وأُعجِـب بسـرعة بديهته.

II

لم يعلم سليمان خان بهذه الحادثة؛ كما حصل سابقاً في حالات كثيرة. فالتُربي والبرغالي يعرفان أن هذا أفضل، و لم ينبسا بشيء. أمر السلطان ببناء قبر يمكن أن يبقى إلى يوم القيامة، وجامع فخم فوق حطام المرقد، وسلى نفسه بمراقبة الجامع الذي يرتفع شيئاً فشيئاً فوق الأساس. وفي تلك الأيام، زار سلطان السلاطين تربة الإمام موسى الكاظم وكبار رجال الإسلام الآخرين. وأظهر قدرته على أن يكون عادلاً في قضية معنوية كهذه، ونجح بمداعبة قلوب السنة والشيعة في الوقت نفسه.

بينما كان ذاهباً لمراقبة بناء مدفن حضرة الشيخ عبد القادر الجيلاني ذات مساء، وأثناء تقدمه في أزقة بغداد المتشعبة الطينية المظلمة، خرج أمامه درويش لم يحدد عمره في البداية على الرغم من وجود البرغالي والحراس معه، وطلب الإذن.

فور تلقي الدرويش الذي أحاط به الحراس الأمر، قرأ قسماً من قصيدة بغداد.

ظهرت في أعماق عيني السلطان ابتسامة براقة، ثم قال: "أحسنت! أنت فضولي. هل هناك من لا يعرفك أيها الشاعر العظيم؟".

اشتكى فضولي قائلاً: "نعم، ولكن الوصول إليكم صعب جداً". وروى له عن زيارته الفاشلة حين قابل البرغالي، وقدم لسلطان السلاطين القصيدة التي اضطر لإعادة كتابتها.

التفت السلطان إلى إبراهيم باشا المنتظر على صهوة حصانه وهو يشعر بالخجل، وعيناه تنظران إلى الأرض. وبتعبير انزعاج شديد غطى وجهه الجميل وعبّر عن مشاعره، قال سليمان بنبرة باردة كالجليد: "هل تنسى كثيراً زيارات أناس مهمين هكذا عندما أسألك عن زائريّ خلال النهار يا باشا؟".

تمسك إبراهيم بكلتا يديه بموهبته السياسية التي تهدئ انفعاله واضطرابه وقال: "اقرأ يا شاعر، أقرأ وأدخل السرور إلى قلب سلطان سلاطيننا". وظهر في الزوايا النائية المظلمة من قلب إبراهيم قلق غريب يشبه الخوف لأول مرة. ولكن، هل يمكن أن يفكر بأنه سيخاف من أخيه، من سليمان؟ لا، نهائياً... ثم بدأ بإلقاء مجارف التراب على نار التحذير التي شبت في داخله.

بدأ الشاعر العظيم بالإلقاء من دون أن تفارقه تلك الابتسامة التي لم تتأثر:

"بنى قلبي العصفور عشاً بين شعرك المبعثر يا حبيبتي!
صار قلبي معك أينما كنتِ، وحتى لو كانت يداي بالدم.
رأسي مستمتع جداً بهمّ العشق يا طبيب، دعك من إعطائي الدواء
لا تعطني دواء، فدواؤك هو السم الذي سيهلكني
يا حبيبتي لا تتدللي، وتخلي عن العشاق المبتلين
احذري أن ترتفع اليدان المتعلقتان بثوبك للدعاء عندما تتخلين
يخفي فراقك خصوصية إنهاء الحياة، فراقك يعني الموت
أنا مستغرب من الذين فارقوك وما زالوا أحياء
يا فضولي! خصلات شعر حبيبتك مربوطة بخيوط الروح
لن تفك تلك الخصلات قبل أن تحترق كالشمع"

23 آذار 1532 - كربلاء

كان وهيمي أورخون جلبي والغرناطي كمال متمددين على فرائي نمر على طرفي النار التي أشعلاها قرب خيمتهما، وهما يتحدثان عن خير الدين بربروس وإخوته الشهداء إسحاق وأوروتش وإلياس، وعن أيام جزيرة جربة.

قال وهيمي ذات برهة متأوهاً على الرغم من أن عينيه تقدحان شرراً بحمرة النار المتأججة أمامهما: "ماذا اعتقدت أيها الولد الطائش؟ إنه ينادونه خير الدين بربروس. صار مسؤولاً مع قباطنته عن البحر المتوسط كله. هل تعتقد أنه كان جالساً من دون عمل عندما كنا نجاهد يا بني؟ فور مغادرة الجيش السلطاني بيت العرش في حزيران الماضي، انطلق الباشا بأسطوله نحو نابولي وسجيليا ومالطة، ولقن الأساطيل الإسبانية والألمانية التي كانت متمركزة على شواطئ الكفار في سنتا لوكا، وسيدرارو، وفوندي، وإسبارلانغا درساً، وأخذ الكثير من الغنائم. ستتحدث أوروبا لعصور عن تسلله إلى المتفرعات الداخلية الصخرية لخليج ماسينا، ومداهمته ريغيو، ووضعه يده على خمس وعشرين سفينة إسبانية كانت محملة ومستعدة للحرب وراسية في الميناء، وإنزاله الجنود على شواطئ سردينيا الصخرية الحادة".

التفت كمال وألقى بعض الأغصان الرفيعة فوق الجمر. ثم استمع لطقطقة النار المهدئة بعد أن تأججت، واستنشق الدخان، وقال بصوت مفعم بالحيوية: "إنّ تشتت هؤلاء الطليان إلى هذه الدرجة على شكل إمارات، واهتمامهم بالتجارة فقط، يجعلانهم في وضع الجسر بيننا وبين الإسبان. فهم يميلون نحو الأقوى. أو الأصح، يميلون إلى من يرفع الهراوة مكورة الرأس فوق رؤوسهم بشكل أقوى، ويبدأون اللعب لصالحه".

قال وهيمي: "تبدأ المصالح الشخصية بالظهور حيثما لا توجد وحدة يا كمال". نهض قليلاً واتّكأ على مرفقيه، ونظر إلى كمال قائلاً: "يستمد البندقيون تفوقهم من الجنفيزيين، وهم مدينون للعثمانيين بالغنى القادم من تجارة شرق المتوسط كله. لأن الطليان مهما تمسكوا بالكنيسة الكاثوليكية فهم محرومون من الشعور القومي، ولذلك لا

يمكنهم إلا أن يبحثوا عن دولة كبيرة تحميهم. إذ إنّ بنيتهم انفعالية وعصبية، وهذا ما يمنعهم من القيام بأي عمل بهدوء، ومن دون أن يضغطوا على رقاب بعضهم. نعم إنهم أصحاب نشأة عصر النهضة، وتكمن خلف هذا الأمر الأعمال الخالدة للفنانين والعلماء الذين هاجروا إلى روما بعد فتح إسطنبول. هذه لعبة قوة بالأساس يا بني. وزماننا زمن كهذا. وبالنتيجة، طالما نحن أقوياء فلن تقترب البندقية من السلطة الإسبانية، فهي تحاول بكل قوتها أن تحافظ على حياديتها، ولكنها تلعب دائماً بشكل مزدوج".

"وأفريقيا يا وهيمي آغا؟ لماذا لا تتحدث عن أفريقيا أبداً؟".

"أنت محق يا غرناطي. إنّ أفريقيا واحدة من الخطوط الرئيسة للصراع بين العثمانيين والهابسبرغيين. فبعد أن ضرب خير الدين باشا شمال البحر المتوسط، توجه مباشرة إلى أفريقيا. أرسى مئة وأربع قطع بحرية من الأسطول السلطاني، وأنزل إلى البر في بنزرت ثمانية آلاف من مشاة البحرية. وبعد معركة عنيفة استرد تونس من السافل المدعو مولاي حسن".

رفع كمال قبعته المخروطية، وقال وهو يسوي شعره الأشقر الذي طال كثيراً: "آغا، أليس صعباً أن يخوض جنود البحر حرباً على اليابسة؟".

ضحك وهيمي وهو يحرك النار التي أمامه بغصن يمسكه بيده: "بالعكس، عندما يخرج مشاة البحرية من مكانهم في السفينة الذي يشعرهم أنهم محصورون فيه، يشعرون بأنهم أكثر حرية واستعداداً للحرب يا بني. لأن التلويح بالسيف في الصحراء أسهل من التلويح به على سطح السفينة. وتزيد جرأتَهم معرفتُهم أنهم لن يتعثروا ببرميل أو حبل مرخي ويسقطوا".

فكّر كمال لحظة، ثم هز برأسه. قدحت شعلة النار البرتقالية المائلة نحو الخمود كبرق الصيف ذات لحظة. أخذ نفساً عميقاً، ثم تكلم: "وذاك السافل المدعو مولاي حسن... كيف يبدو ذاك الرجل يا آغا؟".

هز وهيمي كتفيه، وتمتم وهو ينظر إلى النجوم اللامعة وكأنها مشاعل دائمة: "إنه ظالم استطاع التملص من قبضة خير الدين باشا، والهرب، واللجوء إلى راعيه الملك كارلو. قتل ثلاثة وأربعين أخاً من إخوته الأربعة والأربعين، وجلس على عرش تونس كأفعى سامة بدعم من كارلو. لم ينجح أحد من إخوته بالفرار سوى مولاي رشيد. وأنقذه الطوارق حين كان على وشك الموت وحيداً في الصحراء، وأخيراً حط رحاله في إسطنبول. رأيت مولاي رشيد ذات مرة. كان شاباً يجلس وحيداً على ساحل أُسكودار وهو يراقب الأفق البعيد بعينين حزينتين. حدثني عن الظلم الذي أذاقه أخوه لشعبه. تصرف بسفالة شديدة؛ بدءاً من تسلطه على أبناء الناس وهم في سن صغيرة، وانتهاء ببيع أبناء شعبه كعبيد لصيادي الرؤوس الإسبان...".

"ولكننا أُبلغنا أن الله على الظالم يا وهيمي آغا. ولهذا سلّط الله بطلاً مثل خير الدين بربروس على رأسه ليكون وسيلة لتحقيق خير عظيم. وإلا ببال من غير خير الدين باشا سيخطر أن يركّب أشرعة لعربات المدفعية، ويقطع الصحراء ملاحقاً هذا الظالم الذي لجأ إلى القيروان؟".

"صحيح يا كمال. أنت احسب كم ظالماً كحسن يشحذ خير الدين باشا له نفسه؟ لم يعد أحد يستطيع أن يوقفه بعد أن حصل على إمكانيات الدولة العلية العظيمة. نعم، لقد ركّب أشرعة للمدافع لكي يسيرها على أرض الصحراء العصية. لأنه يجب على القادة الحقيقيين أن يتوصّلوا إلى مخارج من دون ارتباك. وضرب خير الدين باشا أجمل مثل

على هذا. ولكن، على الرغم من إبداعه هذا لم يستطع اللحاق بحسن وجنوده الهاربين وكأن الزيت قد بلل أطراف أثوابهم، وستشتعل فيها النار قبل دخولهم القيروان. ولكن "حسن" لم يستطع البقاء هناك أيضاً، وأخرجه الجواسيس الإسبان من المدينة أثناء دوران المعركة".

"الآن يئسوا من نزولنا إلى خليج البصرة، وتمركزنا هناك. من الآن فصاعداً ستتحول التجارة العالمية لصالحنا عبر بغداد والبصرة بإذن الله. قسوة هذا الأمر ستقبض على قلبي كارلو وطهماسب. لأن عمريهما لن يكفياهما ليريا عكس هكذا. أضف إلى ذلك أن البرتغاليين الذين يدقون على طبول كارلو فقدوا تفوقهم على شرق المحيط. وسيُرى في السنوات القادمة مدى الانهيار الذي سيصيب أوروبا والصفويين نتيجة هذه الحال".

قطّب كمال جبينه وسط الدخان الصاعد من النار والضارب وجهه، ونظر بتعبير أكثر حدة: "وهناك نهوض الإنكليز، والنزول على رأس كارلو كمطرقة ضخمة يا آغا...".

هز وهيمي رأسه قائلاً: "الوقت غير مناسب بالنسبة للإنكليز يا كمال. يد العثمانيين الحامية فوقهم في مواجهة الهابسبرغيين، ولكنهم لم يتخلصوا بعد من تأثير الانهيار الكبير نتيجة حروب القرن التي كانت بسبب طمعهم. أما الآن فقد ربطهم القدر بخصومهم الأزليين الفرنسيين طوال حروب القرن ضد الهابسبرغيين. إذا أخذت بعين الاعتبار إلغاء هنري تيودور للكنيسة الكاثوليكية بعظمتها، وتأسيسه مكانها كنيسة إنكليكانية ذات منشأ بروتستانتي وتعلقه بتكة سرواله، فسترى أن إنكلترا بحاجة إلى وقت من أجل تجاوز هذه التعقيدات".

سأل كمال بفضول: "وهل الأمر بسيط إلى هذه الدرجة يا آغا؟ نحن نتحدث عن دين قديم، وعن مؤسساته الراسخة. هل يمكننا إنكار

أن الملك هنري تيودور ذكي؟ هل يمكنه أن يقدم على هدم دين بمزاجه، وتأسيس آخر لمجرد أن كارلو طلق خالته؟".

قال وهيمي: "نعم، سيفعل ذلك إذا دعمناه". وغمزه بعينه: "يحاول هنري قمع طريقة اليسوعية المؤسسة حديثاً والتي تدعو للعودة إلى الكاثوليكية بالقوة؛ مع أن اليسوعيين أصحاب طريقة مسالمة تدعمها البابوية. ومع شعور هنري بقوة العثمانيين تدعمه، أصبح لا يعير اهتماماً لكارلو، ويستمر بتحويل أموال الكنيسة الكاثوليكية كلها للأرستقراطيين. هذه أكثر الخطوات عمقاً في أوروبا ضد الهابسبورغيين. وهكذا، انتهى الصراع بين الفرنسيين والإنكليز على الزعامة الكاثوليكية بشكل طبيعي. لأن إنكلترا كانت دائماً تشكو من تخلفها في هذه المعركة".

"ما أصعب أمور الدنيا يا وهيمي آغا! ولَمَ هذا الزمان هكذا؟".

"الزمن يتغير يا بني. ولكن، لم يُر إنسانٌ تغير من زمن إلى زمن، ولا من أمة إلى أمة. بعد ألف سنة ستقع قضايا بشعة كهذه. ماذا سيختلف؟ نم الآن. سنزور صباحاً مرقد حضرة سيدنا الحسين، ونسافر. لعلنا نوقع الشاه طهماسب بيدينا هذه المرّة".

وافق كمال على ما قاله معلمه قائلاً: "إن شاء الله". وقبل مرور زمن طويل، نام وهو يشعر بالراحة التي يمنحه شبابه إيّاها. كان وهيمي ينظر إليه وعلى وجهه قلق مرفق بابتسامة جميلة.

III

تأسست سيادة سادة بغداد، وعُيّن على رأسها سليمان باشا الطويل رمضان أوغلو، وتحرك سليمان خان من دون أن يضيّع أي

وقت. بقي شهراً في كركوك التي وصلها في 21 نيسان، وانتظر توقف مطر الربيع الغزير الذي كان قد بدأ يهطل. شهد حاكم العالم تبرعم الصفصاف، وسيلان الماء بلون التراب على شكل طبقة رقيقة نتيجة تكرار هطول المطر، وتحوّل الصحراء إلى لون فيروزي وذوبان هذا اللون بزرقة السماء. بعدئذ سار على خط سير شرق الأناضول، ودخل تبريز ثانية مجدداً من دون أن يواجه أي مقاومة. كانت هذه هي المرة الثالثة التي يدخل فيها العثمانيون تبريز منذ زمن السلطان سليم خان الجبار.

انسحب الشاه إلى قزوين مجدداً، وحتى إنه لم يشعر بالأمن هناك، فانتقل إلى أصفهان، وبهذا عبّر بكل صراحة أنه لن يواجه العثمانيين في أي ظرف. ولكن التطور الأكثر مأساوية من زاوية طهماسب تمثّل في إرسال شقيق والي خراسان سام ميرزا رسالة إلى سليمان خان في أواخر شهر تموز يطلب منه فيها المساعدة لأن عناصر الهلال قد خطفوا شقيقه إلى هيرات.

نتيجة صراع النسب والرئاسة الداخلية المتأججة، انتفض سام ميرزا في وقت غير متوقع ضد شقيقه، وجمع عشرة آلاف متطوع مع طابور الحرس الموالي له والذي يحبه حتى الموت مثل حسن صباح، وتمادى إلى درجة أنه حاصر قندهار إحدى الولايات المهمة على طريق الحرير القديم، ولكنه اضطر للانسحاب خائباً قبل مرور وقت طويل. إذ إنّ مقاومة البشتون، والدعم الذي قدمه طهماسب لها بالوحدات الخاصة التي أرسلها لم يتركا أمام سام ميرزا أي مناص. فقد رأى الشاب ميرزا أنه لم يعد أمامه خيار سوى اللجوء إلى سليمان الزمان، وفعل ما توصل إليه عقله.

تؤثر هذه الحادثة التي لم يصادف الصفويون مثلها سلباً على مكانتهم في الوقت ذاته. فالصفويون قلقون جداً من هذا الصراع الغدار

بين الأخوين، وهم يقفون ضد مفهوم الإسلام السني الذي يعتبرونه ظالماً ومنحرفاً على يد العثمانيين، ويدافعون عن حرية العقيدة والموقف، ويعتقدون أنهم يمثّلون العالم الإسلامي وحدهم.

قام طهماسب بحركة مضادة، وهاجم قلعة وان بمساعدة والي بغداد السابق محمد تكلو، واستردها بهجمة واحدة. بعد ذلك، قدم لسليمان خان عرض صلح معقولاً ضمن تلك الظروف بتسليم الأخ الفار.

تبقى أرض شرق الأناضول والعراق المفتوحة بمساحة خمسمئة ألف كم^2 بيد العثمانيين، وبالمقابل تعاد الأرض المسيطر عليها في بلاد فارس وأذربيجان ومجموعها أربعمئة كم^2 للصفويين. لم يقترب السلطان من قبول العرض، وتقدم نحو قصر دركز عبر سلطانية نتيجة إلحاح إبراهيم الممل على الرغم من أن عقله كان مشغولاً بالأخبار السلبية القادمة من خير الدين باشا.

دعي الشاه في هذا الموقع للمرة الأخيرة لمنازلة ميدان. وعندما لم يصدر صوت من طهماسب الذي لم يتغير موقفه، تقرر ترتيب اجتماع لهيئتين خاصتين لديهما صلاحيات من أجل مناقشة شروط الصلح. لم يأخذ وصول الهيئتين إلى توافق اعتبره كل منهما لصالحه وقتاً طويلاً. إذ سيعاد سام ميرزا شرط حصوله على عفو كامل، وستبقى أرض العراقين* تحت سيطرة العثمانيين من دون قيد أو شرط.

---

* تاريخيًّا، في الفترة الممتدّة بين عامي 1534–1920، كان العراق مقسّماً إلى ثلاث ولايات عثمانية:
  1- بغداد وتتألّف من ثلاثة ألوية (بغداد، كربلاء، الديوانية).
  2- الموصل وضمّت كركوك وأربيل والسليمانية.
  3- البصرة وتمتدّ من حدود ولاية بغداد وحتى لواء الإحساء ولواء نجد. وهي تشمل الكويت وقطر والمنطقة الشرقية والبحرين.

وفي هذا الوضع، لا بد من ترك الأراضي المأخوذة من داخل بلاد فارس. ولكن سليمان خان كان قلقاً من تقدم الجيش الأخير الاضطراري من دون ضرورة، وما لم يستطع البرغالي فهمه، أو ما لم يشأ فهمه هو صمته الغريب، وبدء تحول هذا الصمت إلى جمود، خاصة عندما يراه.

20 تشرين الأول 1535 - ديار بكر

قال سليمان خان بموقف المتبصر ونبرة المهذب المألوفة عنه دائماً: "اعتباراً من الآن سنتقدم على طريق أورفة حلب أنطاكية يا إبراهيم. كان واثقاً من أن عدم تحقيق الضربة النهائية المأمولة للصفويين سيعتم على النجاحات الأخرى المحققة كلها، ولكنه يفضل الصمت. ولهذا السبب، إن ابتساماته كلها مهلهلة، وحالات طمأنينته قصيرة لا تتجاوز لمح البصر. لم يكن يستطيع المحافظة على موقفه المتحمّل الذي جذّر تقدير من حوله له بشكل دائم، ولكنه كان ماهراً جداً باسترضاء القلوب.

فور مجيئه بدأت أحجار قلعة ديار بكر الغرانيتية والقصر الرائع بغرفه البالغ عددها مئة وخمسين تخنقه. تجول وهو يشعر بالفراغ بين الأعمدة المرمرية الملونة في الظلمة الخفيفة التي تذكّر باللانهاية. وفي بعض الأحيان، حين يزداد شعوره فيها بالسأم كان يعيد قراءة رسائل زوجته التي تردّ فيها على رسائله المفعمة بالحب والشوق. أسلوب حُرّم الطفولي، والتفاصيل الشعرية كلها، وانفعالاتها، وانطباعاته البراقة، وأخيراً الرغبة الكبيرة بالحياة التي تبدأ بالتوهج يشعر بها كلها في مركز قلبه تماماً. تلك اللحظات كانت الوحيدة التي يشعر فيها أنه ابتعد عن تعقيدات الحياة، بل يشعر بالسعادة والشكر لأنه ينساها.

لم يفوّت إبراهيم باشا فرصة التدقيق بوجه سلطان السلاطين الشارد، وانتظر فترة، ثم قال وكأنه يقرأ ما في عقل سليمان خان كما يفعل دائماً: "لم يعد الصفويون يجرؤون على السير نحو البصرة وبغداد يا سلطان سلاطيني. أريحوا نفسكم، فقد بقيت تلك الأيام من الماضي. والفوائد العظيمة التي جنيناها من ضم البصرة تكفينا حالياً. ليفكر قادة الصفويين والبرتغاليون والإسبان بهذا الوضع. سنصطاد سفنهم واحدة تلو الأخرى كالبط التائه".

عبّر سليمان خان بوضوح عن عدم اهتمامه بهذا بتقطيبه وجهه: "استرجع طهماسب كل ما يهمّه؛ حتى تبريز يا إبراهيم. إلى متى ستبقى هذه المدينة المباركة تنتقل من يد إلى أخرى؟ ووان أيضاً.. أصلاً، ما المتوقع من المدعو عُلامة؟ لقد تبنى الدفاع عن وان بعد تبريز، فوضعها في راحة يدهم بسهولة". وضع السلطان يده على مقبض الخنجر الذي يعكس أشعة الشمس، وتنهد: "ليقل طهماسب إنه حقق نصراً أمام ذاك الخائن، وليفرح. من يضحك، يضحك أخيراً. هل هناك أخبار جديدة من خير الدين باشا؟".

قال إبراهيم وهو ينظر عبر النافذة إلى الخارج حيث تتراقص أشعة الشمس على نهر دجلة بلونه الحديدي: "يوجد والحمد لله".

"هل حدّد الكتّاب التاريخ؟".

"لقد فعلوا ذلك يا سلطاني. إنهم يعملون بدقة من أجل تقديمه لكم بالتفصيل، ولتتابعوه من دون قطع التسلسل".

"حسنٌ، أعطني الخلاصة لكي أرى".

"شعر خير الدين باشا بالضيق كثيراً في الصيف الماضي نتيجة ما ضغط حرارة تونس المحملة بالبعوض والملاريا، وضغط الجنود الإسبان المتفوّقين عدداً. وكأن السوء يتراكم، فقد خرج مولاي حسن من

الجحر الذي كان يختبئ فيه في الصحراء، وانضم للإسبان بثمانية آلاف جمل محمّل بالأطعمة، وألف وستمئة فارس كما تعلمون. وبحالة الغضب تلك، دعا فارس قلعة خلقول المحترم غازي سنان باشا دوق سارنو جوزيف هرناندس، ومنديا ماركيس بارتولي من القادة الإسبان للمبارزة كل على حدة، وبارزهما برجولة، وقضى عليهما.

وهكذا، في شهر حزيران، تخلص خير الدين باشا من بعض الضغط الناجم عن قلقه من الجيش الإسباني بقيادة شارلكان وأندريا بتوجهه إلى البر مقابل برج وادي خلقول أكبر الموانئ التونسية على الرغم من وجود خمسمئة سفينة حربية، وبعددها تجارية، وخمسين ألف جندي معه. ولكن هذه الراحة لم تستمر طويلاً. فبعد سقوط وادي خلقول في أواسط تموز، فَقَدَ تونس في أواخر الشهر بعد مدافعة بطولية خاضوها زقاقاً زقاقاً".

على الرغم من جلوس سليمان خان مسنداً قبضتيه على ركبتيه، انحنى على المقعد، وقال: "أريد كل تفاصيل انسحاب بربروس من ذلك البرج الرائع إلى بلد العنّاب يا إبراهيم. إذا كتب له الله طول العمر، والتقينا، فسأطلب منه كتابة التفاصيل كلها. هكذا من دون تحريف أو تزييف! يجب أن تنقل سيرة حياة الباشا للأجيال القادمة لتتعلم منها".

حاول البرغالي ألا يعير اهتماماً لهذه الكلمات التي تقبض قلبه، وتململ بقلق، ثم تابع: "لم يكن ظلم الإسبان في تونس أقل من ذاك الذي مارسوه في الأندلس، ومارسه أجدادهم في القدس يا سلطاني. فقد ذبح كارلو بالسيف ثلاثين ألفاً من إخوتنا البرابرة، ونهب المدن، وأحرق المكتبات، وأزال الأعمال الفنية بالوحشية اللاتينية المعهودة التي قدّمها في أمريكا. أيام كنا في تبريز، وحرصتم على ألا يدمى أنف أحد هنا، ومنعتم النهب منعاً باتاً، كان جنود كارلو يضيفون ظلماً إلى ظلمهم بشكل سافر.

وباتفاقية الثامن من آب حقق مولاي حسن ما أراده تماماً. واعتباراً من الآن، اتخذ ذلك السافل من الإسبان حماة له في مواجهة العثمانيين".

حرّك سليمان خان يده بما يوحي بأنه غير مهتم: "ليكن الأمر كذلك إذاً، وليجرّب مولاي حسن حظّه مرة أخرى يا إبراهيم. سنرى ما إذا كان شارلكان سيعامله بلين وأخوة، ويحفظ حق الخبز والملح كما نفعل نحن؟". عقد ذراعيه على صدر قفطانه الذي تتماوج خطوطه البنفسجية والحمراء في ضباب المساء الشتوي، وأضاف: "إنهم لا يستطيعون تيئيسنا أو جعلنا نتراجع. وهربهم من الاعتراف بسيطرتنا المطلقة لا يغير هذه الحقيقة".

"سلطاني، رداً على هذا كله، انتقل خير الدين باشا إلى الجزائر، ولم يضيّع أي وقت. وفي النصف الأول من شهر آب أشرع أشرعة اثنتين وثلاثين سفينة، وسيطر على جزر بالدير، وأحرق القاعدة البحرية الإسبانية في ميناء مينوركا - ماهون. أسر سبعة آلاف جندي، وبجرأة لا تصدق عبر مضيق جبل طارق، وهاجم ميناء كاديز الإسباني وفارو البرتغالي. عيونُ الأعداء يئست تماماً الآن. ولكن الباشا لم يكتف بهذا، وفي طريق عودته إلى إسطنبول، نفّذ إنزالاً في ميناء بيزرت من باب تذكير مولاي حسن، وكارلو بوجوده، وسيطر على الميناء قبل أن يتخلص العدو من دهشته، وترك فيه طابوراً من خيرة مشاة البحرية مؤلفاً من خمسمئة جندي".

شعر إبراهيم فجأة أن السلطان في حال مختلفة عن حالاته المعهودة. إذ لم يكن مهموماً بسبب الفشل الجزئي الذي كان في هذه الحملة، بل هناك أمر آخر.

قال السلطان هذه المرة وكأنه قرأ ما يفكّر فيه الصدر الأعظم: "رأيت حلماً الليلة". كان حاجباه البنيان متوترين وخطوط جبهته

عميقة، والشعر الأبيض الذي بدأ يظهر في لحيته ينثر بريــق حكمــة فضّــيًّا. فجأة، انتبه البرغالي إلى مدى بُعد السلطان عن الحالة التي كان عليها قديماً فتمتم: "عسى أن يكون الأمر خيراً يا سلطاني".

"رأيت إسكندر جلبــي يا إبراهيم".

ارتعد البرغالي وكأن المرحوم إسكندر جلبــي قد قام من قبره، ولمس ظهره بأصابعه التي لم يبق منها سوى العظام. كان قد شعر أنه نجا بتحميله مساعده الدفتر دار إسكندر جلبــي وسيد سادة تبريــز علامة باشا الذي عينه شخصياً مسؤولية المشاكل التي واجهتــهم في حملة العراقين كلها، وتخلص مما تقدم من ذنوبه وما تأخر. و لم يكــن يستطيع منع نفسه من الشعور بأنه في قلعة غير قابلة للهــدم وقوتــه وغناه الذي يضاهي غنى الملوك. كان منتبهاً إلى خطأ هــذا الأمــر، ولكن الرخاء الذي دفن نفسه فيه يساوي عمق المستنقع الذي يغــط فيه مع الأسف.

حسن، أمن الممكن أن يكون السلطان قد حقق كثيراً بالسرقات من خزينة الجيش التي حدثت أثناء الحملة؟ لعله... ولكن، و لم يكن هنــاك أي تفصيل يدعو إلى الشك. فقد تصرّف بدقة كبيرة في ما يتعلّق بالأدلة، و لم يفوّت أي تفصيل بسبب خوفه من وهيمي. ثم كان من السهل الحصــول على الرجال والخدم من عند إسكندر جلبــي الذين لا يعــرف عــددهم حتى هو، إلى درجة أن هذا العمل كان كسحب شعرة من العجين. مــن جهة أخرى، هل كان السلطان يعطي أهمية لإسكندر جلبــي إلى هــذه الدرجة؟ فكر مجدداً بالأدلة التي وضعها في موقع الحادث في أثنــاء تطــاير شرر الغيرة في معدته مسبباً له حموضة تصعد إلى حلقه.

لجام حصان قتال مقطوع يخصّ حراس إسكندر جلبــي الخاصين ومدموغ بدمغته من الداخل، كيس نقود محبوك فارغ معروف أنه يعود

إليه؛ من النوع الذي يوزعه على الفقراء، وعدة شهود أدوا القسم. وُجد الدليلان بالقرب من خيمة الخزينة التابعة لبنية موقع الخيمة السلطانية. بالتأكيد لا بد من إعدام رجل تشير إليه القرائن بوضوح إلى هذه الدرجة، ولكن السلطان كان متردداً جداً.

نشر البرغالي في موقع قيادة الجيش ادعاء مختلقاً بالقول إنّ رجال إسكندر جلبي لعبوا دور وساطة بين الشاه والمتمردين. وعندما عادت هذه الافتراءات إلى أذنه بشكل مبالغ فيه كثيراً، شعر أنه لا بد أن يكون قسم منها حقيقيًّا، وأراح نفسه. ومهما حاول أن يقف بقوة، فإن بلية الرخاوة تنظر إليه نظرة عين زائغة.

أخيراً، في نهاية الأسبوع الأول من رمضان، أصدر السلطان الحاكم الأمر الذي انتظره البرغالي بفارغ الصبر. فتمّ القبض على إسكندر جلبي في قصر جلالية الواقع في أحد أهم أحياء بغداد الداخلية، وأعدم تحت باب سوق الخيل ذي القوس الإجاصي على يد الجلاد عمر الأسود. في تلك الليلة الماطرة، سجد البرغالي سجدة شكر في خيمته مصبباً مطر الدموع من غمامه. ما أهمية روح عبد بسيط من أجل بقاء الدولة العلية؟

بدأ إبراهيم يرتجف وكأن الحمى قبضت على تلابيبه؛ على الرغم من محاولته إراحة نفسه بهذا التفكير، وبدأ يتمتم بعبارات غير مترابطة تشبه الدعاء وتشبه الهذيان كثرت في الفترة الأخيرة. هناك بعض أهل النفاق الذين بدأوا يدخلون في الفترة الأخيرة على الرغم من رؤية سليمان خان لهم طوال سنين، وثمة حقيقة أن نظراته قد رقّت. سَمَتْ الدولة العلية مع إبراهيم البارغلي، ولا يمكن لها أن تنهض إلا به في هذا الوقت الذي قوي فيه الأعداء كثيراً. إذا لم يكن تجاهل هذا الأمر جريمة، فماذا سيكون؟ كيف يمكن لسليمان خان أن يتمسك بساحة

الوجود من دونه؟ يعرف الجميع هذا بالتأكيد، ولكن عديمي الموهبة، والخونة بالولادة، والمفسدين السفلة يحاولون الدخول بينه وبين السلطان عن قصد. وهذه نتيجة... كان يتباهى في أوقات سأمه الشديد قائلاً في سرّه: "يليق بي كل هذا الاضطراب وكل هذه المصائب". ثم يصعد همس سري من الأعماق كالغاز السام المتصاعد إلى سطح المستنقع البراق: "في الحقيقة، يجب أن أكون *سلطاناً*...".

مسّد سليمان خان لحيته بهدوء، وتابع: "رأيتُ *صديقي* إسكندر جلبي على رأس بئر كبيرة في الصحراء يا إبراهيم...".

كرر إبراهيم كلمة *صديقي* في سرّه.

"انحنى جلبي على البئر التي من المحتمل أن تكون خالية من الماء منذ آلاف السنين، وهو ينادي: يا *ظالم!* كنت أستطيع رؤية أثر الحبل المدهون بالزيت على رقبته أزرقَ مصفرّاً، والعذاب في عينيه الداميتين الجاحظتين. كان يصرخ من دون توقف: *كيف تعدمني اعتماداً على كلام شخص سفيه مثل إبراهيم باشا؟* وتتعالى أصداء صوته. لم أفهم بداية من ذاك الشخص الذي كان يخاطبه بغضب شديد، ولكنني انتبهت جزعاً بعد وقت قصير إلى أنني في قعر تلك البئر، وأنني المخاطب بذلك الكلام. وفي النهاية، صرخ جلبي بدعاء وهو ينظر إلى ظلمة البئر: يا *إبراهيم، يا إبراهيم! أتمنى من الله أن تُقتل قبل مرور سنة!* في ذلك الوقت، انتبهت إلى أنك معي في تلك البئر التي لا قرار لها يا إبراهيم".

ارتعد إبراهيم وكأنه أصيب بصاعقة انفجرت فجأة في جو عاصف. وعَلِق لسانه بين أسنانه بسبب تقلص عضلات حنكه، واندفع من جسمه عرق غزير محمل بخوف شديد. وكأن نظراته المتجمدة قد تعلقت بنظرات سليمان خان المستهزئة. رأى متألماً أن باباً ثقيلاً قد

أغلق على الحياة السعيدة والمليئة بالنجاحات والتي شاركه فيها حتى اليوم. فيما مذراة الحقيقة الغاضبة تلكز قلبه بكل قسوة. لم يبق لديه شيء من موهبته السياسية ولا من مهارته بالكلام. اكفهرّ وجهه ملتفاً بلون دخان مائل إلى الصفرة، وفتح فمه، وتمتم بشكل متقطع ولعابه يسيل: "كان مذنباً يا سيدي".

ضحك سليمان خان وقال: "هدئ أعصابك يا إبراهيم! ما هذه الحال؟". ثم أضاف بنبرة استخفاف: "هل أنت مذنب لكي ترتجف هكذا يا أخي؟".

كرر إبراهيم همس سري في داخله: أخي. لم يخاطبه السلطان بود على هذا النحو منذ فترة طويلة، ولكن هذا لم يكن كافياً لكبح خوفه. إنها المرة الأولى التي ينتبه فيها إلى ذلك الشق الذي ظهر في مرآة حياته البراقة الكريستالية، وأدرك بحزن شديد أن أيام الراحة والطمأنينة قد بقيت في الماضي. كيف تغيّر كل شيء بهذه السرعة من دون أن ينتبه؟

IV

8 كانون الثاني 1536

كانت دار السعادة تعبّر عن شوقها لركيزة العالم سلطان سلاطينها باحتفالات النصر بعد غياب سنة ونصف. ففي النهار، تمتدّ موائد عليها مختلف أنواع الشواء كلها بالقرب من ساحات احتفالات واسعة تضج بالألوان، وفي الليل تنظّم احتفالات الشموع والألعاب النارية. زُينت شوارع المدينة كلها حتى الأزقة بأقواس النصر التي رُفعت عليها شعارات السلطنة العثمانية والرايات، وقماش المخمل والأطلس،

وأغصان الغار دائمة الخضرة، والأزهار الملونة. ولَها الأهالي المسلمون وغير المسلمين حتى الصباح.

في اليوم الثاني، نُظم عرضٌ عسكري ضخم في طريق الديوان. وكانت فرقة المهتران تعزف النوبة من دون توقف، وأهالي إسطنبول يتماوجون طوال الطريق على الرغم من البرد الشديد. هناك مئتان وخمسون فارساً بدروعهم البرونزية المرصعة بمجوهرات تقدح شرراً تحت شمس الشتاء في مقدمة الوحدات العسكرية، وخلفهم مباشرة خمسمئة جمل محمّل بالخزائن يسحبها خدم بيض يلبسون أردية مخملية خضراء مذهبة، ويتبعهم ألف جندي مدفعي يبهرون الأبصار من طرابيشهم إلى أحذيتهم، ثم أربعة آلاف فارس من جباة العشر، وبعدهم يسير الإنكشاريون بقبعاتهم الطويلة المقلوبة إلى الخلف التي تبرق زينتها كشموس صغيرة، وأرديتهم الحمراء.

خلف الجميع، وقف موظفو أركان الدولة بقبعاتهم المخروطية وجبّاتهم الملونة الثقيلة، وكذلك حملة أختام السلطان، وموظفو المالية، والضباط المفرغون، ووزراء القبة براياتهم ذات الشعارات الأربعة، والوزير الأعظم برايته ذات الشعارات الستة مع حاشيته، ويتبعه حاشيه. يُنقش كل هذا في ذاكرة التاريخ لكي يُذكر ما بقيت الدنيا. اقترب خير الدين بربروس باشا قبطان البحر بثلاثين سفينة حربية ضخمة مزينة بالرايات والقناديل الملونة من ميناء أمين أونو. وفور علمه أن سليمان خان قد انتقل إلى خيمته السلطانية واعتلى عرشه، بدأ بإطلاق مئة طلقة وطلقة. كان يُرد على طلقات المدفعية من برج البنت. كان ما حصل استعراضَ قوة رائع للعدو والصديق معاً.

* * *

تسللت شباك حُرَّم المحملة بكلمات تقبض القلب وسط نار شوقها وشوق سليمان خان المتأججة. ومنذ اليوم الأول، كانت تضغط بقدر ما تستطيع عبر مناوراتها الماهرة على رجلها الذي بقي معصوراً في جرح الشوق النازف في القلب.

كانت تقول: "السلطان قائد الجيوش؟!". ويسقط غطاء رأسها الحريري فوق شعرها الشبيه بالنار كستارة أمام عينيها المشاكستين: "السلطان قائد الجيوش إذاً... عبد الأمس الذي كان القيد حول رجله يطمح للسلطنة، ويدعي هذا علناً، وأنتم تتجاهلون هذا بصبركم العظيم...".

كانت كل كلمة من كلماتها تدخل الدم كسهم مسموم أولاً، ثم تشل القلب: "كان لسانه ينفث سماً كهذا أيضاً عندما قال قبل عدة سنوات لمبعوثي النمسا إنه صاحب القرار قبلكم على هذه الأرض... تتردد في قصور أوروبا أصداء صيحات طموح إبراهيم هذا يا سيدي... ليس وهيمي ورجاله من أوصلوا إلي هذه الأخبار، لا تقلقوا. إنني أسمع ما يشبه هذا الكلام من زوجات الرحالة والمبعوثين، وحتى من خادماتهنّ اللواتي يرافقنهن. فحين يُفتح موضوع إدارة العثمانيين، يُلمح دائماً إلى أنكم لا تمتلكون القدرة والموهبة على القيادة بشكل حقيقي... حتى إنهم يعتبرون النجاح الذي تمّ تحقيقه في فتح بلغراد ورودوس، وحتى في معركة موهاتش عائداً إلى تدبيره هو وليس إليكم أنتم... ويسألون مَنْ القائد الحقيقي؟ هل هو سليمان أم إبراهيم؟ سليمان أم إبراهيم؟".

كانت هذه الكلمات تسلك طرقاً سرّية من ذهنه إلى ظلمات روحه: "إذا لم يكن أمره بإعدام صديقكم الشاعر فيغان من دون علمكم تمرداً عليكم، ومحاولة للتحرر منكم فماذا يكون؟ ماذا عن

ألاعيبه كلها، وخسارة فيينا بعد أن كانت في راحة يدكم نتيجة عقده الشخصية؟ إنه يتبنى الانتصارات سرًّا، ويدفع الفشل نحوكم بمهارة...".

الأكثر إيلاماً كان ما يخبئه اللسان المراوغ الماهر إلى النهاية: "وإسكندر جلبي؟ ماذا أراد من الإساءة إلى رجل عالم وعادل بحاله وذاته وتعتمدون عليه كثيراً؟ إنّ أبسط نفر في الجيش يعرف أن غُلامة بيك هو المسؤول عن كارثة جبل قزلجا... ولكن لا، استمر بتسميم عقلكم لإقناعكم بأن المسؤولية تقع على عاتق جلبي... وقصده الأساسي هو التملص من المسؤولية، وعدم السماح لأحد بأن يجد طريقاً إلى قلبكم باسم عدم إظهار تصدع في السلطة...".

وفتحت الدفاتر القديمة من دون أن تشعره: "لم تأخذوا محاولته قتلي وقتل أولادي على محمل الجد، وكان صديقكم الذي تنادونه أخي من دون أن يستحق هذا ماهراً جداً بإرسال الناس إلى الجلاد عبر ألعابه المختلفة يا سلطاني. يا حياتي، ويا روحي، ويا سلطاني حاكم العالم. ألا تبحث عيناكم عن عبدكم إسكندر جلبي الذي أسلم روحه وهو صائم في يوم رمضاني نتيجة فتنة منافق، وخاصة في هذه الأشهر الحرم؟

هل يعتقد ذلك السافل أن عمله التجاري السري مع ضباط الإنكشارية في المدينة غير معروف؟ أيليق بصدر أعظم أن يخرق القوانين بنفسه يا سلطاني؟ هو أيضاً يعرف أنه لا يمكن إخفاء رمح في كيس، ولكن مشكلته الأساسية تكمن في ازدياد محاولاته لمنافستكم بالتدريج. من يرى خيمته وحراسه وحاله عند الخروج في حملة يعتقد أنه الحاكم الحقيقي. حسنٌ، من سلطان السلاطين في الحقيقة يا سيدي؟ من سلطان السلاطين؟".

كان سليمان خان يشعر بضيق شديد. فذات ليلة من أواسط شهر شباط، عندما كان مبعوث فرنسا جين دو لافوريت الذي ذاعت

شهرة موهبته السياسية في العالم كله في بيت العرش، ووُقعت اتفاقية استسلام تعطي فرنسا امتيازات تجارية واسعة بهدف إثارة انتفاضة ضد الهابسبورغيين، ذهبت السلطانة حُرّم إلى غرفة السلطان الخاصة التي صار يقضي فيها أوقاتاً أكثر مع أحجاره الكريمة، وقالت بعد حديث مريح: "لن أتكلم كلمة واحدة في هذا الموضوع، وسأترككم لضميركم. ولكن، هناك شيء أخير لا بد لكم من معرفته. هذا الأمر لا يتعلق بكم فقط، بل بذكرى والدكم الأصيل أيضاً...".

زأر سليمان خان قائلاً: "كفى". ووقف أمام السلطانة حرم بقامته المهيبة، ولكنّ وجهه رق بعد ذلك، وقال بموقف يائس وهو يشعر بالسأم: "قولي، ماذا تريدينني أن أفعل فعلاً؟".

كانت عينا المرأة الفتية اللتان تقدحان شرراً تحت القبعة المخروطية ذات الألماسة حادتين: "يا سلطان سلاطيني الشهم وطيب القلب والطاهر، مع الأسف، هذه ليست قضية بسيطة مثل ملئه الحَرَم بأجمل فتيات العالم من أجل تبريد العلاقة بيننا".

قطّب سلطان السلاطين جبينه بقوّة وقال: "أنت تعرفين أنني إلى اليوم لم أفضّل عليك أي امرأة. ووزّعت حرمي بيدي عدة مرات. ولكنك رجّفت العالم بغيرتك التي أنهكتنا معاً".

ضحكت حُرّم بصوت يملأه الألم: "قلت لك يا سلطاني، هذه لم تعد قضية بسيطة لا يجب أن أتوقف عندها".

"ماذا هي إذاً؟ الحياة تتعبني كفاية، لذا رجاء، يجب ألا يقلق أحدنا الآخر أكثر بموضوع إبراهيم. ألا ترين المأزق الذي أجد نفسي فيه يا حُرّم؟ إذا لم تفهميني، فمن الذي سيفهمني؟".

لأول مرّة، استطاعت السلطانة حُرّم رؤية حبات سنبلة النصر تلمع مثل فلزات الذهب، وقالت بهدوء: "محمد بيري باشا".

"ماذا تريدين من المرحوم؟".

تنهدت حُرّم مهمومة كالذين يعرفون الكثير، وبقليل من المبالغة قالت: "من الذي حرّض محمد أفندي الذي لقي جزاءه بإذن الله بعد أن قتل بيري باشا برأيك؟".

ها هي تبدأ مجدداً... في كل مرّة تدفعه وسط متاهة تلك الجدران المغطاة بالنباتات المتسلقة السامة المظلمة، وتستمر بذلك التعذيب... "كفى يا حُرّم. لم يؤدِ ذلك التحقيق إلى نتيجة، والذنب غير المثبت يعتبر ضد مجهول حكماً".

فتحت حُرّم يديها إلى الجانبين، وبصوت مقنع قالت: "هناك شهود يا حاكم العالم. قبل وفاة محمد أفندي بالحريق، قال هنا وهناك إنه موعود بقيادة موقع روملي العسكري، وبتأثير المشروب ترك خلفه الكثير من الشهود".

"حسنٌ، ما علاقة كل هذا بإبراهيم؟".

"سيدي، فكر بعلاقته الوثيقة بأميرنا مصطفى خان الذي دخل الآن سن البلوغ!".

قطّب سليمان خان وجهه بتعبير مفكر وقال: "إبراهيم يحب مصطفى منذ صغره. وهما يمضيان وقتاً طويلاً معاً؛ كأب وابنه...".

"ألم تفهموا حتى الآن؟".

احتد سليمان خان، ووضع قبضتي يديه المضمومتين على خصره قائلاً: "حُرّم، لا تنسي مع من تتكلمين!".

تابعت حُرّم لأنها تعرف جيداً أن مشكلة زوجها ليست معرفته ثغرات صديقه، بل عدم تحديده المدى الذي يمكن أن يسكت عنه: "يا سيدي الطاهر، أنتم تعلمون أنه لا يمكن لأحد إلا إبراهيم أن يقنع محمد أفندي بهذا العمل. يقولون إنه خدع الرجل بوعده برئاسة موقع روملي

العسكري. ليس لأحد سوى البرغالي صلاحية منح المواقع وسحبها من بعدك. ولكن صدركم الأعظم فهم في ما بعد أنه أخطأ بتوقعه إمساك ذلك السكير لسانه بعد أن انقضى الأمر. ولأنه يعرف أنكم ستحققون بهذه القضية، راح محمد أفندي ضحية حريق مشبوه. بالنتيجة، لم يتخلص إبراهيم للحظة من خوفه من أن يعود محمد بيري باشا إلى موقعه. لذا، خدع ابنه، ووعده بمنحه النقود والمنصب، وجعله يقتل والده المسكين المسن! ومن المحتمل أن يكون قد استخدم ذلك السم الفظيع الذي يعرف سره".

أرعد سليمان خان: "هل صدّقت هذيان سكير؟".

"... نية إبراهيم اليوم أن يكون وصياً على الأمير مصطفى خان، وأن يحكم الدولة العثمانية وحده... سيقلب نظام أبناء عثمان، ويؤسس سلطنته الخاصة. يكفي ويزيد أن نستعرض ماضي هذا الرجل لمعرفة ما يخطط له حالياً. ولكن، عليكم أن تدعوا جانباً شعوركم العظيم بالإخلاص والمودة! كلنا في خطر يا سيدي، أنتم، وأنا، وأولادكم، وبالنتيجة أبناء عثمان، وأخيراً الدولة العلية... رجاء، اسمعوا صوتي... طالما أنّ هذا الرجل يتنفّس فلا أحد منا بمنأى عن الخطر...".

صمت سليمان خان هذه المرّة. كان هذا الصمت أول نماذج صمته العميق المَرضي الذي سيستمر حتى آخر عمره. وبرزت العروق على بياض عينيه وتجمع فيها الدم، وزم شفتيه بقوة حتى تحولتا إلى خط أبيض. وكان البرق المبهر الذي يقدح بشكل متتالٍ في ذهنه يبعث الحياة في بعض المشاهد؛ فيُنار وجه الشك الفظيع المُشوّه من بين الظلال الداكنة للحظة، ثم يغوص في الظلام مجدداً.

كان فهمُ كيفية نشوء الأفكار المظلمة وتطوّرها في ذهن هذه المرأة صعباً على سليمان خان كصعوبة فهمه حدود السموات

والأرض؛ ولكنها للأسف معقولة. رفع قبضته ونـزل بها على طاولة الزان بيأس وغضب فظيعين على الرغم من أن هذا التصرف ليس من عادته. فبدا لحرّم وكأن مجموعة الكتابة من ريش الطاووس، والمحبرة الكريستالية البندقية المليئة بالحبر، والكأس المنحوتة من حجر نادر فيه رمل تجفيف بدرجات الأحمر والكحلي، والزهرية المزركشة التي وُضعت فيها خرائط العالم المعروف، والكثير من الأوراق القيّمة قد قفزت في الهواء لحظة توقف الزمن. تشقق سطح الطاولة السميك الذي صنعه المعلمون الأوزبك بمهارة من المنتصف، وانقسم السطح اللامع مثل أفكار سليمان خان التي يثق بها حول الحياة.

وبعد ذلك، تطوّر كل شيء بسرعة كالحلم. فلم تتركه اللحظات الفظيعة التي تقوي الصمت المدفون داخله خلال كوابيس الليل أو أحلام اليقظة المتدفقة على مدى عام.

V

15 آذار 1536

في أمسية الثاني والعشرين من رمضان، أفطر السلطان في الغرفة الخاصة مع أصدقائه القدامى برفقة حديث يذكّر بالأيام الخوالي. وبعد صلاة التراويح، استمعوا لساعات طويلة إلى أناشيد وأدوار بأصوات مؤثرة جداً برفقة موسيقيين يدخلون القلب مباشرة. وكأن بعض المشاعر المؤجلة على مدى سنوات من دون سبب وبدأت تتعفن قد وصلت للكمال للتو.

ألقيت أشعار لخيالي وذاتي ولطيفي، وتُوِّجت بأبيات فضولي التي يحكم فيها على الزمان. همس إبراهيم نحو خرابات روحه الرمادية:

"الآن اكتمل. هنالك بُعدٌ بيننا منذ سنين لم يُفصح عنه، ولكنه اكتمل اليوم". ومع شعورٍ رائع بالخفقان في أعماق قلبه، سيطرت عليه رغبة بالبكاء، وكانت مقاومة هذه الرغبة صعبة.

وبعد مُضي زمن مجهول، بدأ سليمان خان بقول قصيدة كتبها في ذلك اليوم:

"هل لديه روح ليبحث عن حب،

وهل تليق السلطنة بأحد مثلي لتبحث عن أحد؟

من كثرة جور الجفاء صار الوفاء نادراً

من يعرف قيمته يبحث عنه بكل ما أوتي

كان قلبي يحترق وأنا وحيد في مجلس الغمّ

بقيتُ حتى الضحى أبحث عن نار في مملكة الليل

لن ترى مثل روحها في الأرض الواسعة

يجب أن تبحث عنها في حدائق الورد

يعجبك على الرغم من أنه يحرقك

يا عشاق، ابحثوا مع سلمان الفارسي"

وصل الانفعال إلى حده الأقصى تحت أضواء القناديل الزجاجية والشمعدانات البرونـزية المرتجفة ببطء. كان إبراهيم ممتّعاً بسحر الكلمات، وكأن الزمان في الغرفة الخاصة يتشكل ببنية أخرى، وترتفع جدرانه المبجّلة ببطء حوله.

ثمة رائحة مطر وهواء ينقر الزجاج بخفّة. كان الجو دافئاً بشكل غير معهود في مثل هذا الوقت من الفصل. قال إبراهيم لنفسه: "يقترب الربيع وعيد الفطر". وابتسم. نعم، لديه مخططات واسعة تتعلّق بفتح إيطاليا مع سليمان خان. فكر بأن إيطاليا كلها تنتظره ليفتحها. هتف

نحو السماء الرصاصية داخله: *سأغدو فاتح روما...* وشعر بالدوار مجدداً. لم يكن يدري سبب الدوار. أهو بسبب عظمة خياله؟ أم كِبَر قطعة القطائف التي أكلها بسرعة. لقد أفرط في تناول الحلويات على الإفطار بالتأكيد، وإذا لم ينم قليلاً فإن هذه السعادة ستبقيه على الخط الفاصل بين الحلم واليقظة.

نظر سليمان خان بعينيه اللوزيتين اللتين تبرقان كالكهرمان إلى ظل وجه صديقه طويلاً، وقال: "هنا يكمن حل كل المشاكل بيننا وبين شارلكان يا إبراهيم. ولكن، إذا فهم كارلو أن جدي الفاتح قد حسب الأمر من كل النواحي، وأنني أدركت هذه الفكرة التي لم يسعفه عمره من أجلها، فسيدرك تماماً أنه لا جدوى من منافستنا".

كحّ إبراهيم قليلاً، وقال: "ولكن سقوط كنيسة روما يعني حصول البروتستانت على قوة أكبر من اللازم يا سلطاني. أنتم تعرّفون البروتستانتية بأنها العودة من العهد الجديد إلى العهد القديم، وتتحدثون عن أهمية مراقبة التطورات. السيطرة على الكنيسة الكاثوليكية بالكامل تعني توجيه ضربة كبيرة لها، وفتح الطريق أمام القطب الآخر لفرصة تأسيس تحالف أكبر. وسيحدث هذا بسرعة إلى درجة أننا لن ندرك كيف ستنقلب تلك الأمور عكسياً".

جمع سليمان خان أطراف قفطانه وتابع: "طريق العقل واحد يا إبراهيم. وأنا أيضاً أفكر هكذا يا أخي. تحالف كنائس الشمال، وبنيتها العدوانية والدنيوية الرافضة تقريباً لجوهر عقيدتها، ينبعان من تسلط الفاتيكان الظالم على الإنسان الأوروبي على مدى عصور. إذا وضعتُ الكنيسة الكاثوليكية تحت حمايتي كما تسلّم جدي الفاتح رعاية الكنيسة الأرثوذكسية، فيمكن أن أعيق اتفاقاً بروتستانتيًّا في الشمال، وأضعه تحت السيطرة".

قال البرغالي وفي عينيه الزرقاوين تعبير شك: "غير هذا، يجب ألا ننسى خطورة نشوب حرب صليبية في هذه الأثناء. فمن الممكن أن تُعد حملة مشتركة بين الكاثوليك والبروتستانت. لدى البابا بولس تيرتيوس موهبة كبيرة بالإقناع، ونعرف أنه خطيب ناجح".

"لا يجتمع اللوثريون والكاثوليك حتى إذا خربت الدنيا يا إبراهيم. موقفنا الحكيم بنى بينهم جداراً لا يمكن تجاوزه يمنعهم من التوحد إلى ما لا نهاية. لا مجال للقلق من هذه الناحية".

هز إبراهيم رأسه إلى الجانبين، وتمتم: "على الرغم من موقف اللوثريين المحق، فإنّ لديهم جانباً يقلقني يا سلطاني. هناك الراهب الشاب جين كالفين الهارب من باريس. اضطر للهرب إلى سويسرا بعد أن نشر أفكار لوثر، وهو يعمل على بناء تنظيم في البلد كله. لجأ إلى عناصر الهلال مرتين إحداهما في لوزيرن، والثانية في بيرن نتيجة ملاحقة عناصر الصليب الحديدي له، واختبأ في إحدى المقاطعات الحراجية في الجنوب. والآن، يلمع كل فترة من أجل المحافظة على أنصاره. ويمكننا القول إن الذين يلاحقونه كانوا أنجح من جماعة لوثر بتحوّلهم إلى مظهر التجار الأغنياء. وهو ينصح أتباعه دائماً أن يكونوا أصحاب ثروات، ويدعي أن التواضع والزهد بملذات الدنيا يحوّلان إلى العبودية، ويضرب على هذا أمثلة من العهد القديم. ولكنه يتمادى بالقول إن النصارى الجيدين يجب أن يتوجهوا إلى الفائدة ويغتنوا؛ لأنه لا يمكن الوصول إلى القوة العسكرية والسياسية إلا بالرأسمال القوي".

تحدث السلطان بتعبير الممتعض: "عندما ستحظى الجغرافية التي يسيطر عليها أتباع لوثر وكالفين بالغنى الدنيوي قريباً، فسيلف العالم جيلٌ جديد محروم تماماً من العقيدة يا إبراهيم. لعن الله الغنى عن طريق تحريف المحظورات الدينية بجعلها من صلب الدين".

"هل الغنى الدنيوي سيئ يا سلطاني؟ لقد رأينا كم صعبت علينا الأمور عندما بدأ دخل التجارة ينخفض. غير هذا، لقد توصّل العدو إلى القوة الاقتصادية التي تمكنه من تطوير الأسلحة النارية. يمكننا أن ننشئ على هذه الأرض طبقة غنية جديدة بإغماض أعيننا عنها مقابل ضريبة كبيرة. ستكون الضريبة هي المصدر الأول للمالية في العصر الجديد".

أجاب سليمان خان وعلى وجهه تعبير المفكر: "الطبقة التي تغتني تجعل الفقراء درجاً تصعد عليه. وسيضطر الفقير إلى تقسيم الخبز الذي بيده إلى نصفين. نصف له، ونصف للغني... هل هذا عادل؟ كيف يمكن للدولة أن تغمض عينها عن هذا يا إبراهيم؟ إذا كنا نعيش على هذه الأرض، فهناك حياة تحتها. طالما أنني وأولادي أحياء، فلن تجد أفكارٌ خطيرة من هذا النوع طريقها إلى أرضنا. وإذا كان هناك من يضع عينه على مكاننا، فعناية جناب الحق ستشير لنا نحوه".

شتت الصمت العميق في الجوار انتباه إبراهيم، ولهذا لم ينتبه لعبارة السلطان الأخيرة. وسأل وهو يلتفت حوله: "ليت الموسيقيين بقوا قليلاً أيضاً يا سلطان سلاطيني. ما أجمل استمرارهم بالعزف ونحن *نفضفض* لبعضنا هكذا بعد مرور زمن طويل".

فجأة، انقلب قلبه داخل صدره انقلاباً لم يعطه معنى، ودار رأسه بقوة أكبر، ونادى أحد الخدم الواقفين عند الباب بطريقة اعتيادية: "بنيّ، افتح إحدى هذه النوافذ قليلاً. لقد ارتفعت حرارتي كثيراً، لا بدّ أن سوء الهضم هو السبب". رأى أن طلبه شيئاً ما وهو في حضرة السلطان من دون أن يستأذنه عبثي. بأي حق يتجرأ على هذا؟ انتبه مندهشاً إلى أنه لم يعط تفصيلاً مهماً كهذا أي أهمية. غضب حينئذ من حساسيته تجاه هذه القضية. بعد ذلك، وجد أنه بحاجة إلى النظر إلى

عيني سليمان خان، أو على الأصح إلى أعماق عينيه. والتفت نحوه وهو يلوك عبارة: "العمر يتقدم يا سلطان سلاطيني. قريباً سأدخل سنتي الثالثة والأربعين. لم أعد شاباً كما كنت".

ارتشف سليمان خان من شراب الخوخ الأسود والتوت الجبلي الذي بيده. ثم وضع الكوب الخزفي على الصينية الكبيرة، وبدأ ينظر إلى صديقه نظرة اعتذار، أو نظرة خجل على الأغلب.

قال البرغالي: "ما الأمر؟ أنتم أيضاً جمدتم فجأة يا سلطاني".

"أردت أن أشكرك لأنك لم تمتنع عن مصاحبتي للحظة طوال تلك السنين يا إبراهيم".

تشنجت خطوط وجه إبراهيم الأسمر بتعبير المندهش وقال: "روحي فداء لكم يا سيدي. أصلاً، لا يمكن أن يكون في هذه الدنيا ما يساوي شرف التقرب من جنابكم العالي".

قطّب سليمان خان حاجبيه فوق عينيه البراقتين، وتمتم قائلاً: "الصعوبات التي يعيشها من هو في وضعي معروفة".

انتظر إبراهيم لكي يفهم إلى أين ستؤدي كلمات السلطان. قال سليمان خان: "الصداقة، كم هي رائعة! لن يكون لديّ صديق مثلك يوماً يا إبراهيم. يريد القلب أن تفكر أنت أيضاً على هذا النحو".

شعر البرغالي بالسعادة تمزّق صدره. وتدفقت الدموع من عينيه: "وأنا أعتقد هذا يا سليمان... وأنا أيضاً يا أخي...". أصاب رأسه دوار فظيع، وحاول وضع يديه على الفراش الذي يجلس عليه لكي يوازن نفسه. وتمتم بصوت مخنوق وهو يجفف دموعه: "هذا كثير على عبد عاجز مثلي يا سلطاني. يبدو أنني يجب أن أرتاح".

قال سليمان خان: "تمدد. تعال، ضع رأسك على ركبتي يا أخي".

لم يُصدق إبراهيم أذنيه، وبدأ ينشج بالبكاء: "سيدي، أعرف أنه كان لدي في الفترة الأخيرة بعض التصرفات والقرارات الخاطئة، ولكن...".

"دعك من هذا الآن يا إبراهيم... دعك من هذا يا أخي... تعال إلى هنا...".

أسند سليمان خان ظهره وهو يجلس على مقعد الديباج، وعدّل قفطانه البروكار المعطر فوق ركبته: "هكذا هي الحياة يا إبراهيم، لا أحد منا معصوم عن الخطأ يا أخي. ازدياد قوة أعدائنا من يوم إلى يوم يوقعنا بالخطأ... والعالم يتغير... هل اشتقت لوالديك يا إبراهيم؟ هل مضى أسبوعان على ذهابهما؟ احك!".

"نعم يا سلطاني... وضعنا شوق سنين في عدة أيام... وذهبا بعد ذلك...".

"هل استطعت معرفتهما؟ هل تغيرا كثيراً؟".

قال إبراهيم بصعوبة وهو يشعر بجفنيه ثقيلين كالرصاص: "نعم. ولكن، ما زال والدي لوسيانو يذهب إلى البحر كما كان، ووالدتي دسبينا تعد بنفسها مختلف أنوع المربيات والقديد...". وضحك...

قال سليمان خان بصوت مرتجف: "يا صديقي، يا صديق روحي...". وبدأ يداعب شعر أخيه...

نظر البرغالي إلى عيني سليمان خان وهو يتمتم: "الصداقة، يجب أن تكون الصداقة هكذا... هممم... يجب أن تكون الصداقة مثل وردة تشرين الأول الأخيرة التي تتفتح عند الانتقال من الخريف إلى الشتاء...".

همس السلطان: "الصداقة مثل الورود في الظلمة الدامسة يا أخي".

تابع البرغالي فيما كان النوم يخدر أعضاءه كلها: "الصداقة... يجب أن تكون الصداقة مثل قبلة الأم عند الفجر...".

قرعت الريح النوافذ، وأججت النار في الموقد فجأة. كان سليمان خان يبكي: "الصداقة مثل قُبل الأمهات جميعاً يا أخي".

نخر إبراهيم بصوت خنقه النوم: "يجب أن تكون الصداقة هكذا... كيدٍ دافئة ممتدة في الظلام...".

"الصداقة... يجب أن تكون الصداقة كالموت في حضن صديق...".

"الصداقة مثل الاتكاء على ركبة صديقك إلى ما لا نهاية يا أخي".

* * *

عندما استيقظ إبراهيم بعد فترة طويلة، رأى نفسه وحيداً في الغرفة الخاصة الفسيحة. كم نام هكذا؟ شعر وكأن رأسه قد ضُرب بمطرقة خشبية. "لماذا أنا هكذا؟". ورأى ليلاً رصاصياً عندما نظر عبر النافذة. تمتم لنفسه: "يجب أن يكون الإمساك قد حلّ". حاول أن ينهض، ولكنه شعر بثقل فظيع، وارتخت عضلاته، وآلمته مفاصله. "أنا مريض...".

في تلك الأثناء، شعر بحركة غير واضحة عند الباب فقال: "سلطاني!". وحاول النهوض مجدداً، ولكن ذراعيه ارتختا لعدم استطاعتهما حمله. "ما بي؟ لم أنا هكذا؟".

في ما بعد، دخل أحدهم... كان مألوفاً لديه. وجهه مألوف جداً، ولكنه لم يستطع معرفته لفترة. في الحقيقة، إنّ التناقض بين الرجل والمكان المهم والمبجّل شوش ذهنه. ما عمل رجل كهذا هنا؟

"عمر... عمر الأسود؟".

قال الجلاد العملاق وهو ينحني باحترام: "هذا أنا يا باشـــا". في الضوء الخفيف، كان وجهه الأسود من دون أي تعبير؛ كما هو عادة. وكان رأسه الأقرع تحت الطربوش الأحمر الضيق لامعاً بالدهن ولــيس أقل لمعاناً من أسلحته التي وضعها تحت زناره. انتفخت عضلات كتفيه العريضتين كما يحدث قبيل إقدامه على عمل مهم عادة، وفتح ذراعيــه اللتين انتفخت شرايينهما إلى الجانبين.

سأل إبــراهيم مندهشــاً: "مــا الأمــر يــا بــني؟ لم أنــتَ هنا؟".

"أتيت من أجلكم يا باشا".

فجأة، شعر إبراهيم بثقل شديد الحمرة في رأسه. "ماذا؟ لماذا؟ أنا لم أطلبك...". وشعر بأن لسانه مخدر، ويتراجع متلوياً نحــو بلعومــه. وامتدّت الرعشة التي بدأت من جــذور شــعره إلى جســمه كلــه، واجتمعت حرارة جسده وسط صدره. فجأة، فهم سبب ذلــك الألم غير المعتاد والدوار الذي شعر به في رأسه. لا بد أن شيئاً ما مما أكله أو شربه على الإفطار فيه عقار. لعل استيقاظه لم يكن بالحسبان. ســينهي عمر حياته بسوطه المدهون بالزيت. ولكنه الآن تملص مــن الخــوف الشبيه بالجليد، والذي سبّب له حالة من الجمود.

قال عمر باحترام شديد: "إذا كانت لديكم رغبة أخيرة فســتُلبى يا باشا".

فجأة، خطرت السلطانة حُرّم ببال البرغالي، وهبطت على معدته قطعة صخر، واستقرت. سأل محافظاً على هدوئه: "أين سليمان خان؟ أنا أرغب في رؤية سلطان سلاطيني. الآن، وفوراً! هيا يا عمر، لمــاذا تقف يا بني؟".

"لن يقابلكم حضرة السلطان يا باشا".

"ما الذي يعنيه هذا يا عمر؟ ألستُ الوزير الأعظم يا بني؟ ما هذا الآن؟ بماذا قصّرنا؟".

كرر عمر من دون أن يجيب عن هذه الأسئلة: "اسمحوا لي إذا لم تكن لديكم رغبة أخيرة يا باشا". أخرج الأسود من زنار سرواله الأسود قراراً سلطانياً، وقبله ووضعه على رأسه، واقترب من إبراهيم، وقدّمه له.

عرف إبراهيم فرمان الإعدام الذي كثيراً ما كتب مثله اعتماداً على صلاحياته فوق العادية. الفرق هو جلب الفرمان هذه المرّة بمحافظة فضية تستخدم في القضايا الهامة، وعليه خاتم سليمان خان.

نادى موجهاً نداءه نحو الباب التي تهتز أمامه ستارة بهدوء في الطرف الآخر من الغرفة المظلمة: "سلطاني!" لأن سليمان خان كثيراً ما كان يرتاح في ذلك القسم، ويصلي. "سلطان سلاطيني! ما هذا الأمر يا سلطان سلاطيني؟".

كيف يحدث هذا؟ من المستحيل أن يحدث هذا بشكل تلقائي. أما كانا في هذه الليلة قريبين من بعضهما كما لم يكونا منذ سنين؟ ألم يكن السلطان نفسه من سمح له بالنوم على ركبته؟ هل الأمر سهل إلى هذه الدرجة؟ أم إنه يرى كابوساً؟ طبعاً... لا يمكن عيش وضع كهذا إلا في كابوس سيئ.

حين كان عمر الأسود على وشك التحرّك، رفع إبراهيم يده بحزم، وقال: "قف! حسنٌ!". ونهض غير مبالٍ بدوار رأسه، وأخذ المحافظة، وقبّلها، ورفعها إلى رأسه، ثم أعادها حسب قواعد الأدب. وبعدئذ بدأ بخلع قفطانه الثمين. حاول الجلاد فهم ما إذا كان هذا يعني التسليم أم مقاومة الموت حتى النهاية؟ وعلى الرغم من تخصصه في هذا المجال، فإن رجال الدولة والعسكريين الكبار يحاولون دائماً مقاومته في اللحظة الأخيرة. كان يعلم أن إبراهيم باشا لن يتقبل بسهولة انتقاله من

وضع الرجل الأقوى إلى لا شيء في ليلة واحدة، ولهذا السبب كان أجراؤه ينتظرون صفيره عند الباب وهم مستعدّون.

نادى إبراهيم للمرة الأخيرة بكل قوته: "سليمان، ساعدني يا أخي!". ولكن صمتاً مميتاً كان يلف القصر من الداخل إلى الخارج. انتبه إلى أن ضوءاً زهرياً بدأ يلف حواف الغيوم الرصاصية، وعندها سأله: "ستسمح لي بأن أصلي الفجر، أليس كذلك يا عمر؟". شعر وهو خائف أنه لم تعد هناك قوة في ركبتيه.

وافق الجلاد قائلاً: "على رأسي، ولكن أسرعوا لأن سلطاني ينتظر النتيجة. لا يجوز التمهّل".

"ليتني أرى زوجتي للمرة الأخيرة، وأكتب سطراً لكل من أفراد عائلتي وأصدقائي".

قال الجلاد بحزم: "هذا لا يجوز! ليس لدينا وقت كافٍ. أصلاً، لم يكن استيقاظكم بالحسبان. فقد حضّرت العقار الذي أعطيتم إيّاه بنفسي، وحرصت على أن يكون قوياً حيث إنه ينوّم دباً رمادياً اثنتي عشرة ساعة. وبما أنكم قد استيقظتم، فعلينا أن نرضخ لتقدير الله، ونقوم بالتحضير لهذا يا سيدي. هكذا يكون الأمر أسهل".

كان إبراهيم يعرف أن الباب الرئيس ليس المخرج الوحيد. يستحيل الهرب من النوافذ لأنها مغطاة بالشباك، ولكنْ لو استطاع الوصول إلى غرفة الاستراحة الخلفية، لتمكّن من التسلّل إلى الخارج من فتحة التهوئة الخالية من الشبك. في الحقيقة، هناك حراس في كل مكان، ولكن ليكن. لديه فرصة طالما أنه يتحرّك. ابتسم بشكل غامض وهو يهمس: "أخيراً، حدث ما أردتِه يا حُرّم. ألم أكن أنا الذي أدخلتك هذا القصر يا حُرّم؟ ألست مدينة لي بكل ما لديك؟ ماذا فعلت معك يا وهيمي؟ ماذا فعلت بكما؟!".

ستكون لديه فرصة واحدة. الجلاد لا يقف أمام أي باشا هذا الموقع مع أجرائه. كان هذا مخالفاً للتقاليد. لأنه من غير اللائق أن يشهد أبناء الطبقة الدنيا على اللحظات الأخيرة لرجل دولة، وعلى ذكرى يمكن أن تهينه. قال إبراهيم في سرّه: "أستطيع أن أنجح. ما زلت قوياً وسريعاً، لم لا؟ ولكنني إذا لم أنجح، فستصادر كل أملاكي كعقوبة لي على مقاومتي، وسيُباع دخل أراضيّ بالمزاد العلني، وستنتقل أسلحتي وأغراضي الثمينة وتماثيلي وكل مدخراتي القيمة الموجودة في مستودعاتي إلى معشر النَوَرِ هؤلاء".

خلع الخواتم القيّمة من أصابعه، والميدالية ذات السلسلة الفضية وأهداها للجلاد. ثم أعطاه من كيسه بقشيشاً كبيراً كما تقتضي العادة لكي يقوم بعمله جيداً. شمر عن ذراعيه، وتوجه ناحية الطست والإبريق النحاسيين المذهّبين. كان يعرف أن هذه هي فرصته الوحيدة. وإذا حدثت أعجوبة وقضى على عمر الأسود بضربة واحدة، وتجاوز الحراس، فمن الممكن أن يخرج من القصر من دون أن يضيّع وقتاً، وأن يركب المركب، وينتقل إلى أسكودار. عندئذ ليبحثوا عن إبراهيم، وليجدوه إن استطاعوا.

لكزه ذلك الوهم المتموج المدعو زماناً، ولفه الخوف والرعب كما يحدث في الكوابيس حين مرّ بجانب الجلاد. كان يشعر بروحه العارية تماماً تمس الموت الشبيه بالجليد الذي يحطّم كل قيم الحياة العادية. وعلى الرغم من هذا تحرك. ولكن، بدا له وكأن لكمته الثقيلة التي هوت فوق أنف عمر قد تقدمت في سائل لزج ثقيل. كان مترنحاً تحت تأثير العقار والخوف، ولا يبدو أن الجلاّد والماهر الذي يقف أمامه ستهزّه لكمة عادية. تراجع عمر قليلاً، وتلقى الضربة على طرف حنكه؛ تراجع خطوة أو خطوتين إلى الخلف بتأثير الضربة على الرغم

من توقعه لها، ورفع قبضته الشبيهة بالمطرقة الضخمة. قال صوت مألوف، ومعتاد على إصدار الأوامر: "قف!". التفت إبراهيم آملاً، ولكنه هذه المرة رأى عدواً آخر أمامه. وهيمي أورخون جلبي...

"ابتعد يا عمر!". كان وهيمي يضحك: "هذا يعني أنك استيقظت، وبدأت تحارب من أجل حياتك يا إبراهيم؟ حسنٌ، ماذا سيحدث؟ ما الذي كنت تأمل في تحقيقه لكي تندهش مما أنت فيه الآن؟ هل سيُترك لك عرش آل عثمان؟".

قال البرغالي: "أنت! ها قد حققت مرادك أيها العجوز السافل. أحمد الله لأن موتي سيكون على يد عدو مثلك. شاهدوا إذاً لمن ستؤول الدولة العلية...".

هز وهيمي كتفيه بموقف غير المهتم: "هل تظن أن رجال العثمانيين قد انتهوا أيها الأحمق؟ يذهب إبراهيم، ويأتي ألف إبراهيم. الآن وقت المحاسبة يا إبراهيم. هذا ربيع عمري الخمسون، ولكن بفضلك أشعر وكأنني أولد الآن".

صرخ إبراهيم مجدداً بأمل أخير: "ساعدني يا سلطاني! ساعدني يا سليماني، سيقتلني هذان تحت التعذيب!".

في تلك الأثناء، انتبه إبراهيم إلى تفصيل مؤلم صغير كسر قوته، وجعله يشعر بارتخاء في ركبتيه. إذ تخفي ستارة غرفة الاستراحة الثقيلة ظلاً مألوفاً... ظلاً مألوفاً ومحبوباً جداً...

قفز نحو تلك الجهة وهو يصرخ متأملاً: "سليمان...". ولكنه لم ينتبه للكمة وهيمي الشبيهة بالصاعقة. تفتت حنكه مطقطقاً كغصن يابس، وتداخلت عظامه، واخترقت سقف حلقه. تناثرت أسنانه في الغرفة كحبات سبحة لؤلؤ. وبينما كان ينظر إلى بعض أسنانه، انهار على ركبة واحدة شبه مغمي عليه، ولكنه لم يصرخ. الآن، تحولت

الحياة فعلاً إلى لوحة بوش التي كان يخافها دائماً. النـزيف الداخلي والخارجي في الجزء السفلي من حنكه، والتشوه، والانتفاخ الذي ظهر خلال لحظة، كلها جعلت ذلك الوجه الجميل غير معروف. وعلى الرغم من هذا، ساعده الغضب غير المتناهي على النهوض مجدداً.

قفز وهيمي المستغرب من تحمل ضحيته، وحاول أن يمسك بذراعيه من الخلف، ولكن البرغالي تحرك بليونة أفعى، و لم يخطئه بلكمة نـزلت على عينه كطلقة مدفع. دُفنت عينه في الظلام بعد لمعان برق. حدث الأمر فجأة، وأدرك في ما بعد أنه فقد عينه اليسرى نهائياً. نـزل وهيمي على ركبتيه وهو يئن. كان الدمع المختلط مع الدم يملأ أنفه، لذلك انقطع نفسه، و لم يستطع أن يتكلم. ولكن "عمر" الأسود هب لمساعدته بسرعة، فقذف السوط المدهون بالزيت بمهارة من بعيد، ونجح بلفه حول رقبة إبراهيم بمحاولة واحدة.

كان إبراهيم يبكي. وقطع السوط المدهون بالزيت والملفوف حول رقبته أنفاسه فوراً، وبدأت عظام رقبته تتكسّر. ولكن عينيه كانتا لا تزالان مركزتين على ذلك الخيال المحبب وراء الستارة. نخر ببعض الأمور، ولكن لم يُفهم ما أراد قوله بسبب تفتت حنكه. كانت دموع عينيه تغسل وجهه ولحيته. وكان السوط المدهون بالزيت يضيق على رقبته في أثناء تخبّطه كسمكة عالقة في شبكة. وأخيراً، هذا أيضاً انتهى مثل كل شيء سيئ.

الفصل السابع

حملة بوليا
ومخاوف بربروس

I

"ذهبت ولكنك تركت خلفك الشوق حيث إنني
لا أرغب بحديث محبة من دونك."

الشاعر نشاتي

20 كانون الأول 1536 - الفاتيكان

فجأة، اختفى هديل الحمام الموجود في باحة كنيسة سانت جون لاتيران مركز إدارة الفاتيكان بعد طيران طيور الحمام نحو بروز السطح القرميدي الأحمر؛ لأنّ موعد تبديل مناوبة دورية الحراس السويسريين بألبستهم التقليدية الرسمية الزرقاء والبرتقالية والحمراء والصفراء قد حلّ. وكان الجنود السائرون بخطوات متناغمة وسط الدروع اللامعة يصغون لأوامر ضابطهم الحادة والمتقطعة. التفتوا ببطء نحو الصليب الذهبي الذي يلمع تحت ضوء الشمس المحجوبة بالغيوم الخافت فوق القبة، وتوقفوا، وبقوا هكذا لفترة من دون حركة. أمسك الضابط سيفه على جنبه بوضع التحية، وبدأ ينظر إلى الصليب من دون أن يحرك جفنيه، وفعل بقية الحراس مثله. وعندما أعاد السيف إلى أمام أنفه بعد فترة، انطلق الحراس متفرقين بعد أن خربوا وضعية الاستعداد من أجل اتخاذ أماكنهم. كان الحراس يتخذون أمكنتهم في أثناء تراكض رهبان الفاتيكان تحت أقواس الأعمدة العالية الظليلة.

كان مبعوث البندقية نيكوديمو بينيتي، واسمه الحقيقي أليساندرو فارنيسة، في قصر حضرة البابا بولس تيرتيوس الثالث، في غرفة مكتبه

ذي القبة العالية المرصوفة بلوحات الفريسك المبجّلة. عدّل البابا البالغ من العمر تسعاً وستين عاماً رداءه المخملي الأحمر على كتفيه، والبيلولوم (القبعة الكاثوليكية التقليدية) على رأسه، ومد يده للمبعوث الذي كان في العقد الرابع من عمره مبتسماً ابتسامة غير واضحة.

نزع بينيتي *البيريه** المخملية ذات الأشرطة الجانبية المذهبة والمنفوخة والشبيهة باللفة التركية - وكانت تلك هي الموضة في إيطاليا - ونزل على ركبته اليسرى، وقبّل *خاتم السر* الذي يضعه البابا في إصبع يده اليمنى بتعظيم كبير.

كان البابا يلبس تحت الرداء ثوباً طويلاً أحمرَ تقليدياً يرمز للدماء المبذولة في سبيل الديانة النصرانية. ولهذا توقع المبعوث بينيتي ما سيقوله البابا تقريباً. ولكن وضع البندقية لا يسمح بزيادة مخصصات الفاتيكان، ولقد أمره الملك أندريا غريتي أن يشرح هذا الوضع بعناية.

قال البابا مشيراً إلى أحد الكراسي الضخمة من خشب الجوز من مجموعة تنتمي إلى عصر النهضة ذات زخارف هندسية عند الطرف الآخر من طاولة المكتب قائلاً: "اجلس رجاء أيها المبعوث!". وبموقف حيوي على عكس مظهره انتقل إلى مقعده وهو يرى انعكاس صورته على الغرانيت المصقول، وأمر خدمه بتقديم الشراب للضيف. كان متعباً وعيناه حمراوان.

قال البابا بولس الثالث بصوت متحشرج عندما بقيا وحدهما: "تقدمتُ بالسن يا سيد بنيتي، لم يعد الزمن كما كان... وأنا لم أعد كما كنت في الماضي... لم يعد هناك أي شيء كما كان في الماضي...". تسللت بضع قطرات من الشراب على لحية البابا البيضاء،

---

* ضرب من القبعات.

ولفة عنقه البيضاء الحريرية ذات الزخارف البابوية وهو ينقل الكأس الكريستالية إلى شفتيه، ولكنه لم ينتبه إليها.

"يشتكي الكرادلة أحياناً من شربي أكثر مما اعتدت عليه. حسنٌ، لا يمكننا القول إنهم غير محقين". ضحك بخجل. "ولكنني بحاجة لما يهدئني لكي أدفن الهموم التي في رأسي بشكل سليم، وأتخلص من الألم الذي ينهش قلبي". نظر إلى عيني المبعوث الزرقاوين اللامعتين ووجهه الأبيض الحليق، وقطب حاجبيه الشبيهين بالفرشاة: "لا أحد يستطيع الادعاء أن حياتنا سهلة".

ابتسم بينيتي بموقف متفهم: "لا أحد يدّعي هذا يا صاحب الغبطة".

خيّم صمت قصير، ثم قال البابا وهو يرتشف رشفة كبيرة مجدداً: "أندريا غريتي نصراني جيد. لهذا عليه أن يفكر جيداً بما سأقوله الآن. لم تكن علاقة سلفي كليمنت السابع مع شارلكان جيدة في أي وقت. إذ إنّ زواج هنري الثامن ملك إنكلترا المحرم من آنّا بولينا، وتسببه بتأسيس الكنيسة الأنكليكانية أفقدا شارلكان صوابه. ليسامحه الله على احتلاله روما، وملئه الفاتيكان بالجنود البرابرة، ومحاولته تغيير حكم الكنيسة المبجّل، فقد ازدادت ذنوب القيصر شارلكان. إنه يخاف من تحول الإنكليز عن المحور الكاثوليكي، وأنا أتفهم هذا، ولكن انزلاق الإنكليز نحو الكنيسة البروتستانتية فيه حكمة من الله. القيصر شارلكان حامي العالم الكاثوليكي وراعيه. لذلك كنا مضطرين للتسامح مع ما فعله، والتصالح معه".

وافقه بينيتي: "لا أحد يجرؤ على محاكمتكم يا صاحب السيادة، بمن في ذلك جلالة ملكنا. لا شك بأن كنيسة روما المبجّلة كاشفة الصواب المطلق، ومطبقته من دون كلل. بالتأكيد، إنّ انفصال هنري

عن كاترينا الأرغونية لم يكن ما يرغب فيه البابا كليمنت، بل إنه إرادة الله". وأطرق بنظره إلى الأسفل للحظة. "أنا آسف. نحن لسنا حيوانات يا صاحب الغبطة. لا يمكننا أن نتزوج ثم ننفصل على هوانا. ولكننا الآن نرى بوضوح أكبر من خلال شارلكان إلى أي مدى تجعل القوة الزائدة الإنسان جريئاً".

"الوضع هذه المرة أخطر بكثير يا بينيتي. لهذا أطلب منك أن تلفت نظر الملك العظيم غريتي عندما تلتقيه. لقد بدأت سفن الماكر ذي اللحية الحمراء بربروس تظهر على سواحل بوليا (الولاية الكبرى في جنوب إيطاليا) أكثر من المعتاد". لم ير البابا ضرورة لإخفاء القلق من صوته. وانقطع صوته المتحشرج بفعل السعال لفترة.

"يا بينيتي، همس لي جواسيس الصليب الحديدي أن السلطان سليمان يعيش أزمة نفسية كبيرة بسبب أمره بخنق صديقه المقرّب، وأنه يلاحق عملاً يهز العالم من أجل التخلص من هذه الحالة. وهذا سبب دعوتي لك".

أفرغ المبعوث الكأس بسرعة، ووضعها على سطح الطاولة الزجاجي أمامه، وابتسم بلباقة: "إنّ تعريض علاقات البندقية القديمة مع العثمانيين للخطر يعني خسارتنا جنوب شرق البحر المتوسط كله يا صاحب الغبطة، ومهمتي أن أذكركم بهذا. نعم، في أيار الماضي طلب منا الديوان العثماني عن طريق مبعوثنا في إسطنبول بأن نقطع علاقاتنا العلنية والسرية كلها بالقيصر شارلكان، وهددنا بأننا إذا لم نفعل هذا فسندفع الثمن بالدم والنار في السنة القادمة. ولكننا دولة كبيرة يا سيادة المحترم، ونعرف أن التهديد يبقى كلاماً حتى يتحقق".

نصب البابا ظهره المنحني، واعترض بشكل حاد ولكنه محبب: "إذاً، أنتم لا تعرفون العثمانيين أبداً يا سيد بينيتي. أنا أتحدث هنا عن

السيطرة على إيطاليا كلها. عدم وضع المصالح الشخصية جانباً، يعني غض الطرف عن زوال الكنيسة الكاثوليكية. إذا استمر الوضع القائم فهذا يعني أنني سأحسب حساب ترك إيطاليا. على الرغم من قوتي المحدودة أرسلت ألفي مقاتل إلى أنكونا، وألفاً ومئتين إلى كيتا فيشيا، وخمسمئة إلى أوستيا، وثلاثمئة إلى تراسينا لتقوية الموانئ الهامة، ولكن هذه الإجراءات بالتأكيد ليست كافية".

اعترض بينيتي في أثناء تحوّل بشرته البيضاء إلى الحمرة: "لم يستطع الأتراك تحقيق حلمهم القديم هذا في أي وقت يا صاحب الغبطة. وهم يعرفون أن هذا انتحار".

"العدو أقوى وأجرأ مما كان عليه يا بينيتي. يجب ألا ننسى ابن من يكون سليمان. لم يجد السلطان سليم الجبار فرصة للتوجه غرباً بسبب مشاكل الشاه إسماعيل والمماليك. ولكننا نرى العائلة العثمانية مصرة جداً على إكمال النواقص".

قطّب المبعوث عينيه الزرقاوين الداكنتين، وسأل بموقف متردد: "ما رأيكم بأن إبراهيم باشا كان ينوي القضاء على العائلة العثمانية، وهذا سبب إعدامه يا صاحب الغبطة؟".

هز البابا يده المجعدة بارزة العظام وقال: "من المعروف أن إبراهيم باشا طموحٌ جداً، وعاشق قوة. ليحمِنا الله من عاقبة كهذه". وأضاف: "ولكن هذه ليست قضيتنا يا بينيتي. ما أريده منكم بالضبط أن تتخذوا موقفاً ضد الأتراك يكون مثالاً يحتذي به الفرنسيون".

"أنا آسف يا سيدنا، ولكن يبدو لي أن خروج فرانسوا من تحت جناحي سليمان -كيف سأقولها؟- *مستحيل*. ولن يقترب من هذا أبداً الآن بعد أن حصّل اتفاقية استسلام تجارية زاد فيها امتيازاته".

"إذا أسسنا تضامناً قوياً مع البندقية، فلن تمانع فرنسا كثيراً في موضوع التحالف العسكري. فرانسوا سيترك سليمان في أول موقف صعب، وسينظر في تقوية وضعه أمام شارلكان. إنّ الدبلوماسي الشهير لا فوريت يسيّر العلاقات بين العثمانيين وفرنسا. ليس لدي دليل ملموس بعد، ولكنني واثق أنهم توصلوا إلى اتفاق مشترك. هكذا هي سياسة فرانسوا الأزلية، فهو يلوّح بسيف الأقوى".

فتح المبعوث يديه اللتين كانتا على ركبتيه كحيوانين أليفين نحو الجانبين، وسأل وكأنه يريد أن يتأكد: "وهل دعمنا مهم إلى هذه الدرجة إذا كان شارلكان إمبراطور روما المبجّلة طرفاً في هذا الاتفاق يا صاحب الغبطة؟".

ابتسم البابا بحنان وصبر: "دعمكم مهم إلى درجة لا تتوقعونها يا بني. نعم، سيحمي أندريا دوريا شواطئ بوليا وكالابريا بأسطوله الموجود في مسينا، ولكن بربروس وقباطنته هاجموا أسطول دوريا العظيم في السنة الماضية فجأة، ونجحوا بوضع يدهم على سفينتين منه. لقد أُحبط دوريا حتى لو لم يظهر هذا. إنه يخاف من مواجهة مباشرة، ومن فقدان الأسطول الإسباني كله. لهذا، إنّ وقوف دولة قوية في البحر مثلكم مهم جداً بالنسبة إلى الديانة النصرانية، ويمنح دوريا وفرانسوا الجرأة. غير هذا، إنّ خسارة الأتراك حلفاءهم في أوروبا الغربية ستجعلهم بشكل تلقائي يلغون مخططاتهم للاستيلاء على أوروبا".

نهض بينيتي وعلى وجهه القلق تعبير احترام كبير. انحنى بتعظيم، ونزل على ركبته أمام البابا مجدداً: "أطلب مباركتكم للمكي ولي يا صاحب الغبطة".

نهض البابا، ولمس رأس المبعوث وكتفيه وباركه قائلاً: "انهض يا بني، باركتك أنت وغريتي. اذهب الآن وانقل للملك ما قلته".

II

17 آذار 1537

تحت غيوم شتاء نحتتها شمس المساء من الذهب الأحمر، تكاثفت رائحة الغبار والطحالب. كانت الانعكاسات الفضية على درجات اللون الكحلي تعيد الحيوية بشكل واضح للبحر الذي يزبد بحيوية. قال سليمان خان وهو يتابع موجة جديدة ترتفع نحو رصيف الميناء: "ظهر أن إبراهيم محق في هذه القضية أيضاً يا مبعوثنا في البندقية يونس بيك. فقد كان أول من تحدث عن مهارة البابا الجديد بولس الثالث تيرتيوس بالخطابة، وموهبته بالإقناع. فقد فعل ما فعله، وأقنع ملك فرنسا فرانسوا الأول بعقد هدنة مع شارلكان لعشر سنين. ليس هناك اتفاق معلن رسمياً بعد، ولكن الشائعة مقلقة. حسب ادعائه، إننا عندما نسيّر حملتنا إلى نابولي، فسيهجم فرانسوا بخمسين ألف رجل على لومبارديا، ويساعد خير الدين باشا بأسطوله. ما يزعجنا أكثر هو دخول البندقية بهذا التحالف. تجاوز أندريا غريتي الثمانين، وبسبب صحته التي تسوء من يوم إلى يوم غدا موقعه في الإدارة رمزياً، ولا يعترف مجلس النبلاء بطلباته مع الأسف".

تململ يونس بيك ومسّد لحيته البيضاء، وقال: "تحالف غير متوقع يا سلطان سلاطيني". ينتمي يونس بيك إلى أسرة عمل أفرادها كمبعوثين حتى سابع جد، إضافة إلى أنه موسيقي معتبر. ترك عوده الذي جلبه بناء على طلب السلطان، وكح بشكل خفيف، وتابع: "ولكن، يجب ألا يدهشنا أي تصالح في العالم الغربي. ولا بد لنا من إدخال العلاقات المتوترة مع البندقية في حال من التوازن. إذ سيخسر النشاط التجاري كثيراً لدى الطرفين في حال الاشتباه بنشوب حرب،

وهذا الوضع يسبب خسائر لا يمكن إصلاحها على المدى الطويل يا سلطاني".

نظر سليمان خان إلى خطوط الضوء الكريستالية العقيقية والياقوتية الممتدة من الأفق إلى الأعلى، وقال وهو يفكر: "سرتم تحت تحرشات أسطول البندقية إذاً، أليس كذلك يا يونس بيك؟".

"نعم يا سيدنا. لقد تم تعيين غيرولامو بيسارو أميرالاً عاماً لأسطول البندقية، ومعه عشرة قباطنة أساطيل جدد أصلهم قراصنة. إنهم رجال قساة وغدّارون. حاولوا مرات عديدة اعتراض سفننا بوقاحة، حتى إن إحدى سفن حراستنا تعرضت لصدمة خفيفة من إحدى سفنهم الضخمة الثقيلة العالية. ولولا أن نيتهم كانت إخافتنا فقط، لدفنوا سفن المبعوثين الثلاثة في الماء بنار مدفعياتهم. المزعج أساساً هو المراسلات المتبادلة بين بيسارو ودوريا، وقد حصلت على بعضها من مختلف المصادر، وقدمتها لكم. وهذه الأدلة تحول دون إمكانية إنكار العلاقة بين البندقية وشارلكان".

قال سليمان خان: "تتعبني كثيراً الازدواجية والخيانة والرياء يا يونس بيك". وتنهد، ثم تابع كلامه وهو ينظر نحو غلاطة: "كنا نتمنى من البندقيين في وقت كهذا أن يُقَوّوا تحالفنا مع فرنسا، ويكونوا دواء لتردد فرانسوا؛ لأن فرانسوا - الذي يدين لي بملكه وحتى بحياته - لم يكن في أي وقت حليفاً يمكن أن أثق به حتى النهاية. أصبح لا بد من إنهاء حالة الحياد المسلح للبندقية بشجاعة. بيننا مشاكل كثيرة متراكمة على مدى خمسة وثلاثين عاماً. حل وقت المواجهة. لا يمكن ضم إيطاليا من دون حل مشكلة البندقية. طالما لدينا قائد عسكري مثل الوزير الثالث لطفي باشا، وقبطان بحر مثل بربروس؛ رجلان شجاعان لديهما سعة علم، فلا خوف علينا.

مشكلتنا الوحيدة تكمن في إخراج كبير وزرائنا أياس باشا من حرمه".

ضحك يونس بيك: "لكل شخص نقطة ضعف يا سلطاني".

25 آب - 6 أيلول 1537

تحرك سليمان خان مع وزيره الأعظم أياس باشا على رأس جيش عظيم مؤلف من مئتي ألف رجل على الرغم من وجود ابنيه الأميرين معه محمد البالغ ستة عشر عاماً، وسليم البالغ ثلاثة عشر عاماً. في أثناء نزولهم نحو مدينة أفلونيا عن طريق أدرنة - فيليبة - أوسكوب - ألباسان، كان خير الدين باشا برفقة القائد لطفي باشا ينفذان إنزالاً في أوترانتو الخاضعة للسيطرة الإسبانية. لأول مرة بعد ستة وخمسين عاماً، وبتاريخ 23 تموز 1537 ترسو مئتان وثمانون قطعة بحرية للدولة العلية على شاطئ إيطاليا.

انسحاب الأسطول الإسباني بقيادة أندريا دوريا بشكل مفاجئ، وتركه شاطئ بوليا من دون دفاع أدهشا الجميع وعلى رأسهم القيصر وسلطان السلاطين. عاد دوريا إلى شواطئ جينوفا بذريعة إعادة تنظيم دفاعات شواطئ مرسيليا وجنفيز، وترك خلفه بقايا أسطول مؤلف من خمسين قطعة. من الواضح أنه يؤجل المواجه مع خير الدين بربروس باشا بقدر ما يستطيع. بالنتيجة، استغل الباشاوان بربروس ولطفي الوضع، وأراحا الجيش البري.

في الفترة نفسها، أعلنت بريندسي جارة أوترانتو الشمالية دخولها تحت الحكم العثماني. . لم يُر الخوف الذي خيّم على إيطاليا منذ دخول هنيبعل القرطاجي شمال إيطاليا عبر جبال الألب. أجراس الكنائس قرعت محذرة صباحاً ومساءً، واجتمع المؤمنون منذ الصباح الباكر

للدعاء. وما زاد الخوف كثيراً دخول وحدات الطليعة الأراضي الإيطالية قبل دخول الجيش، وظهورهم فجأة داخل البلد، وأخذهم عدداً كبيراً من الأسرى وكميات كبرى من الغنائم.

في أوائل شهر آب، اجتمع الديوان الموجود في بنية الجيش السلطاني في أفلونيا، وأمر سليمان خان بالتحضير لكل تفاصيل الحملة القادمة. أصرّ خير الدين باشا ورفض الوزير الأعظم أياس باشا، ووافق السلطان على القيام بإنزال في جزيرة كورفو التابعة للبندقية على بعد ثلاثة أميال عن الشواطئ العثمانية. وتقرر استدعاء لطفي باشا المنتظر في إيطاليا مع وحداته بعد معرفة أن الفرنسيين لن يرسلوا الدعم المنتظر. ترك الباشا وحدات حراسة صغيرة في أوترانتو وبريندسي، وانضم إلى الحصار. عارض أياس باشا هذا الأمر أيضاً، ولكن اعتراضه لم يلق آذاناً صاغية. كان معارضاً لحملة فقدت دعم حليف لها، ثم إنه سيُنظر إلى انتقال لطفي باشا على أنه *تراجع* بعد دخوله. ولكن سليمان خان كان يريد نتيجة أكيدة، وحذّر بتعبير حازم على وجهه المتعمقة خطوطه بأنه لن يغفر أي خطأ.

خلال فترة تأسيس موقع قيادة الجيش السلطاني في باتيسكا مقابل الجزيرة مباشرة، سيطر جيش مؤلف من خمسين ألف رجل على جزيرة كورفو خلال ثلاثة أيام، وحاصر قلعة سانت أنجيلو؛ متراس الجزيرة. كان من المتوقع أن يرفض حامي القلعة ياكوبو دي نوفيللو الاستسلام، ولكن إلقاءه رؤوس المبعوثين الذين أوفدوا إليه بالمنجنيق إلى مركز قيادة الجيش العثماني تسبّب بدهشة كبرى. ثم بدأ دي نوفيللو بتقديم دفاع متوازن مع شدة الهجوم بواسطة أربعة آلاف مدفع وأسلحة قوية. كان واضحاً أن القلعة ستسقط عاجلاً أم آجلاً، ولكن أياس باشا انزعج جدًّا من استهلاك أفضل وحدات الجيش أمام قلعة صغيرة قبيل مواجهة

جيش البندقية، وحتى جيش شارلكان؛ وجادل خير الدين باشا بصراحة في هذا الأمر.

ولكن حادثاً مؤسفاً وقع أمام عيني السلطان في اليوم الثاني عشر للحصار كسر اندفاعه للحرب، وجره إلى أكبر أزمة نفسية منذ إعدام إبراهيم باشا.

4 أيلول 1537

قال وهيمي بتعبير جدي إلى درجة أنه بدا ساخراً: "حدث تحالف بين الفاتيكان والبندقية وشارلكان وفرديناند وشريكهم السري فرانسوا في كنيسة سانت بترو". غيّرت الرقعة الجلدية السوداء التي تغطّي عينه اليسرى تعبير وجهه تماماً. استمع سليمان خان إليه وهو يبتسم، إذ إنه لا يريد أن يبعد وهيمي عنه منذ بداية الحملة، وكانا يدخلان حديثاً عميقاً حتى وهما يتناولان الطعام. تابع وهيمي: "لقد تقاسموا أراضينا في ما بينهم. طلب شارلكان إسطنبول، وأخذ البندقيون طالماتشيا وأفلونيا وكاستيلونوفا ليكونوا أصحاب الأدرياتيك كله. وبالطبع تُركت رودوس لفرسان سانت جين".

هز السلطان كتفه مستخفاً، وقال: "البابا مسن ومريض". وبدأ يرشف الحساء بالملعقة. أصغى للعاصفة التي تهز الخيمة السلطانية، ثم أضاف: "هناك مسؤوليات كبرى على عاتق رجل بهذا العمر. ولا يُعرف ما قد يقوله من أجل أن يقنع الآخرين. أما فرانسوا فسيعتبر نفسه مضطراً للتصرف كما لو أنه غير مهتم بهذا التحالف نتيجة شعوره بالذنب، لأنه لم يضع توقيعه على ورقة رسمية حتى الآن. ولكننا سنفقد مكانتنا مجدداً إذا لم نظهر أن البابا والآخرين على حق بمخاوفهم يا وهيمي".

أطرق الجاسوس برأسه وقال: "إذا سمحتم لي فأنا أفكر بطريقة أخرى".

نظر سلطان السلاطين إلى عين وهيمي الوحيدة البارقة بتعبير المهتم، وقال: "تابع!".

"أنتم يا سلطاني، والباشاوات لديكم معلومات موثوقة أكثر في هذا الموضوع بالتأكيد، ولكنني على قناعة بأن هذه هي المرّة الأولى التي يؤسس فيها توازن متين كهذا. ليس هناك ما يجعلنا نقلق طالما أننا نحافظ على قوتنا. سيكون التفوق دائماً لصالحنا".

سأل سلطان السلاطين وعلى وجهه الجميل تعبير تردد وتعب: "حتى لو لم تسقط قلعة كورفو يا وهيمي؟".

كان وهيمي جريئاً كما هو دائماً وقال: "نعم يا سلطاني، حتى لو لم تسقط كورفو". ودفع وعاء الحساء الذي فرغ أمامه.

"تفكيري كتفكيرك بالضبط يا وهيمي. ذكاؤك المتوقد يكفي لفهم بعض التفاصيل من مجرد نظرة. ولكن، عليك أن تفهم هذا من أجل تأمين استمرار الوضع القائم. قلقي هو أن الفتوحات يجب ألا تتوقف. والسيطرة على طرق التجارة لا تقل أهمية عن هذا".

هز وهيمي رأسه وهو يبتسم: "الحروب تميل إلى الجبهة الاقتصادية يا سلطاني. يجب أن نتوجه نحو أمريكا بعد إحكام سيطرتنا على البحر المتوسط مباشرة. يجب أن نؤسس مقاطعات في الهند وأمريكا، وننكب على التجارة العالمية بكل قوتنا. علينا ألا نكتفي بالسيطرة على طرق التجارة، بل يجب أن نتخذ مكاناً لنا في مركز التجارة. عدم وجود مشاكل واضحة في سيطرتنا على ميناء البصرة حتى الآن لا يعني أنها لن تحدث في السنوات القادمة. تعلمون أننا لم نستطع كبح غنى الغرب منذ اكتشاف رأس الرجاء الصالح. وهذا هو سبب ابتعاد شارلكان عن

صراع يعرّض هذه المرحلة للانقطاع. يبدو أن عدم مغامرته بانهيار محتمل بعد وصوله إلى مصادر ثروة عظيمة في المستعمرات جُبن، ولكنه في الواقع تصرّف عقلاني".

رف حاكم العالم جفني عينيه الداميتين وعلى كتفيه أحمال الكائنات: "لنقم باللازم تجاه الأسطول الإسباني، ولنسيطر على البحر المتوسط كله يا وهيمي. وبعد ذلك، سيكون ديناً برقبتنا أن نمنع ظلم اللاتين في أمريكا".

"ولائي وحبي يجعلانني جريئاً؛ ألجأ إلى عفوكم. أنتم يا سلطان السلاطين نجحتم بأعمال فاقت أعمال والدكم وأجدادكم. ولكن مقارنتكم مع من سبقكم، ومقارنة إمكانياتكم الواسعة مع ضيق ذات يد من سبقوكم توقعكم دائماً بين مخالب القلق".

"برأيك، ماذا يجب أن أفعل يا صديقي القديم؟".

"يجب أن تخلصوا أنفسكم من قيود الماضي، وتتقبلوا أن ظروف اليوم تتبدل بسرعة أكبر بكثير من السابق. إن عدم الإبحار نحو الغرب قبل السيطرة على البحر المتوسط كان فكرة المرحوم إبراهيم، وقد بطأتنا في الحقيقة. سيعمل شارلكان الذي يستخدم التفوق الجغرافي ما بوسعه من أجل المحافظة على الأسطول الإسباني. لأن هذا الأسطول العظيم يعني بالنسبة له دعم طرق التجارة. هذا هو سبب هروب دوريا حتى من ظل بربروس يا سيدي. ألم تنتبهوا؟ لماذا يتهرب أميرال مثل أندريا دوريا جاب صيت كبريائه آفاق العالم كله من مواجهة خير الدين باشا؟".

"أقسم لك إن هذا كلامٌ صحيح جداً يا وهيمي. آه منك أيها الذئب العجوز!".

دفن وهيمي رأسه بين كتفيه محاولاً إخفاء جسده الذي ما زال قوياً وضخماً والذي انتفخ بفعل الشعور بالسعادة والكبرياء.

اشتكى سلطان السلاطين بهدوء: "على الرغم من كل شـــيء، لا يمكن لنا إلاّ أن نفتقد موهبة إبراهيم بالسياسة الخارجية والإدارة. يبدو لي وكأن الأماكنَ والأشياء كلها دُفنت بصمتٍ عميق بعد وفاته...".

"سلطاني... هذا ما أراده البرغالي؛ أقصد الاعتقاد بعدم إمكانيـــة الاستغناء عنه لقبضه على الإدارة. لهذا السبب تجرأ على وضـــعكم في الظل".

ارتجفت شفتا سيلمان خان وكأنهما ستطلقان في تلك اللحظـــة صرخة مؤلمة، ثم غيّر الموضوع بابتسامة سطحية: "يستخدم قائد القلعة دي نوفيللو مدافع تمّت زيادة مداها أليس كذلك يا وهيمي؟".

هز وهيمي رأسه بتفهم، وتنهد بألم: "نعم يا ســـلطاني. هديـــة كارلو لرفاقه البندقيين بمناسبة إعلانهم الولاء له. لم نفهم نوعية تلـــك المدافع في البداية، ولكن الاعتراف الذي أخذناه من أحـــد الضـــباط الأسرى جلب إلى أذهاننا إشارة استفهام. أو من الصواب القول: *جلب عقولنا إلى رؤوسنا*. كان أياس باشا ولطفي باشا متأكدين أنها نوع من المدافع التي تطلق بشكل أفقي، لأن طول مداها حيّر عقولنا".

شردت نظرات السلطان. تجمّد الدهن في الحساء، وتحول لحـــم الغنم فيه إلى ما يشبه السمك تحت طبقة جليد رماديـــة باهتـــة. قـــال بصوت مهموم: "في زمن ما كانوا يرتجفون أمام أسلحتنا النارية".

"بقيت تلك الأيام في الماضي يا سيدي. مضى زمن طويل علـــى اختراع مدفع الهاون في زمن المرحوم السلطان محمـــد الفـــاتح. إذا لم نسرّع تقنيات الأسلحة الجديدة، فسيميل التوازن لصالحهم قريباً. هذا ما قصدته بالمحافظة على قوتنا". نظر وهيمي إلى وعاء الحســـاء أمـــام سلطان السلاطين قلقاً، ثم أضاف: "يجب أن تأكلوا يا سيدنا. نحفـــتم، وتعمقت الخطوط في وجهكم. ستفقدون قـــوتكم. لا تكـــون الإرادة

الحازمة إلا في جسم سليم. أنا واثق أن السلطانة حُرّم حزينة جداً لهذا الوضع".

رفع سليمان خان رأسه وهو يبتسم مع صفع ريح الشمال قماش الخيمة السميك بقوة، ونظر إلى عين الجاسوس القديم: "أنت تقول ما في قلبك يا وهيمي أورخون جلبي، ولا تخفيه كما يفعل الآخرون. بلى نحفت، هذا ليس سراً. في الحقيقة، أشعر أنني قوي بما يكفي، ولكنني متعب، ومتعب جداً أيضاً. أما السلطانة حُرّم فهي تحت ثقل مسؤوليات القصر المتزايدة. فقد توفيت والدتي، والسلطانة ماهدة فران في مانيسا مع الأمير مصطفى خان. السلطانة حُرّم وأنا في ذروة قوتنا، ولكن إذا لم تكن ما نسميها قوة نقطة ضعف تمعن بنقاط ضعفنا الأخرى وتفشيها للآخرين، فماذا تكون؟ من يفهم أكثر مني كيف أصبح الدراويش البسطاء - الذين ينتظرون في زوايا المساجد أوقات الصلاة، ويستخف بهم الجميع - أصحاب دولة؟".

صمتا فترة وهما يستمعان لصخب العاصفة المخيف، وأصوات المدفعية التي عادت للقصف. بعد فترة تمتم وهيمي: "هناك أمور كثيرة لا تقال، أليس كذلك يا سلطاني؟ عقولنا وضمائرنا مليئة باعترافات مظلمة تعرضنا للتفسخ، ولكننا لا نجد شخصاً واحداً يمكننا أن نشاركه الحقائق".

رف سليمان خان بجفنيه بتعبير مفعم بمزيج الأمل واليأس: "نعم، هناك أمور كثيرة لا تقال...". وفجأة، عاد إلى الشرود مجدداً. حرّك حساءه الذي برد بانتباه، وأنهاه، ثم قال بصوت يتململ بغضب حارق: "سئمت من ارتدادات الفرنسيين المتكررة يا وهيمي. حدثني عن الرسائل القادمة من عمر فهمي أفندي. ماذا يقول عن فرنسا والفرنسيين؟".

بدأ وهيمي يشرح فرحاً بالتقاطه فرصة يمكن أن تسعد حاكم العالم: "يقول عمر فهمي إنّ أسوأ رائحة وفي الوقت نفسه أغرب رائحة في أوروبا تفوح من الفرنسيين بسبب أنواع العطور المركزة التي اخترعوها".

سأل سليمان خان بفضول: "حقًّا!؟ ما الرائحة التي تفوح من أوروبا يا وهيمي؟ أنت تعرف أنهم يجردون المبعوثين من ثيابهم ويدخلونهم الحمام قبل أن يمثلوا أمامي، ويغسلون الطرقات التي سأمرّ منها في المدن الغربية التي نفتحها، ولكن على الرغم من هذا تفوح منها رائحة هي مزيج من البراز والكبريت والبول، وأشعر بها في أعماق أنفي كلما اتجهت في حملة نحو الغرب. حتى إنهم يقولون إن رائحة كريهة تفوح من البابا". وحاول أن يهرب من صورة إبراهيم التي تجلّت فجأة أمام عينيه وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

في كل مرة، كان إبراهيم يخرج فجأة من مكان ما. تغدو السماء خلفه ضوءاً أزرقَ، ويراه بألبسته السميكة الداكنة في ميدان الحرب، وكذلك وهو يخاطب الوزراء في الديوان، أو يقهقه في الغرفة الخاصة، وعلى الدرب بين الأزهار في الحديقة الخاصة، وفي طرق إسطنبول الطينية متنكراً. ينطلق من منمنمات تضج بألوان مفعمة بالأسرار في كتب تتألف من آلاف الصفحات قرآها معاً، أو يبدو له وهو متعب من التدرب على المبارزة بالسيف، ويصرخ: *أرجوك يا سلطاني، ألا تعرف؟* كان صديقاً مقرباً منه ومفعماً بالحياة يتكون من مئات المشاهد المحفورة في ذاكرته.

ضحك وهيمي وهو لا يعلم بالعاصفة التي تهب داخل سليمان خان: "هذه هي المشكلة الأصعب التي اعتدت عليها في مهنتي يا سلطاني. هؤلاء لا يرون الماء بسهولة، ويعتبرون الجسد غير المغسول

دليلاً على التدين. وبقدر ما كانت علاقة اليونانيين والرومان القدماء بالحمامات والماء قوية، بقدر ما تبدو علاقة أحفادهم بها بعيدة. يعتقدون أنهم سيمرضون إذا اغتسلوا بسبب برودة الجو. الخوف من الوباء خرّب توازناتهم الحساسة تماماً. يحتسون الشراب عوضاً عن الماء، ويمسحون أجسامهم بخرق رطبة بدلاً من الاغتسال. الأغنياء إلى درجة استطاعتهم جلب روح الكافور محظوظون أكثر. أكثرهم نظافة يغط جسده في برميل ماء راكد في الحر الشديد، ويغتسل أفراد العائلة كلهم بماء البرميل نفسه. وهم لا يرون ضرورة لتغيير الماء ولو مرة واحدة".

ضحك سليمان خان هذه المرة ضحكة نابعة من القلب أكثر: "أي إنهم حقًّا تفوح منهم رائحة كريهة كما يروى".

"وأكثر يا سلطاني. بسبب استخدامهم المقعدة، تتغلغل في بيوتهم رائحة غريبة، وفي الوقت نفسه تقلب المعدة، وتجعل الإنسان ينهار".

قطّب سلطان السلاطين وجهه، وقال: "أعرفها من بلغراد وبودين. رغم تنظيف غرف القصر التي سأقيم فيها مرات عديدة، فإن الخدمَ لا يستطيعون إزالة الرائحة المتغلغلة في الجدران".

"تنتشر رائحة البول من كل بهو يا سلطاني. لا يرون مانعاً من تأسيس المدابغ داخل المدن، لهذا فالأنهار التي تمر في المدن لا تجرف مياه الصّرف الصحّي والزبالة فقط، بل تجرف الكثير من الدم أيضاً. تفوح من الناس قبل كل شيء رائحة عرق. وحين تقتربون من أحدهم مسافة بضعة أشبار، فإن الرائحة التي تلتصق بأغشية أنفكم لا تخرج لمدة طويلة. يخافون كثيراً من قلع الأسنان المنخورة، ولهذا السبب فهم يستخدمون عصير البصل الأحمر لمعالجة التهابات الفم وتقرحاته، وفي هذه الحالة يتضاعف تأثير الرائحة، وتصبح غير محتملة. لا يمكن تمييز

رائحة القصور عن رائحة الخمارات. رائحة الملكات أسوأ من رائحة الملوك، ورائحة الجنود أسوأ من رائحة النبلاء، ورائحة الفلاحين أسوأ من رائحة التجار...".

قال سليمان وهو يضحك بهدوء: "كفى، لقد قلبت معدتي بمعلوماتك الغريبة هذه يا أورخون جلبي. هيا لنخرج، ونجول قليلاً على المتاريس". وحاز وهيمي على شرف إلباس السلطان درعه.

خرجا في رطوبة الصباح العاصف. وَضَع الحراس الخاصون الذين يشبهون قلعة فولاذية سلطان السلاطين وسط حلقتهم الواسعة فوراً. نظرا باستغراب إلى القذائف التي تنطلق من أبراج قلعة سانت أنجيلو، وتصل أحياناً إلى وسط موقع قيادة الجيش بدفع العاصفة لها من الخلف. ترتفع الكرة الحديدية إلى السماء، وتصغر إلى درجة كبيرة، حيث إنها لا تُرى لصغرها، ثم تنزل إلى الأرض مكتسبة سرعة طبيعية ومصدرة صوتاً مُقشعراً للجسد في أثناء اختراقها الريح.

أمر حاكم العالم: "أريد نموذجاً أو اثنين من هذه المدافع يا وهيمي. أطلق عناصر الهلال، ليعملوا ما بوسعهم للحصول على واحد على الأقل. انظر إلى هذا الأمر، الأداة المخيفة التي اخترعها جدي، تدخل عصرها الذهبي على يد أعدائي".

"لا تشغلوا بالكم يا سلطاني، سأذهب بنفسي".

قال سليمان خان بحزم: "لا، أنت ستبقى معي. قبلت أم لم تقبل، أنت رجل بعين واحدة. يمكن ألا يكون لهذا تأثير كبير على حياتك الشخصية، ولكنه مانع كبير في العمل الذي تقوم فيه. لهذا السبب سيذهب كمال في هذه المهمة".

ارتبك وهيمي حتى وإن كان لا يبدي هذا في أي وقت: "ولكنه ما زال غراً يا سلطان سلاطيني".

"في هذه الحال، حان وقت نضجه يا وهيمي أفندي. إنه يرافقك منذ زمن طويل. دعه يثبت نضجه".

"القرار لسيدنا".

"أعرف أنك تعتبر الغرناطي كابنك، ولكن يجب أن تعطيه فرصة للحركة. لن يبقى طوال عمره تحت جناحيك. أنت تعرف أن الفارس الذي يركب الحصان أول مرة من دون سرج، يتعذب كثيراً. في البداية، تُغطى فخذه وأسفل بطنه بالجروح. يختار المدربون حصاناً برياً غير مدرب على الركوب بشكل خاص لكي يهز الراكب بقوة كبرى. بفضل هذا، يتعلم الفرسان قطع مسافات طويلة على صهوات الخيل. دعك من لعب دور السرج تحت كمال على ظهر الفرس. دعه يواجه الصعوبات وحده، وإلا فلن يعيش هذا الرجل الذي تقول إنه *خلفك* من بعدك كثيراً".

يعرف وهيمي أن عليه تقبل هذا الوضع، لذا طأطأ بتسليم.

ما إن ركبا الحصانين اللذين جلبهما كبير السائسين، حتى انتبها إلى أن وتيرة قصف المدافع ارتفعت. وبدأت المدفعيات العثمانية ترد بالمستوى نفسه. كان اقتراب حاكم العالم من القلعة خطيراً، ولكن وهيمي لم يعرف كيف سيقنع سليمان خان بالتراجع؛ لأنه كأجداده يرافق التوكل في ساحات الحرب، ويتجول بجرأة، ولا يخطو خطوة إلى الخلف خوفاً من مطر مقذوفات المدافع والسهام والطلقات. ويقول للقادة الذين يريدون تحذيره: لا يموت الإنسان قبل موعده، وإذا حان موعده فلن يتخلص من بين يدي عزرائيل حتى ولو كان في فراشه، ويقوي جرأته بمواقف مفعمة بالاستخفاف.

المتراس الأول كان على بعد ثلاثة أميال عن باب سانت لوقا، وكان مرتفعاً بمقدار ستين قدماً. خمسة عشر مدفعياً يتراكضون على أرضية مربض طينية إلى اليمين وإلى اليسار على الرغم من أنهم يحملون

بأيديهم براميل زيت الزيتون والبارود، وتعمل أجسادهم القوية المتعرقة من دون أن تأخذ أي استراحة. إذا لم تكن المدفعية بعيدة المدى مؤثرة كثيراً على جسم القلعة، فهي مؤثرة جداً على شقوق الرصد والإطلاق والأبواب، ولكن المدافعين مهرة بشكل لا يمكن توقعه بإصلاح المناطق المتضررة. في تلك الأثناء، انتبه أربعة من جنود مرتفع مربض المدفعية المتشكل من خمسة مدافع إلى مجيء حاكم العالم، فصرخوا *استعد!* وقفزوا بانفعال وسعادة لاستقباله.

وكأن حاكم العالم ووهيمي أورخون جلبي شعرا بالشعور السيئ نفسه في الوقت نفسه، فأشارا للجنود وناداياهم لكي يتوقفوا. ولكنه تجلٍّ للقدر. سقطت قذيفة هاون ضخمة أطلقت من البرج بين الجنود محدثة هديراً مخيفاً مزلزلة الأرض. تناثر الجنود أشلاء في كل الاتجاهات وكأنهم قُذفوا من داخل حفرة. وبدأ مطر فظيع يتكون من الطين وبقايا الأجساد يتساقط.

قفز حصانا وهيمي وحاكم العالم على قوائمهما الخلفية في الوقت نفسه. نزع أورخون جلبي رِكابه فوراً، وقفز بسرعة، واتجه بحصانه نحو حصان سلطان السلاطين الأصيل، واحتضن رقبته، وحوّل اتجاهه؛ وبهذا وضع جسده حاجزاً أمام أي خطر محتمل. ولكن سليمان خان لم ينتظر، بل شد اللجام، وحوّل الحصان إلى الجهة الأخرى، ولكزه بالمهماز. أطلق وهيمي هذه المرة حصانه بأقصى سرعة، وقطع طريق حاكم العالم بحركة لينة على الرغم من عمره، ومد نفسه، والتقط لجام الكحيل. "لا تفعل ذلك يا سلطان سلاطيني! غدت العين لا ترى أمامها، ماذا سأفعل إذا حدث لكم شيء؟".

"لا يجوز يا وهيمي، اتركني! رأيت ما حل بأبنائي الجنود. كيف أقف من دون أن أفعل شيئاً في هذا الوضع؟".

"يحتاج إليك الباقون على قيد الحياة أكثر يا حاكم العالم. اصبر قليلاً!".

ولكن سليمان خان تملص من حالة المستهتر التي اتخذها منذ وفاة إبراهيم باشا، وهرع بحصانه نحو أبنائه الجنود. كان الوضع العام في المرتفع جيداً. وكان الجنود يزيّتون السبطانات، ويجهزون قذيفة جديدة. وحين رأوا حاكم العالم، صرخوا كلهم معاً: "عاش سلطان سلاطيننا!".

قال حاكم العالم: "وأنتم عشتم يا أبنائي". ونزل عن الحصان.

هرع الحرس الخاص وعناصر الهلال وأحاطوا بسلطان السلاطين، ولكن سليمان خان لم يردعه أحد، وبدأ يجمع أشلاء الجنود الذين استشهدوا للتو تحت نظرات الجنود المندهشة. وفي الوقت نفسه كان يقول لنفسه: "عشرة أيام. منذ عشرة أيام ونحن نقصف جدران هذه القلعة اللعينة على لا شيء... عشرة أيام... عشرة أيام...".

بمساعدة الحراس جُمع الكثير من أشلاء الشهداء. درع سليمان خان ورداؤه الرائعان غُطّيا بالدم والطين خلال فترة قصيرة. والعرق المتصبب على وجهه على الرغم من الريح الباردة ترك أثراً فوق الطين والدم. أما المطر الذي جلبته العاصفة، فقد ساعده على الأقل بإخفاء دمعه.

بعد صلاة الظهر، أقيمت صلاة الجنازة على أرواح الشهداء، وأخرجوا إلى اليابسة الرئيسة. أمر سليمان خان باجتماع الديوان فوراً. تخيّل أمراً، ولكنه تعثر منذ الخطوة الأولى نتيجة تردد الفرنسيين. لا يمكنه أن يستمر بهذه اللعبة على حساب أرواح أبنائه الجنود. ولم يعر إصرار خير الدين بربروس باشا ولطفي باشا على أن القلعة ستسقط خلال فترة قصيرة أيّ اهتمام. ووسط النظرات المندهشة أمر بفك الحصار، والتراجع.

III

22 تشرين الثاني 1537 - 30 نيسان 1538

سألته السلطانة خُرّم: "إلى متى سيستمر صمتكم وابتعادكم هذا يا سيدي؟". خيّم على سلطان سلاطين العالم شعور بالاستغراب لأن هذا ليس الوقت المناسب لطرح هذا السؤال المتكرر كثيراً. يتغير الزمن بسرعة من جهة، ويهرع خلف الشرارة المدعوة فترة أثناء التحام الفترات الزمنية في ما بينها وهو يختنق ببطء وكأنه نحلة في وعاء عسل من جهة أخرى. صار يمضي وقتاً أكثر في الصيد. وكأنه بهذه الطريقة يروّح عن نفسه، ويتخلّص من شوقه لإبراهيم، وإن لم ينجح هذا الأمر في التخفيف من اضطرابه المأساوي على شقيقته السلطانة خديجة التي لف جسمها المرض وأذابه من يوم إلى آخر.

في الفترة نفسها، كان الأسطول بقيادة خير الدين باشا، والطلائع في البر بقيادة الغازي محمد باشا سلطان زادة سيد سادة سمنديرة يقلبون أوروبا رأساً على عقب. كلف دوق النمسا الأكبر فرديناند بدعم أخيه الكبير المحارب القديم الشهير أحد جنرالات موهاتش جوهان فون كاتزيانر بمهمة إنهاء هذا الأمر فوراً. علق شارلكان وفرديناند أيضاً أملاً كبيراً لا يقل عن أمل دوريا على الجنرال ذائع الصيت ومرهوب الجانب. أقدم الجنرال فون كاتزيانر على حماقة مواجهة الغازي محمد باشا في سهل فيرتيزو جنوب شرق كرواتيا بعد عشرين يوماً من عودة الجيش السلطاني إلى بيت العرش في 22 تشرين الثاني.

كانت تلك أياماً عاصفة فتح فيها خير الدين بربروس جزر سينا وباتموس وماكسوس، وفرض عليها الضريبة كما فعل مع إشكوتوس وسريفوس. اتخذ الغازي محمد باشا مع عشرين ألفاً من مقاتليه

الطليعيين وضعية الاستعداد للحرب أمام جيش يتــألف مـــن خمســـة وأربعين ألف جندي على الطرف الآخر من السهل الأبـــيض بـــبرودة أعصاب تحت ثلج يهطل بكثافة.

قبيل الهجوم مباشرة، خطب بجنوده ببلاغته المؤثرة خطاباً قصيراً: "يقول الله تعالى في الآية السادسة من الستين من سورة الأنفال: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّـــابِرِينَ﴾ يا أبنائي، سلطاننا متعلق جداً بحب أبنائه الجنود، ويعتبر نفسه مسؤولاً عن إيذاء أي شعرة من شعرهم من دون سبب. إليكم طريقة تجعلكـــم تسعدون سلطان سلاطيننا، وتكسبكم دعاءه بالخير. إذا كسب أحد أو بلد دعاء سلطان السلاطين، فإن ذلك الشخص أو البلـــد ســـيحظى بالسعادة الدائمة. اليوم يومكم يا أبنائي".

استمرت الحرب فترة أقصر مما توقعه الطرفان بعد أن انطلقت الخيول بانفعال وهي تراقب بعضها بأطراف أعينها الطافحة بالدم، وتقدح شرراً بضرب حدواقما على الجليد، فيما هي تستنشق دخان الصواعق. حُرضت القوات الألمانية بهجوم خفيف، وعند انسحاب أصحاب الدروع الثقيلة تكتيكياً وقعوا في كمين. في ذلك اليـــوم، مُرر الجيش النمساوي كله تقريباً على حد السيف. وقرعت أجراس كنائس فيينا على مدى ثلاثة أيام شكراً لله لأن الجنـــرال الشـــهير جوهان فون كاتزيانر تمكن من الهرب مع ثلاثـــة آلاف جنـــدي في اللحظة الأخيرة قيد شعرة.

أخيراً، ضحك وجه سليمان خان. دخل الهابسبورغيون حالـــة يأس كبير. وحتى إنّ البندقيين دخلوا حالة ذهول. كان نصر فيرتيزو مؤشراً واضحاً على استمرار تفوق العثمـــانيين الأكيـــد في ميـــدان

الحرب. ولكن حادثة أخرى وقعت لاحقاً وأحزنت السلطان سليمان خان.

* * *

سأل سليمان خان بصوت منخفض ومتحشرج وكأنه شوال فارغ: "كيف حال خديجة؟".

نظرت السلطانة حُرّم إلى عيني السلطان الغائرتين، وشفتيه الملتوي طرفاهما إلى الأسفل بتعبير حاد، وقالت: "ليس هناك تغيير بعد يا سيدنا". تماوج ثوبها ذو اللون الرمادي المفتوح من الأمام معطياً شعوراً بالبرودة تشبه برودة سماء الربيع المترددة. وفتحت يديها الناعمتين الممتدتين من كميها العريضين وكأنها تريد أن تعبّر عن اليأس: "تقدِّرون أنه يصعب على أي امرأة فقدانها ابنها بعد فقدانها زوجها. ولكن كبير أطبائنا محمد بدر الدين طبيب ماهر. وهو يقول إنّ شقيقتكم شابة وقوية، وستتمكن من نسيان هذا الألم".

على الرغم من شرود عيني سليمان خان النفطيتين بعيداً، فقد غطّ بصمت عميق. وقف لفترة طويلة مع السلطانة حُرّم أمام بيت السلطانة خديجة، وتبادلا الحديث تحت انعكاسات ضوء شاحب في الدهليز المعتم قليلاً. ولكن السلطان لم يكن مسروراً من الاتجاه الذي يتَّجه الحديث نحوه. وحاول أن يتظاهر بالصلابة بشكل خاص خشية أن يبدو ضعيفاً أمام زوجته. تمتم: "الحمرة مرض خطير. ومع الأسف، إنه أخطر عدوّ للأطفال. ماذا نستطيع أن نفعل؟ مضت ثلاثة أشهر على وفاة ابن أختي بهذا المرض ، ولكن حالة خديجة تسوء أكثر من يوم إلى يوم بدلاً من أن تتحسن".

"يشك رئيس الأطباء بوجود مرض في كبدها، ولكن...".

قال سلطان السلاطين بحنان: "لا تفكري، إذا كان الأمر هكـــذا فليس بيدنا غير الدعاء".

نظر سليمان خان لحظة إلى الهالتين الزرقاوين اللتين تحيطان بعيني حُرِّم. ولكنه يستطيع أن يحكم على البعد غير المتناهي في تينك العيــنين الزرقاوين كالفولاذ: "اذهبـــي وارتاحي قليلاً يا حُرّم. إذا كان هنـــاك ما سيحدث، فالأفضل أن نعتبره قد حدث منذ الآن".

"وأنتم لا يبدو عليكم أنكم بخير يا سيدي. علـــيكم أن تنـــاموا قليلاً".

ظهرت على وجه سلطان السلاطين ابتسامة تمنح الجرأة: "لتنهض خديجتي، ثم سأرتاح". في الحقيقة، إنّ هذه أمنية فارغـــة تمنحـــه قـــوة احتمال. تعرف حُرّم أن سليمان خان لن يعطي لنفسه وقتاً لكي يرتاح نهائياً. فقد حكم على نفسه لسنوات طويلة بأن يتجاوز والده، ويخوض تنافساً سرياً مع صديقه إبراهيم. أما الآن فهو يعمل من دون انقطـــاع للتملّص من تلك الأشباح التي تلاحقه كظلال حيوية. "ليتك تعـــرفين كم كان والدي متعلقاً بخديجة يا حُرّم...".

"أعرف يا سلطاني".

"وكم كان يهتم بقرة عينه. لم يكن يخشى عليهـــا مـــن أشـــعة الشمس فقط، بل يخشى عليها حتى من ضياء القمر. ولا يرد لها طلباً، ويتلوى لكي يرضيها إذا شعر بأنها مجروحة من شيء".

"هل هناك شعور بالذنب في هذه الكلمات يا سيدي؟"

صمت... كانت حُرّم كإبراهيم ماهرة بمد يدها إلى ذلك الوتر السري في قلبه. قال وهو يحافظ على صلابته: "ما العلاقة؟". ولكنـــه انتبه أيضاً إلى أنه لم يستطع إخفاء ذلك القلق: "من أين خرج هـــذا الآن؟".

"إنّه مجرد شك، وإذا كنت على حق ولو قليلاً...".
أخفضت حُرّم صوتها تماماً: "رجاء لا تفعل هذا يا سليمان، رجاء...".

قطّبت حُرّم جبينها بألم، وقالت: "هذا ما تحدثت عنه. ستفهم خديجة عاجلاً أم آجلاً الوضع في ذلك اليوم وضروراته. ولكن، ثمة حقيقة يجب أن تدركوها أنتم أيضاً؛ وهي أن إبراهيم استحق ما حل به. لهذا، لا معنى لشعوركم بالذنب. لقد اختار، وكان ذكياً إلى درجة أنه عرف إلى حد ما النقطة التي في آخر هذا الطريق... لماذا تنظرون إليّ هكذا يا سلطاني؟".

هرب سليمان خان بنظراته، وبدأ يتكلم وهو مطرق، ويتوقف أحياناً: "قبل سنة من إعدامه خرجنا متنكرين نحو غلاطة، وتجولنا في السوق، ثم شربنا حساءً في مطعم يا حُرّم. كيف أتأكّد من أن تلك الأمسية كانت آخر أمسية نعيش فيها روح الصداقة الحقيقية... ولكن قلبه أشعره بهذا، فقال لي: *إذا أتاكم يوم أنساكم هذا الصدق وطيب النية، فطلبي الوحيد منكم أن تتذكروا هذه الأمسية*. هل تفهمينني يا حُرّم؟".

هزت المرأة رأسها ببطء. هي أيضاً لم تنجح بالاستمرار بالنظر إلى عيني مخاطبها ككل صاحب كذبة، وهربت بهما مع بريق رطب يلف حدقتيهما.

همس السلطان وعيناه تنظران إلى مدى يبعد آلاف العقد: "أتذكر، أتذكر يا أخي!". ثم ابتعد سليمان خان من هناك بصمت. وقرابة المساء أبلغوه بخبر وفاة أخته مقلة عينه.

IV

سنة 1538 ميلادية كانت سنة عمل مكثف لسليمان خان. فقد فتح الجيش العثماني ثلاث جبهات في البحر والبر، وأدارها كلها بشكل جيد. فحين انطلق قبطان البحر خير الدين بربروس في حملة الجزر الثانية ضد البندقيين والهابسبورغيين، انطلق والي مصر سليمان باشا المخصي عبر خليج البصرة إلى المحيط الهندي لمحاربة البرتغاليين الذين تسلطوا على سفن تجار المسلمين. وفي الفترة نفسها، شعر السلطان سليمان القانوني بضرورة الانطلاق نحو بوغدان. لأن ملكها بيترو راريش حاول التصرف مع سيغسموند الثاني ملك هنغاريا أكثر ملوك الغرب إخلاصاً لسليمان خان تصرفات جارحة. غير هذا، على الرغم من تحذيره مرات عديدة كان على علاقة وطيدة ولافتة للأنظار مع الدوق الأكبر للنمسا.

سليمان المهيب في الثالثة والأربعين من عمره، يحمل الآن إرادته الحديدية أمام العالم كله ما عدا زوجته. لقد التف بحدة تسبب شعورَ أعدائه بالخوف، وتقلصاً بحدود مسامحته. كان يدوّن بدقة الحسابات التي يجريها حتى الصباح وهو منكب على خرائطه، ونتائج الاستشارات التي يتوصل إليها مع باشاواته، ويُنهك نفسه من دون رحمة لكي يستطيع أن يتجاوز نفسه.

وتحمل هذه الجهود في محاولة منه للتملّص ولو قليلاً من ذكريات الماضي التي تدمي قلبه.

* * *

من مذكرات وهيمي أورخون جلبي:

12 محرم 945 الاثنين

أمر سليمان خان بذهابي مع خير الدين باشا بذريعة أنني سأكون مفيداً له. كيف يجب أن أقيّم هذا؟ أريد أن أسند انقباض قلبي إلى شرح معقول، ولكن مشاعري في كل الأحوال لا يحدث فيها تغيير مطمئن. قسم من عناصر الهلال معي. سيوفهم المشحوذة وبشراتهم السمراء تلمع بانفعال لأنهم سيخوضون معركة بحرية قريبة. أما كمال فقد كان على وشك الإصابة بالجنون انفعالاً لأنه في سفينة حربية لأول مرة في حياته، ومع بطل عالمي مثل بربروس باشا. لقد نسيني تقريباً، وصار يعرض مختلف المهارات في سبيل ملء عين الباشا. الباشا أيضاً أحبه، لأنه في الليلة الأخيرة لحصار كورفو نجح بملء عين سليمان خان، وموقع القيادة العسكري كله، وأسمع اسمه للعدو والصديق حين نجح بسحب مدفعين من قلعة سانت أنجيلو. احمرت بشرته الشقراء الفتية بشدة خلال عدة أيام بتأثير شمس الصيف، ثم اتخذت مشهداً صحياً بلون الدروع البرونزية الجديدة.

بهذه المناسبة، حتى أنا حظيت بفرصة رؤية خير الدين باشا عن قرب، وكان عجوزاً طويلاً وعريضاً، فتياً ممتلئاً حتى العظم. ثمة نظرة عميقة ومفكرة في عينيه، ولكن هذه الحال لا تجره في أي وقت إلى الغفلة. لم يكن عمره يبدو عليه، ومن الطبيعي أن تكون سرعته قد تباطأت، ولكن الواضح أن قوته محافظة على نفسها. مظهر جسمه مخيف، وهو غليظ العظام، وصلب كالحديد. أرى لحيته شائبة ومعتنى بها، وليست حمراء كلحية شقيقه الأكبر الريس أُروتش. إنه أحد

البحارة النادرين الذين يوحون بدفء القرب والثقة من النظرة الأولى. أردت كثيراً أن أعرفه قبل ثلاثين سنة.

حين أبحرنا، كان سليمان خان على وشك إكمال تحضيراته الأخيرة من أجل حملة بوغدان التي سيخرج فيها قريباً. نعرف أن عمليات كارلو الجاسوسية وراء كل تلك الفوضى على حدودنا، ولكن، من الصعب مجابهة المواقف التي تزداد مكراً مع ازدياد الهزائم. وحسب قول خير الدين بربروس الذي سمعته كثيراً: المرء يخجل مما ينتهي إليه.

أبحرنا من إسطنبول في التاسع من محرم 945 الموافق 7 حزيران 1538 بأربعين سفينة فور وصول خبر اقتراب أندريا دوريا من شواطئ كريت. شارك في هذه الحملة قباطنة مشاهير مثل صالح وطورغوت وسنان وسيد علي. إنهم مرحون ومهيبون وشجعان. تغلغل فيهم جو مياه البحار المفتوحة المهيبة الخضراء العميقة المتحركة ببطء. داخلهم كخارجهم، لذلك من السهل أن تشعر معهم بالراحة والطمأنينة. النظر إليهم يشبه النظر إلى أفق عظيم عبر الزجاج. فهم أشداء كعاصفة تهب فجأة، ولكنهم سرعان ما يهدأون. وبعد لحظة، يعودون إلى بنيتهم المرحة التي تجلي الهموم. يمكن أن يقوموا بأي عمل في هذه الدنيا إلا أن يكونوا جواسيس ماكرين مثلي. يخجلني قليلاً أي شيء أكونه أو لا أكونه بجانبهم...

إنهم يتكلمون دائماً بصوت مرتفع؛ إن كان الجو عاصفاً أو هادئاً، ويطلقون القهقهات التي تهز عضلات أذرعهم وأكتافهم وصدورهم التي نمت كالبراميل الخشبية لكثرة ما أمسكوا بالحبال وشدّوها. عندما كانوا يرسون في الخلجان المظلمة مساء، كانوا يلتهمون مختلف أنواع الأسماك بشهية ومتعة، وفي ظلمة الصباح الباكر يتسلقون حبال الأشرعة الزلقة كالجليد. وفي الحالة العكسية، فإن الحبال المبلولة بالزيت، والبراميل الشاردة، والزوارق المعلقة فوق رؤوسنا بالبكرات، والآلات، والأدوات

الكثيرة الضرورية التي تغطي الفسحات الضيقة تخنق الإنسان. لهذا السبب، يتعلّم البحارة خلال فترة وجيزة كيف يطلقون جزءاً من أرواحهم فوق البحر مترامي الأطراف، أو يتركونها حرة مع طيور البحر في الزرقة غير المتناهية أعلاهم. التضاد بين السفن من جهة والبحر والسماء من جهة أخرى يوازن تحطم أنفسهم بطريقة ما.

انضم سيدُ قوجا إلى علي بيك، وثلاثة آلاف إنكشاري إلى الأسطول لأنهم من البحارة الأصليين. وانضم إلى الأسطول أيضاً في بحر مرمريس سيد سنجق تكة محمد بيك، وسيد العلائية مصطفى بيك كما وعدا بمراكب بكامل تجهيزاتها؛ وبهذا سيصل عدد السفن المحاربة إلى اثنتين وعشرين سفينة. ومع سفن النقل، سيغدو المجموع مئة واثنتين وعشرين قطعة، ويصبح مجموع الأشخاص بمن فيهم المجذّفون أكثر من عشرين ألفاً.

على الرغم من هذا، أشعر في قلبي بضيق الابتعاد عن سلطاني. وأبدأ بالاستمتاع بهذه الحملة كلما عرفت حزم خير الدين باشا وجرأته وحديثه الممتع عن قرب أكثر، ولكنني لا أستطيع بأي طريقة الخروج من حالة الانطواء، والتفكير بما يمكن أن يحدث لسليمان خان وحده من دوني بين الأعداء.

19 صفر 945 الأربعاء

استغرقتُ وقتاً طويلاً حتى اعتدت على ذلك. والأسوأ كان مغص المعدة الشديد الذي استمر أياماً وجعلني أتقيّأ كل شيء حتى الماء الذي أشربه. وتحت نظرات البحارة المشفقة والساخرة قليلاً التقطني مغص المعدة الشديد عند أول عاصفة، واستمر ذاك الجحيم سبعة أيام بلياليها.

كانت أياماً فظيعة جعلتني أشعر بالألم حتى في عيني اليسرى التي لم تعد ترى، والأسوأ أنني وقعت طريح الفراش. كان وضعي سيكون أصعب لولا أن "كمال" غير المعتاد على رؤيتي بهذه الحال اعتقد أنني سأموت في أي لحظة، فبقي في خدمتي من دون انقطاع. قال خير الدين باشا بموقف الشهم مانح الثقة عندما مر على قمرتي عصر يوم هادئ: "اصبر يا وهيمي آغا، هذا يصيب كل بحار. حين يكون المرء غير معتاد على ذلك، وسنّه وصلت إلى نقطة الكهولة يصبح الأمر أثقل قليلاً. ولكنك إذا تجاوزت الحالة، فلن يصيبك دوار البحر مجدداً حتى آخر عمرك، يمكنك التأكد من هذا. انظر إلى كمال، دوار البحر لا يصيب الشباب مثله قط. إنه شاب شجاع والسلام... لقد ولد من أجل هذا العمل".

فم كمال وصل إلى شحمتي أذنيه وهو وينظر إلى وجه الباشا بإعجاب، ولم يجد كلمة يقولها في تلك اللحظة لشدة سعادته.

قلت ضاحكاً: "لقد نسيني أصلاً يا باشا. ولو لم أقع طريح الفراش لما سأل عني".

قفز كمال بخجل وقد ضربت الحمرة خديه خطوطاً، وقال: "لا يا آغا. لقد حصلت على معلومات قيمة جداً من الباشا، وأحاول الاستفادة من أيامنا المعدودة هنا فقط".

مددت نفسي، وربتُّ على كتفه بهدوء: "لا تنظر إليّ هكذا، لقد مازحتك فقط. كل معلومة جديدة تحصل عليها، تساعدك وتساعد رجالك في المحافظة على حيواتكم".

قال خير الدين باشا مندهشاً قليلاً: "يجب أن يكون الرجل بمكانتك على دراية أوسع بالبحر". ثم أشار بيديه الضخمتين نحو الخارج وأضاف: "لا تكون الطرق البرية والنهرية آمنة دائماً كالطرق البحرية يا آغا".

"أنتم محقون يا باشا. ولكنني لا أطمئن في المكان الذي لا تدوس فيه قدماي الأرض وأسند ظهري بأمان، خاصة في الوسائط التي تكون مفتوحة من جهاتها الأربع كالسفن".

قال الباشا بصوت منخفض: "وأنت أيضاً ولدت من أجل أن تقوم بعملك هذا يا وهيمي. أهنئك".

في الحقيقة، كنت أعرف أن عبارته الأخيرة لا تحمل الاستخفاف ولو قليلاً. ولكنني على الرغم من هذا خجلت. حينئذ، فهمت مستغرباً أن عملي الذي قمت به طوال عمري لا يختلف عن عمل الجلاد، وأنني أعيش وراء حجاب شديد السواد. شعرت وكأن مشعلاً أنير في ظلمات ذهني، وأن الأعماق التي لم أستطع النزول إليها تمتد عند قدمي. فمثلما لا يقبل الجلادون في مقابر المسلمين، ويدفنون في السفوح الخلفية لأيوب في مدافن من دون شاهدة، ابتعدت عن الناس العاديين طوال حياتي، وعشت نوعاً من حياة المقبرة الشبيهة بتلك المقابر. سليم خان حكم عليّ بهذه الوحدة، ولكنني ما زلت أذكره بحب، ولا أنساه قط.

فور نهوضي على قدمي، عملت بنصيحة الباشا، وخرجت للتدرّب على مراقبة خط الأفق. كنت أحياناً أبقى ساعات طويلة حتى يتم تبديل مناوبة الحراسة في فسحة مراقبة السفينة عندما ينزل الندى. أخيراً، صار ذلك المغص يذهب فجأة كما يأتي. في الأيام التالية، فيما كنت أراقب إيقاع الأمواج الزرقاء الداكنة الزابدة لم أدرك ما إذا كان الاضطراب الذي أعيشه حقيقة أم حلماً. إذ لم أعد أشعر بحالة التشتت وأنا أنظر نحو الزوايا البعيدة، وانفعال الشروق الوحيد... كم هو رائع أن يكون الإنسان في البحر الآن.

مضى أكثر من شهر ونحن نقصف جزر البندقيين في بحر إيجة. كانت سفن أندريا دوريا السريعة تراقبنا من بعيد كظلنا، ولكنه يبدو

مصمماً على عدم مواجهتنا. ثماني جزر أخرى استسلمت فور رؤيتها راياتنا، أما جزر إنوسا، وباسا، وفاتوس، وبونديكو، وكالوغروس فقد أرسلت إلينا مبعوثيها لتبلغنا بتبعيتها لنا.

23 ربيع الأول 945 الاثنين

كانت أيامنا تمضي بما يناسب العيش في ذروة القوة والسيطرة. لم أشك بأن خير الدين باشا سيذكر بوصفه أكبر أميرالات عصرنا. فهو يحظى بإعجاب الجميع؛ ليس رجاله فقط، بل أعدائه أيضاً بفضل ذكائه المتوقد، وعدالته الصائبة، ورحمته الخارقة. يمكن لكمال أن يطلب البقاء معه من الآن فصاعداً، لأنه تعلّم الكثير عن البحرية باندفاعه الطفولي الخارق.

جلبت فرسٌ حامل إلى إحدى سفن النقل نتيجة عدم الانتباه. وفور وصول خبر من سفينة مراقبة بأن دوريا في شواطئ جزيرة أيريبوز، أصدر الباشا أمراً بالتحرك. ولكن الفرس الحامل تلك ولدت، وسقطت مريضة من دون أن ينتبه إليها أحد.

كان من المفروض قتل الحيوانين وإلقاؤهما في البحر من أجل سلامة الحملة. ولكننا عندما ذهبنا -خير الدين باشا وأنا- مع البيطريين لرؤية الوضع صُدمنا حين رأينا المهر البني ذا البقعة البيضاء على جبهته دافناً رأسه في حوض أمه المغطى بالتبن والروث. من تطاوعه يده على قتل هذا المهر الرائع ذي الرقبة الشبيهة برقبة البجع الذي يرتجف على قوائمه الرفيعة ولا يستطيع الوقوف بأي شكل نتيجة اهتزاز السفينة؟ ولكن، إذا لم يُنزل هذا المهر إلى اليابسة في أسرع وقت ممكن فسيكون في المستقبل حيوان ركوب لا يساوي خمسة

قروش، لأنه سيعاني من مشكلة في التوازن، وسيزعج راكبه في المسافات الطويلة.

لم يعر حضرة الباشا اهتماماً لرفع دوريا أشرعة سفنه متجهاً نحو ميناء برفيزة فور علمه بأننا نلاحقه، وأصدر أمراً بالاستراحة. أمّن الباشا الفرس والمهر لدى صديق لديه مزرعة لتربية الخيول يدعى أليكس ديمتروس على أن يأخذهما في طريق العودة. أثرت هذه الحادثة على الجميع بعمق بدءاً من المجذفين وحتى مشاة البحرية، ومن الإنكشاريين إلى الفرسان مروراً بنا نحن عناصر الهلال. سأذكر هذه الحادثة إلى آخر عمري باعتبارها مؤشراً على الأهمية التي يوليها خير الدين باشا للروح.

كانت الأخبار التي تردنا في تلك الأيام تضايقنا. سمعنا أن سفن الألمان والإسبان والبرتغاليين والمالطيين والجنفيزيين والبابا جاءت لمساعدة أسطول البندقية المجتمع في كورفو. حينئذ فهمنا أن هدف دوريا من ذهابه إلى برفيزة هو تسلمه إدارة هذا الأسطول. يجب أن أعترف بأن جسدي اقشعر من شدة الخوف.

إذا كان ما قيل صحيحاً، فإننا نرفع أشرعتنا في مواجهة أسطول كبير لم يشهد التاريخ مثيلاً له من قبل. وإذا كان ما يروى جدّيًا أيضاً فإن سفن أسطول دوريا بلغت ستمئة سفينة، وإذا وضعنا سفن النقل جانباً، فلديه ثلاثمئة سفينة وسفينتان مقابل سفننا المقاتلة البالغ اثنتين وعشرين سفينة. عشرون مما لديه بثلاثة طوابق ومنصات عالية. وإذا اتخذت إحدى سفنه الضخمة موقعاً مناسباً، وسددت، فمن الممكن أن تغرق عشراً من سفننا أو تصيبها إصابات خطيرة. غير هذا، هناك 2500 مدفع ضخم قصير المدى وستون ألف جندي في سفن العدو. وإذا أخذنا هذا الوضع بعين الاعتبار فإن أسطولنا المكون من 122 قطعة يساوي ثلث أسطول العدو. من جهة أخرى، إذا حسبنا عدد المدافع،

فإن مدافعنا تساوي مدفعاً واحداً مقابل ستة عشر مدفعاً. غير هذا، هناك ستون ألف مقاتل غير المجذفين مقابل ثمانية آلاف مقاتل لدينا.

حين قارن خير الدين باشا هذه الأرقام، ابتسم لنا بظرف، وقال: "لا تهتموا يا أبنائي، إذا كان الله بعون الشخص، فلا يمكن مقارنته بأحد! اللهم انصر أمة محمد! باسم الله، وعليه توكلنا، ونوينا غزو الكفار!".

29 ربيع الثاني 945 الثلاثاء

نحن أمام برفيزة. قبل وصولنا بيومين قصف دوريا المدينة والميناء بأسطوله. امتد الحريق الذي شب إلى المدينة وبساتين الليمون والبرتقال والزيتون المجاورة وأوقع خسائر كبيرة. صمم اللعين المدعو دوريا على القيام بكل ما يستطيعه من أجل استفزازنا. ففي أثناء نهب المدينة خطف الجنود كل من وجدوهنّ من النساء من دون تمييز بين صبية وعجوز، وبين حسناء وقبيحة. إنهم جنود ظالم محرّضون بشعور انتقام أعمى، ويتحركون بغضب أعمى. حسناً، سنرى من الأكثر مهارة.

يعتمد دوريا على تفوقه بالعدة والعتاد بعد أن كان يهرب من ظل بربروس طوال هذا الوقت. فأسطوله الراسي على بعد أربعة أميال لا تظهر نهايته في الأفق الضبابي. اللهم أعنّا!

الحمد لله لأن هناك أخباراً جميلة جداً وصلتنا من سليمان خان. فقد دخلوا سوتشوفا عاصمة بوغدان من دون مقاومة تذكر. لا يمكن إنكار دور المعماري سنان بن عبد المنان بإنشاء جسر على نهر بروت شبيه بالجسر الذي أنشئ على نهر سافا الغزير خلال تسعة أيام. وقد

أنعم سلطان سلاطين العالم عليه بلقب كبير المعماريين بعد أن شَغَرَ هذا المنصب منذ وفاة علي العجمي قبل سنة.

فرّ بيترو راريش الذي كان مغروراً جداً حتى ذلك اليوم عندما لم تأته المساعدة المطلوبة من حبيب قلبه فرديناند، وصار في عداد المفقودين، وبعد ذلك وعد ممثلو كبار العائلات بعدم الاعتراف بحكمه، وقبّلوا يد حضرة السلطان، وأقسموا بشرفهم إنهم منذ الآن فصاعداً سيعيشون بطمأنينة تحت حماية موقع عسكري إنكشاري وإدارة دار السعادة، ووقعوا معاهدة بهذا الخصوص. وبهذا، ضمت الأرض الخصبة الواقعة بين نهري بروت ودينيستر كلها، والمسماة صربيا، وضُيقت حدود بوغدان إزاء أي احتمال. وانطلق سلطاننا عائداً إلى إسطنبول وسط احتفالات النصر.

5 جمادي الأول 945 الأحد

أشرح ما جرى:

في الساعات الأولى للفجر، رأينا أسطول الحلف بإدارة دوريا يبتعد باتجاه إينة باهتي عند مدخل القسم الذي يصل شبه جزيرة كورنت باليابسة. لا أنسى أبداً الصراحة وبرودة الأعصاب التي بدت على وجه خير الدين باشا وهو يقول إنّ هناك هدفين لهذا الأمر: "الآن يا أبنائي، ينوي دوريا سحبنا إلى البحر المفتوح حيث يستطيع أسطوله الضخم الحركة من دون مصاعب، وأنا أعتبر هذا معقولاً. ولكن، إذا كانت نيته أن يلتف علينا بالسفن الخفيفة، أو أن يضربنا في الوسط عند دخولنا البحر المفتوح، فلا أتفهم هذا، ولا أقبله. في هذه الحالة، إذا خطونا خطوة قبل العدو فإننا سنهزه، ونتفوق عليه بالهجوم".

قبل شروق الشمس تحركنا إلى جزيرة كورفو، وفتحنا أشرعتنا باتجاه الميناء الواقع على بعد 110 أميال شمالاً. ولكن أسطول التحالف انتبه لحركتنا، فأمر خير الدين باشا أسطولنا بالالتفاف نحو اليمين تسعين درجة بحدة لا يتصورها عقل. وبينما كانت طقطقة هياكل السفن وأعمدتها تخيف طيور البحر، حوّلنا أشرعتنا لتستفيد من ريح الجنوب. بفضل هذه الحركة، رأى دوريا أننا صرنا خلفه بشكل لم يتصوره خلال ثلاث ساعات. ومن المحتمل أن المسكين لم يعرف ما سيفعله خير الدين. ولكن تردد القائد يدفع ثمنه أبناؤه الجنود.

من الممكن فهم أنه اهتز من مواقفه غير المفهومة. لحظة أراد الهرب، لم يفهم كيف يستطيع بربروس مواجهته بقوة صغيرة إلى هذه الدرجة، ولم يكن أمامه بد من التردد. لم يستطع البدء بوضع أسطوله في وضعية الحرب إلا بعد ساعة. رفعت رايات التحذير على الأعمدة، وقرعت الأجراس، ودعي الجنود إلى الاستعداد بصفارات السرعة. الأمر نفسه حصل على أسطولنا أيضاً. فقد اتخذ المجذفون والمدفعيون ورماة السهام وموجهو الأشرعة أمكنتهم، وانتظروا الحركة الأولى وهم متأكدون أن يوم المواجهة الذي لا مفر منه قد أتى. في هذه الأثناء، كنا على بعد أربعة أميال من جزيرة آيا مافرا، والأسطولان متقابلان حيث إن كُلًّا منهما يرى مقدمات سفن الآخر.

يعرف الجميع بمن فيهم الصديق والعدو أنني لا أرتبك بسهولة. ولكن، بدا عليّ قلق واضح لأنني سأشهد حرباً بحرية لأول مرة في حياتي. فكانت كفاي متعرقتين، وقبضة سيفي الجلدية تترطب بشكل دائم. لم أعد شاباً، وسأضطر لخوض حرب في وسط غريب عني. ولكن خير الدين باشا كان في الخامسة والستين من عمره، ولا يبدو أنه يختلف عن شاب في العقد الثاني من عمره. وعلى الرغم من أن يده

كانت تمسك السيف العريض، والأخرى تمسك الخنجر، فقد اجتمع مع بقية القباطنة حول طاولة الحملة الواسعة، وقيّم الوضع الأخير.

كان الريس سيد علي في العقد الرابع من عمره، ولكـن بياض لحيته وشعره يلخص أيامه الصعبة والقاسية. بقي أسيراً لسنوات، وعمل مجذفاً في أسطول العدو. كان يرتدي صدرة من فرو الفهـد لكتفيهـا وياقتها وبر طويل يظهره أكثر مهابة. وكان يلبس تحتها درع سلاسـل خفيفة. كيف سيسبح إذا سقط في الماء يا ترى؟ هذا يعني أن البحـارة أكثر مقاومة منا نحن جماعة البر في الظروف كلها. وضع القبطان آلـة السدس جانباً، وأمسك الفرجار والمسطرة، وبدأ يحسب موقعنا علـى الخريطة بدقة. يعرف الجميع موهبته بالرياضـيات، ولا أحـد يـرى غضاضة من ترك حسابات الحملات له.

قال بصوته الشبيه بالرعد: "باشا، نحن الآن شرقي خط الطـول °20، 38، 2418.، وشمال خـط العـرض 42 °38، 0949.. العـدو مصطف أمامنا بنظام عرضي متعاقب على ثلاثة صفوف. وهذا نابع من ثقتهم بأوزان سفنهم. إذا كانوا سيهاجمون على خط واحد طوله ميل، فهذا يعني أنهم سيحافظون على تراص صفهم".

عبث خير الدين باشا بلحيته مفكراً، ثم قال: "سـنطبق تكتيـك حرب الجبهة التركي التقليدي يا إخوتي. إنّ تقنيات سلاح العدو تتطور يومياً، ولكنه ما زال ضعيفاً تكتيكياً. حتى إنّ دوريا لا يبحث عن حرية المبادرة، ويتبع بعض أساليب الحرب العتيقة المتفسخة".

قال الريس طورغوت وهو ينظر إلى قائده وبؤبؤا عينيه يضحكان: "هذا يعني أنكم تفكرون بما أفكر فيه يا باشا". كان رجلاً بمثل عمري وكالحديد. ذراعاه الباديتان من صدرته الخالية من الكمين، وكتفـاه، وصدره مغطاة كلها بعضلات طويلة كالدرع. محيط بعضها يصـل إلى

نصف متر. لا أحد في الدنيا عقله برأسه يريد أن يقف بوجه هذا الرجل.

قال خير الدين باشا: "بلى، هناك احتمال قوي بأننا نفكر بالأمر نفسه كما حصل من قبل يا أخي الريس طورغوت. سنقابل العدو بتكتيك الهلال مثلما نفعل في الجيوش البرية، ونسحبه إلى داخلنا بانسحاب زائف. وسنقول يا الله، ونهجم على الذين يدخلون بيننا بكل ما أوتينا من قوة، ونجبرهم على الانسحاب. ثم سنلحق بهم، ونحاصرهم من وسطهم إلى نهايتهم. وبهذا سينقسمون إلى نصفين، وسيفقدون توازنهم وقوتهم على المحاربة. الجناح الأيمن لك يا ريس طورغوت، وسيمسك الريس صالح الجناح الأيسر، وسيكون الريس السيد علي جاهزاً لتقديم الدعم في أي لحظة. وسنكون في الوسط أنا والريس سنان وجعفر وشعبان وابني حسن. في لحظة الانعطاف التام، يجب أن ترصوا صفوفكم لأننا لا نستطيع مواجهة سفن العدو الثقيلة بطريقة أخرى. دعوا الأشرعة في المنتصف لكي لا تواجهنا مشكلة في أثناء الانعطاف المفاجئ...". صمت الباشا لحظة، ثم أطلق قهقهة: "يا الله! إننا نتكلم بأدق التفاصيل مع قباطنة مثلكم. عفوكم، اعتبروا هذا من حبي للحديث معكم يا أبنائي...".

قال القباطنة معاً: "أستغفر الله يا باشا، نحن نعرف بالتأكيد". من يستطيع إنكار لمعان غفران المحبة ذي اللون الذهبي في أعينهم؟

"الجميع إلى أمكنتهم الآن. ليجعل الله سيوفنا حادة، ووجوهنا بيضاء يا أبنائي!".

نظرت إلى الريس صالح. كان في العقد الخامس، ووجهه الأحمر الضاحك يلمع كشمس المساء. من ينظر إليه مرة، يستمدّ منه الجرأة حتى لو كان في مواجهة جيش من الزبانية. قال بصوت يقرع قرعاً

مثل رجال بربروس كلهم: "باشا، في الخلف هناك وحدات احتياطية للدعم فيها قطع من أسطول البندقية بقيادة أليساندرو كونـدالميرو، ومن أسطول إسبانيا والبرتغال وجنفيز بقيادة فرانسيسكو دوريـا. حسب ما عرفناه، إن هناك أطناناً من البارود في بعض تلك السفن التي يحرسها فرانسيسكو دوريا ابن شقيق أندريا دوريا. يجب علينـا قصفها فور إكمال عملية قسم الأسطول. ولكـن، لـدي فكـرة أفضل".

قال خير الدين باشا بموقف المهتم: "تكلم يا ريس!".

"برأيي يا باشا، بعد أن نستفز أسطول الكفار، يجب أن نسـحبه نحو ميناء برفيزة. وبفضل تفوقنا بالحركة، يمكننا الالتفاف على سـفن دوريا مجدداً، وشنّ هجوم باتجاه الشاطئ. من غير الممكن أن تقوم تلك السفن الضخمة بالانعطاف في المياه قليلة العمق تلك. فإذا رست على الأرض، لن تكون سوى أهداف للتدريب على الرماية بالنسبة إلينا. في هذه الأثناء، تستهدف مدفعية قلعة أكتيوم المطلة على الميـناء سـفن الذخيرة. إذا وقع دوريا بين نارين فسينهار بالتأكيد، وسيحظى بنهايته التي لا مفر منها باكراً".

اعترض خير الدين باشا نتيجة تقديره الكبير للروح: "لدينا الكثير من جنود البر مثل عناصر الهلال والإنكشاريين والفرسان علـى مـتن سفننا يا صالح. مهما كانت تجربتهم وجرأتهم كبيرة فـإنهم عنـد أول مشكلة في معركة بحرية - خاصة إذا كان هناك احتمال بأن تكون هذه المعركة ليلية - سينفعلون بسهولة، ويمكن أن يهزموا. وحين يرون أنهم قريبون من اليابسة، سيقفزون إلى المياه العميقة على أمـل السـباحة، وسيهلك أغلبهم بهذه الطريقة. وهذا ما سيجعل السفن من دون أطقم، ويقلق مشاة البحرية المحاربين من جهة أخرى".

أطرق الريس صالح برأسه وقال: "الحق معكم يا باشا، لم أنظر إلى الأمر من زاوية واسعة هكذا".

قال خير الدين باشا بربروس: "الآن يا أبنائي، يحافظ والي سجيليا فرّانتة غونـزاغا على الجناح الأيسر من الأسطول المشترك. لقد اشتبكنا مع هذا الرجل عدة مرات على شواطئ سجيليا، وهو يعرف جيداً من نحن. انظروا، لقد تخلف إلى الداخل منذ الآن...". كان الباشا يشير إلى الخارج عبر نافذة قمرة القبطان المبقّعة براسب الملح"... وهذا مؤشر على أنه قلق. أخطر خصم لنا الآن هو أسطول البابوية في الجناح الأيمن بقيادة الأميرال ماركو غريماني. فغريماني لا يعرفنا جيداً، وبسبب تقاليد التدين الآيلة إليه من عائلته لا بد أن يحاول التصرّف ببطولة لكي يملأ عين البابا أولاً، ثم عيّن كل من دوريا وكارلو. وهو حسب أنه إذا مات فسيرتقي إلى مرتبة المبجّلين.

لا تخشوا كثيراً أسطول البندقية بقيادة فينسنزو كابللو الموجود في النهاية. لقد أكلنا الكثير من الخبز والملح مع كابللو هذا. إذا كان هنا الآن، فبالتأكيد لأنه مضطر لفعل ذلك. يجب أن يكون هدفنا الأول الآن هو غونـزاغا لأنه سيتصرف بسرعة أكبر من غريماني للضغط على خوفه. إذا استطعنا أن نستفزه ونسحبه إلى داخلنا، فسيرتبك بسهولة، ويحدث فوضى في الوسط. طليعتهم جيوفاني دوريا واحد من أبناء إخوة أندريا دوريا الذين لا يحصون. أنا أخشى حتى من إقدامه. ولكن الله خصم الظالم يا أبنائي. سيدفعون حساب الظلم الذي ظلموه في الأندلس ويتابعونه الآن في أمريكا. سنقوم بما يجب بحق أولئك اللاتينيين بعون الله!".

تكلم حضرة الباشا الحق. كانت على وجهه بقع شمس وآثار عميقة لبقايا الملح. ضاقت حدقتا عينيه الحنونين، وتقلصت شفتاه مُبرزتين

أسنانه القوية. وكانت مشاهدة تصرف أسطول العدو كما قال خير الدين باشا بالضبط طوال الساعات الست التي مرت بعد هذا مدهشة كالحلم. لم نصدق - كمال وأنا - أعيننا حين رأينا السفن الضخمة ترسو في البحر عند توقف الريح الجنوبية فجأة. وعندما هبت الريح مجدداً بعد ساعة ونيف، عادت إمكانية الحركة لأسطول دوريا بكل معنى الكلمة. لو استطاع دوريا أن يتحرك بقليل من الهدوء والذكاء لتمكن من تحويل الوضع لصالحه بواسطة قوته النارية الفظيعة. ولكن الانهيار انتشر بسرعة إلى درجة أن اسم خير الدين باشا كان أكثر تأثيراً من السفن ومشاة البحرية والمدافع. إذ فور رؤية السفن الضخمة والثقيلة تصاب إصابات بالغة وتبدأ بالغرق وسط حالة من الهلع، انسحب أكبر أسطول في التاريخ نحو خليج برفيزة، وشكّل خط دفاع غير منتظم. حينئذ، صار الوضع بشكل طبيعي بالحال التي اقترحها الريس صالح قبيل المعركة. وكان رجال المدفعية المجاهدون في قلعة أكتيوم خلف مدافعهم ينتظرون الأمر. لم يعد إحراق الأسطول كله أمراً صعباً. ولكن خير الدين باشا لم يرد أن ينتهي كل شيء هكذا بسرعة، بل كان ينوي أخذ سفن ضخمة لضمها إلى أسطوله، وأسرى نبلاء يبادلهم بفدية كبرى.

في الساعات التالية التي كانت مليئة بصراع عنيف، أمر خير الدين باشا بالانعطاف تسعين درجة لوضع اليد على بعض السفن الثقيلة السليمة. هذا يعني معركة رجلٍ لرجل من أولى ساعات احمرار الشمس وهي تميل نحو الأفق الغربي وحتى ظلام الليل الدامس. ولكن، حين رأى المجاهدون أنهم متفوقون اندفعوا بطموح كبير، حيث إنه كان من غير الممكن كبح جماحهم.

ومع مغيب الشمس، لكزت السفينة الحربية التي كنا على متنها مع خير الدين باشا أيضاً سفينة ضخمة تدعى "سوغنو دل فيورة".

وعلى الرغم من مواجهتنا مقاومة من قِبَل مجموعة من الجنود الإسبان والطليان، نجحنا بالتفوق على المدافعين المهزومين والمنهكين. ومع تدفق ذلك السائل السحري - مزيج الدم والعرق والملح - من وجوه المجاهدين الرطبة، غلى الدم في عروقي.

كان السيف يصدّ السيف، والخنجر يقابل الخنجر. تفتّتت التروس والخوذات والدروع. وبينما كان الشرر الذي يقدح من الفولاذ ينافس ضوء النجوم الأخضر الخابي، قوي إحساسي بأن ما أراه ويبهر عيني السليمة حلم. كدت أسقط في البحر عدة مرات. ولكن منظر الماء المظلم والمشؤوم أخافني كثيراً إلى درجة جلبه عقلي إلى رأسي. انتفضت، وهجمت بقوة جديدة جداً تُخجل شبابي. ضربت بدون شفقة، وكسرت بعداء بعض الأشياء التي لم أميزها جيداً في ظلمة الليل وأنا أصرخ، وتنفست شخيراً، وبصقت دماً، ولكنني لم أسقط في تلك الأمواج المظلمة. ثم انتهى الصراع فجأة كما بدأ.

بحثت عن كمال الذي كان بجانبي واختفى والجزَع يطفح من عيني، وارتخت ركبتاي حين رأيته سليماً معافى ويقف مسروراً بجانب خير الدين باشا. في تلك اللحظة، شعرت بأنني تقدمت بالسن فعلاً. مضى زمني. بدأت ألين وتفتر عزيمتي. نعم، دارت معركة فظيعة ودموية، وحاربت جيداً بين عثرات كثيرة كبيرة وصغيرة على الرغم من أن عيني عوراء. يداي وجسمي ووجهي مغطّاة كلها بالجروح والكدمات والدم. كانت كلها جروحاً سطحية لا أهمية لها، ولكن الإيقاع الشديد في قلبي لم يعجبني. كان قلبي ينبهني إلى أنه غير مسرور مما يجري. فهو يخفق بسرعة غريبة وغير متوازنة، ثم يبطئ فجأة، ويسرع مجدداً من دون إنذار، ثم يبدو وكأنه سيتوقف... ولكنني حين رأيت سعادة خير الدين باشا المتقدم بالسن أكثر مني

نسيت كل شيء، وبدأت أستمتع بوقوفنا المتوازن في مواجهة العدو، وحتى بتفوّقنا عليه.

ولكن الفضيحة الحقيقية لدوريا حدثت في الساعات المتأخرة من الليل. فحين هبط الليل، أنارت الأساطيل كلها أضواءها في مواجهة بعضها، وبدأت بإطلاق النار في لعبة تقليدية لإظهار مدى القوة للخصم. في الساعات المتقدمة من الليل، أصدر أندريا دوريا أمراً بإطفاء الأنوار؛ والمعروف عن هذا الأمر أنه أكبر إشارة نحس، واستفاد من ظلمة الليل، وهرب تاركاً أسطوله خلفه. لم ندرك حقيقة الوضع إلا عندما رفعت سفن الأسطول كلها رايات الاستسلام، وجاء المبعوثون. إذ لم ينتبه مراقبونا لهروب دوريا.

قال خير الدين باشا ووجهه طافح بتعبير القرف: "إنه لا يستحق التفكير فيه. هذا يعني أن شهرة شهامته التي تملأ العالم كاذبة. لو كنت أعرف هذا لما خرجت بنفسي أمام هذا السافل، ولأرسلت أحد القباطنة الشباب".

الفصل الثامن

العصر الرائع

1550 - 1540

I

"الخوف أكثر أوساخنا التي نستطيع تغطيتها،
ورائحتنا أكثر ما نريد إخفاءه."

بلغة قرة صو (حديقة القططة المهاجرة)

21 تشرين الأول 1540

كانت تنـــزل على الشاطئ من تلال الأسكودار الساحرة المغطاة بالسرو في ذلك الصباح طبقة من الندى رقيقة وممزوجة بدرجات اللون البنفسجي الخفيف. أبحرت مراكب الصيادين قبل شروق الشمس لكي لا تفوّت تيار الخريف الممزوج بالبركة. اجتمع الصيادون في نقط تجمع الدلافين وطيور البحر حيث تكثر الأسماك، ورموا شباكهم بأمل، كما أنهم في الوقت نفسه عملوا أدلاء للبحارة.

قرابة الظهر، تركت الطبقة المحملة برائحة الحموضة الخفيفة الممتدة من الشاطئ الآسيوي إلى الجزر منذ عدة أيام مكانها لضباب كثيف. ما زال خط الأفق مختفياً خلف ستارة فضية، وهذه إشارة إلى اقتراب غيم الضباب.

ارتعش البحر الهادئ متموجاً بقنديل الفجر الســماوي الأحمــر والزهري. ابتسم سلطان السلاطين حين هبت نسمة من وســط ورود تشرين الأول على وجهه. وحين قويت الريح، تبددت طبقة الضــباب التي غطت قلبه في الأيام الأخيرة.

أخذ شهيقاً عميقاً، وملأ رئتيه بهواء نظيف كماء الصباح الفاتر. ما زالت السماء اللامعة مغطاة بزرقة خريفٍ صافٍ. إنّ برودة الخريف الرائعة هذه المستمرة طويلاً في إسطنبول تذكره بمجيء أجمل الأيام من أجل الصيد.

فُتح قبل قليل الحديث عن أياس باشا الذي توفي قبل سنة بفعل الوباء، وقتها ارتجف سليمان خان. أما وهيمي أورخون جلبي الذي كان يشارك السلطان صمته العميق، فقد فتح له حديث نصر برفيزة بقصد إبعاده خارج حدود مملكة الماضي الخطيرة تلك. بدأ يتحدث عن البطولات التي حدثت في السفن، وعن قيادة خير الدين باشا العظيمة للأسطول بصفته شاهداً حياً. شكره سليمان خان على جمال أسلوب حديثه عن فتح كاستيلونوفا وموانئ الأدرياتيك الأخرى وضمها، ممّا أفرحه كثيراً.

بعد فترة طويلة، وقعت الدنيا وسط سلسلة انعكاسات ذهب وياقوت نثرها قبة السماء الصقيلة. فالشمس تُبرق الآن بسحر فصلَي الربيع والصيف، ويشعر كلاهما بطمأنينة لم يشعرا بها منذ زمن طويل.

في ما بعد، سأل سليمان خان: "متى سيغادر مبعوث البندقية لويغي بادويرو؟". ودفن وجهه في فراء ياقة قفطانه الحريري، فيما تغلغلت أشعة الشمس بين طيّات لفته الكثيرة.

انحنى وهيمي باحترام وأجاب: "سينطلق غداً في الصباح الباكر يا سيدنا، بعد أن يعطيه الوزير الأعظم الصهر لطفي باشا الورق اللازم. ولكن، إذا سمحتم، فقد كرر طلب لقائكم".

قدحت عينا سليمان خان: "نبهوا على أولئك السفلة أن يخرجوا من أرضي فوراً، وإلا فإنني سأضع العلاقات الدولية وقواعد اللباقة جانباً. لا يسمح لهم بأن يلتقوا أحداً أو يكلموا أحداً في الطريق، أو

يتوقفوا حتى بذريعة شرب الماء... استشهد الكثير من أبنائي الجنود بسبب هؤلاء السفلة".

"أمركم يا سلطاني. ثم إننا حصلنا على ما نريده، والباقي كلام تذروه الريح".

"هم الذين أرادوا هذه النتيجة يا وهيمي آغا، ثم يأتون للتمرغ على أبوابنا طالبين تخفيف الشروط. ليحصلوا الجزء الذي يرونه زائداً من الجبان دوريا إذاً".

"توسل مبعوث البندقية كثيراً ليشرح أن ثلاثمئة ألف دوقا ذهبية تعويضات حرب كثيرة يا سلطاني. وما زال متأملاً".

صرخ سليمان خان غاضباً: "قولوا لبادويرو إنّ هذا المبلغ لا يساوي شيئاً بالنسبة إلى راعيهم كارلو صاحب مناجم الذهب ومرتكب الحرام يا وهيمي. ارتباكهم كله بسبب معرفتهم أنهم لن يستطيعوا تحصيلَ قرشٍ واحد من كارلو".

"إنهم غاضبون جداً من بقاء الجزر التي فتحها خير الدين باشا في حملته الأخيرة، وقلعتي ناوبليا ومالفويسيا في مورا إضافة إلى الموانئ الكبيرة بيدنا يا سيدنا. وادّعوا أنهم على ثقة بأنهم سيجدون طريقاً وسطاً".

"ألا نسيطر على قلعتي نادين وأرينا الكبيرتين في دالماتشيا يا وهيمي؟ لم لا يغضبون من هذا، ويغضبون من سيطرتنا على الشواطئ المرجانية هذه؟".

ضحك وهيمي بهدوء: "سيقهرون من كلّ واحدة على حدة يا سلطان سلاطيني، ولكنهم اضطروا لإنهاء اللقاء وامتقعت وجوههم بالحمرة والزرقة عندما قال لهم لطفي باشا كلاماً مشابهاً".

"لا جدوى من هذا كله يا صديقي القديم. كان عليهم أن يفكروا بهذا منذ البداية، ويتصرفوا على هذا الأساس. هم فعلوا ذلك بأنفسهم.

رحمتنا وشفاعة الملك فرانسوا كانتا سبب تخفيض ضرائب الجمارك، والسماح لهم بمتابعة تجارتهم. ليشكروا ربهم، وليكتفوا بهذا. ثم إننا لن ننسى دفعهم ولكزهم صديقنا القديم المرحوم الملك أندريا غريتي في اجتماع مجلس الأعيان، وجعله يغور إلى تحت الأرض. إذا تعلقوا بذيل شارلكان مجدداً فسأستولي على البندقية كلها!".

II

27 تشرين الثاني 1543

قال الوزير الأعظم سليمان باشا المخصي: "قال السلطان: يا *محمد قرّة الأمراء*، وغدت العبارة بداية للتاريخ". تجرأ الصهر لطفي باشا على صفع شقيقة سلطان السلاطين الحبيبة السلطانة هوبان، وهذا ما جعله يخسر الصدارة والمصاهرة، ومضى على نفيه إلى ديمتوكا أكثر من سنتين. صار خاتم الصدارة بعهدة سيد سادة مصر السابق وفاتح عدن سليمان باشا المخصي. حزن الباشا كثيراً على وفاة الأمير محمد خان بمرض الحمرة المفاجئ بعد أن نجح بوظيفة سيد سنجق مانيسا، وختم القرآن وصبب دموعه على سجادة الصلاة إلى الصباح من أجل الأمير الذي يعرفه منذ صغره.

نظر وهيمي إلى وجه الباشا العجوز الذي تظهر عليه خطوط عميقة، وعينيه اللتين ما زالتا براقتين بشكل مدهش، وقال بهدوء: "إنه بكر سليمان خان من السلطانة حُرّم". ثم ألقى الشعر الذي كتبه السلطان في الليلة الماضية وحفظه:

"صار روحاً جميلة حين غضب العشق من محمد

أربط الشريط برقبته على أنه سالفين من شعره"

هز الباشا رأسه المهيب: "يقرأ حضرة السلطان القرآن، ويدعو عند قبر ابنه كل مساء يا وهيمي منذ عودته من حملة أسترغون في 18 شعبان. أمر المعماري سنان بأن ينشئ جامعاً ومدرسة ضخمة قرب الفاتح". ثم تنهد وهو ينظر إلى ضوء الشمس الشاحب المتراقص على أغصان أشجار الفاكهة في حديقة القصر الرائعة: "لقد أفقد هذا الألم الكبير الرجلَ مزاجه بعد أن أدخل بودين ضمن حدود الدولة العلية قبل سنتين، وفتح أسترغون في التاسع من جمادي الأول هذا العام. وبعد شهر فتح قلعتي إستولني وبلغراد. مع أن خير الدين بربروس باشا جلب أخبارَ توفيقه الكثيرة وعلى رأسها خبر توفيقه في غرب البحر المتوسط".

خيم صمت قصير. سمعا أصواتَ صفارات البحارة والأجراس المنبعثة من ميناء أمين أونو، والقادمة عبر سفوح السيركجي. كان أحدهما ينبه الآخر للضباب المتسلل من الشمال. وعلى الرغم من جلوس وهيمي في حضرته باحترام، فقد نهض من دون أن يطلب إذناً وهو يشعر بقلق شديد كما لو أنّ بركاناً قديماً بدأ ينفث دخاناً ورماداً. توقف فجأة بتردد، وبدأ يذرع الغرفة كأسد حبيس في عقله. قال بصوت لم يشعر أنه يرتجف: "مع أنه كم كان منفعلاً لأنه سيحظى بحفيدة". وأدار عينه الوحيدة ذات الرمص نحو الفراغ وكأنه يريد أن يبتعد حتى عن نفسه.

سأل الباشا بتعبير شارد في تلك اللحظة: "أي حفيدة؟".

"أقصد السلطانة عائشة هوما ابنة السلطانة مهريماه ووالي ديار بكر السابق والوزير الثالث الحالي رستم باشا يا باشا. لا أنسى انفعال السلطان وفرحه آذاك. فقد بقي حاكم العالم طوال الحملة يهذي بحفيدته التي يهتم بها ويشتاق إليها". توقف وهيمي لحظة، وضغط

بأصابعه على خنجره الذي يضعه على خصره، ثم تابع بصوت متقطع: "يا باشا صاحب الفهم، سُر سليمان خان كثيراً من فتح قوات الطليعة إستولني - بلغراد، وتتويجهم ملكاً على المجر، وتحول أسترغون إلى مركز للحملات، أو على الأصح المدينة التي يُدفنون فيها. ليكن قلبكم مرتاحاً".

تحدث الباشا البالغ من العمر أربعة وسبعين عاماً ببطء، وهو يدلك مفاصله المنتفخة التي تؤلمه: "تقول الصواب يا وهيمي جلبي، ولكنني تقدمت بالسن كثيراً يا أخي. رق قلبي، وصرت أُبدي حساسية مفرطة تجاه من أحب. اجلس، تعال واجلس هنا يا وهيمي!".

تلفت وهيمي حوله وكأنه يبحث عما يُهدئ توتره، ثم جلس مجدداً بصمت.

"انظر يا صديقي وهيمي، لم تعد ركبتاي تستطيعان حمل جسمي. السنون التي قضيتها في إقليم مصر الصعب، وحملات المحيط المتعاقبة أتعبت هذا الجسم الواهن... من الآن فصاعداً من الصعب جداً أن أشارك بالحملات. ولكن رؤية هيبة العثمانيين أمام قلعة أسترغون التي ترجف القلوب تستحق كل شيء. كيف كان انضباط الجيش ينعكس في ألبسة الجنود ولمعان أسلحتهم، وصمت الاحترام الذي خيّم على الإنكشاريين، ووقفتهم الوقورة. هل تذكر أول ظهور لسليمان خان أمام خيمته السلطانية بدرع الحبكة وفوقها صدرة الفراء السوداء ذات الياقة العريضة بأربع أذرع والشال الأحمر على كتفيه يا وهيمي؟ أتذكّر أيضاً خطابه بالجيش ومن حوله من موظفي التشريفات وحملة السلاح وحملة البلطات ذوي السوالف، والحراس الإنكشاريين، والموظفين القدماء، والحرس الخاص؟ وكيف كانت ريشة لفة السلطان الضخمة ذات الألماسة تتمايل في الهواء؟ وكيف مدّ السيف الذي تناوله

من حامل سلاحه نحو الهواء، وأصدر أمره بالهجوم قائلاً: *هيا يا أبنائي! اهجموا! حماكم الله؟*".

سحب وهيمي خنجره الحاد، وبينما كان يقلبه بين أصابعه بحركة معتادة وسرعة لا يستوعبها عقل قال: "وماذا يعني أن أتذكر يا باشا؟". ثم تابع وكأنه يحدث نفسه: "لقد حفرت تلك اللحظات السعيدة في قلبي. وقد حفرتها لكي ترافقني حتى في قبري إن شاء الله".

نظر الباشا إلى الخنجر الذي بيد وهيمي بدهشة وقليل من القلق، ولكنه أدرك أن الجاسوس الخبير غير منتبه إلى عرضه مهارته الخطيرة بخنجره لأنه شارد في ذكرياته الرائعة: "آه من التقدم بالسن يا وهيمي! آه من التقدم بالسن! ليت الله يمدّ بعمري قليلاً، وأشاهد حاكم العالم بطوله وعرضه أمام الجيش مرة أخرى".

هز وهيمي رأسه إلى الجانبين بموقف يمنح الجرأة: "باشا، الغازي خير الدين بربروس باشا قرينكم، انظر إلى حيويته. أنصحكم بألا تفلتوا أنفسكم. ستكون هناك حملات كثيرة مماثلة لأسترغون بإذن الله. وستكونون في المقدمة بصفتكم قائداً للجيش". انتبه إلى الخنجر بيده فجأة، فأعاده إلى غمده فوراً مدركاً مدى قلة الاحترام التي أقدم عليها.

ضحك سليمان باشا بصوت منخفض، وقال: "كبرنا يا وهيمي، كبرنا. ماذا سيحدث إذا أفلتنا أنفسنا أو حافظنا على حيويتنا بعد هذا العمر؟ خير الدين باشا عبد محظوظ من عباد الله، لا حرمنا الله منه".

قال وهيمي بصوت صافٍ وقوي يظهر بوضوح أنه نابع من القلب: "آمين!".

داعب سليمان باشا لحيته البيضاء لحظة، ثم قال متردّداً: "أنت ما زلت شاباً يا وهيمي... لن ينسى أحد دخولـــك قلعـــة أســـترغون، وإنـــزالك الصليب الذهبـــي من فوق قبة الكّنيسة الكبرى، وتحطيمك معنويات المدافعين مما أدى إلى هزيمتهم".

شعر وهيمي في تلك اللحظة أن جسمه البالغ من العمـــر ســـبعة وخمسين عاماً بكامل حيويته كقوس كازاخية. فقد أعجبه كثيراً إبـــراز سليمان باشا لشبابه.

تابع الباشا وقد ظهر على وجهه تعبيرُ قلق: "وقعت على رأســـي مشكلة خسرف باشا المجنون الذي عيناه مكاننا ليكون والياً على مصر قبيل حملة العراقين سنة 940 يا وهيمي. تضايقني كثيراً رسائله الغريبـــة التي بدأ بإرسالها لي بعد عزله من وظيفته. كنت حينئذ أترجى السلطان من أجله، وهو يعتبرني الآن سبب عزله من وظيفته، وكأنني أضع عيني على منصبه بعد هذا العمر".

"يا باشا صاحب الفهم، أنا أعرف أنكم حزنتم كثيراً بسبب قضـــيّة خسرف باشا. لقد جيء به كوزير تحت القبة، وبرأيي هذا أهم بكثير من وظيفة سيد سادة مصر. سيهدأ غضبه بعد فترة قصيرة، لا تقلقوا".

ضحك الباشا بصوت مليء بالألم، ثم حملقت عينـــاه الشـــبيهتان بالعقيق قليلاً: "إنه رجل طموح وخطير يا وهيمي. وهـــو يفضّـــل أن يكون في مقام أدنى ومنفرداً مثل سيد سادة مصر على أن يكون وزيراً بين عدة وزراء هنا. الأهم بالنسبة لمن يريد أن يعـــيش في الـــذروة ألا يكون حوله من يعرقله".

"اصبروا قليلاً يا باشا. أنا مقتنع أن ما يصعب على خسرف باشا هو وجودكم في الصدارة العظمى. لا بدّ أن تكون ترقية ســـلفه قـــد أججت عرق الغيرة لديه".

قال الباشا: "سنرى ما تخبئه لنا الدنيا". والتفت نحو النافذة الكبيرة ذات القوس، ثم قال فجأة: "وعدتني يا وهيمي أن تحكـــي لي كيـــف تسللت إلى قلعة أسترغون، وأنـــزلت الصليب من فـــوق الكنيســـة، ولكننا اضطررنا أن نؤجل هذا نتيجة قضية الوفاة المؤلمة، لا تعتقد أنـــني نسيت يا صديقي".

ضحك وهيمي بخجل، وأطرق برأسه: "يا باشا صاحب الفهم، ما فعلناه لا يُعتبر شيئاً بالنسبة لجندي يحب وطنه وسلطان سلاطينه بشكل مطلق. نحمد الله لأننا رأينا بعينينا الفانيتين كيف حاز العثمانيون احترام الصديق والعدو لعظمتهم في تلك الحملة. زاد الجيش السلطاني العـــالي من احترامه والثقة به بحرصه على حماية الأراضي المزروعة عند مـــروره في الأراضي البعيدة مترامية الأطراف، وابتعاده إلى أقصى الحدود عـــن ظلم الأهالي، وعدم أخذه شيئاً يريده إلا بعد دفع ثمنه. غير هـــذا، إنّ تدخل سليمان خان شخصياً، وحكمه العادل في قضـــايا وخلافـــات مستعصية بين الأهالي، ربطا الشهود المحليين والأجانـــب بـــه بشـــكل جذري من قلوبهم. سيحيون تلك اللحظات دائماً، ويتحدثون عنها مع أولادهم على مدى عصور. لا أحد يشك في هذا. غير ذلك، لا بد لي من القول إنني لم أكن أنوي سرقة ذلك الصليب من قبة الكنيسة. كنت أعرف أن ذلك الصليب ثقيل الوزن، وكانت فكرتي أن أنـــزله فقط. ولكن "كمال" كان أمهر مما توقعت في هذا الأمر.

يشهد الله يا باشا أننا حين خرجنا من بودين، فتحت نار المدفعية من أبراج القلعة على عناصر الهلال الذين حملوا رسالة نداء الاستسلام. كنا نعرف أنه لا توجد سوى كتيبة حراس مؤلفة من ألف وخمســـمئة جندي إسباني وألماني وإيطالي بقيادة ديتريش فون ريشـــتهوفن أحـــد النبلاء الموالين لفرديناند. ولكن وحدة خبيرة مؤلفة من خمسين شخصاً

تدافع عن القلعة يمكنها أن تشغل جيشاً أياماً طويلة، وكان من الممكن أن يحصل لنا شيئاً كهذا. كنا واثقين أن أسترغون ستسقط بالتأكيد، ولكنهم صمدوا عشرة أيام. واعتماداً على تجربتي، عرفت جيداً أن تسريع الأمر ممكن بهز معنوياتهم؛ لأن حرب القلاع هكذا. وعرفتُ بالتأكيد أن هناك مجموعة من نخبة رماة السهام مؤلفة من ثلاثمئة شخص، وأن هؤلاء لا يخطئون الهدف حتى في ظلمة الليل. كانوا من كتيبة رماة *أسود ليجيون*. وهذه كتيبة فدائيين مختارة شكّلها فرديناند حديثاً، ومخلصة لملكها إلى درجة تقديم أرواحها فداءً له. تعمل غالباً مع عناصر *الصليب الحديدي* في عمليات الاغتيال. إنها تشبه شجعان محفل قونجا باش عندنا، ولكن هؤلاء أُدخِلوا ضمن الجيش كفرقة مختصة. إنهم رجال زائغو الأعين، يمكن أن يفتحوا على رؤوسنا مشاكل كثيرة. وبعد نزول الجيش بنظامه الدقيق وتعداده العظيم البالغ مئتي ألف جندي بوقت ليس طويلاً فهمنا أن المدافعين الخبراء قد اتخذوا مواقعهم في الاستحكامات. فهم لم يكتفوا بإحاطة القلعة بخندق عريض مليء بالماء، بل زرعوا على سفحيه المتقابلين خوازيق حادة. غير هذا، لقد أبلغني رجالي أنهم غطوا بالقطران المسافات التي تفصل بين جدران القلعة والخندق، وأنه من الممكن أن يشعلوه بالسهام المشتعلة في حال الهجوم. غير هذا، إننا جميعاً نشم رائحة الزيت المنبعثة من خلف مسننات الجدران.

في السابع والعشرين من ربيع الثاني، بدأ ثلاثمئة وخمسة عشر مدفعاً ضخماً بدك الجدران المرتفعة. وفي ضحى اليوم نفسه، بدأ الأسطول النهري الخفيف المكلف بتأمين الحصار من دون مشاكل، والمؤلف من ثلاثمئة وإحدى وسبعين قطعة بعمليات نهب المؤن والعتاد على طول نهر طونا. اكتشفنا أن المدافعين عن قلعة أسترغون أمهر مما

توقعنا بإصلاح التصدعات التي تحدثها مدفعياتنا في الجدران. وفي فترة تسللي مع كمال الغرناطي من فتحة الصرف الصحي في القلعة على ضفة طونا، استطاعت مجموعة من مئتي مدافع أن تصلح الفراغات التي أُحدثت في جدران القلعة بواسطة أحجار ضخمة أخرجت من مكان ما تحت القلعة. من المؤكد أن ذاك لم يكن وضعاً جيداً بالنسبة إلينا...".

تدخّل الباشا قائلاً: "هذه هي النقطة التي لم أفهمها يا وهيمي. أبلغكم الجواسيس الذين اشتريتموهم من الداخل بأن فتحة الصرف الصحّي على عمق خمسين شبراً على الأقل تحت الماء. وكانت فتحتا الدخول والخروج مغلقتين ببابين حديديين أحكم إغلاقهما بواسطة مزلاجين. ثم إنني حين أذكر الآن القذارة الفظيعة الفائضة ورائحتها تنقلب معدتي. لا يمكن لأي إنسان أن يعبر من هناك يا وهيمي، فكيف نجحتما؟ ثم كيف قبلت أن تصطحب معك "كمال" الذي تخشى عليه من عينك في هذه المهمة الخطيرة؟".

تابع وهيمي من دون أن يخرب جديته: "طونا مثل زوجتي الشرعية يا باشا. أعرف جيداً متى يهدأ ومتى يغضب. غير هذا، كنت أدرك أن مستوى الماء ينخفض ولو قليلاً بتأثير حرارة الجو. وكمال عنيد أكثر مما تتوقعون، كيف يجب أن أقولها، إنه طفولي ولكنه شاب مندفع وسريع الغضب. غضبه سيئ جداً، وليس من مصلحتي أن أجادله قبيل المهمة. وقد قال لي منذ البداية بنبرة جازمة إنه سيأتي معي مهما فعلت، وإنه لا فائدة من جدلي معه، لذلك لم أرفض كثيراً.

كنت أعرف أنه من الممكن أن نصاب بأمراض كثيرة، والأسوأ من هذا أنه من الممكن أن نصاب بالوباء. ولكن كبير أطباء سلطاننا محمد بدر الدين أفندي دهننا من فرقينا إلى أقدامنا ثلاث مرات بزيت

زيتون منقوع فيه زنجبيل وكافور. كانت لزُوجتنا تُسهِّل تسللنا من أضيق الأماكن. غير هذا، لقد ارتدينا قميصين أسودين وسروالين ألمانيين، ودهنّا وجهينا بمسحوق الفحم، ووضع كل منا تحت حزامه سكيناً صغيراً يمكن استخدامها كأداة حادة ومطرقة وجلد خروف على شكل كيس غير الخنجر. وحملنا على أكتافنا حبالاً من أجل إنزال الصليب الذهبي.

حسبت من قبل أن الحجارة التي يدخل فيها مزلاج قفل الباب لن تصعب علينا بسبب تآكلها بفعل المدّ والجذر طوال السنين، ولكنني لم أكن أتوقع أن تكون الجنازير الغليظة مثبتة بالصواميل من سبعة أماكن. كيف سأشرح لك الخوف الذي انتابنا في غروب ذلك اليوم يا باشا؟ فجأة، حوصرنا برائحة أشعرتنا كما لو أننا وسط مكان مغلق فيه المئات من جثث الكفار تلك المرتدية ثيابها وقد فتحت قبورها، وبدأت تتفسخ للتو... كمال بارك الله فيه يحتمل أكثر مني، ولكن ماذا عني؟.. لقد انتهى أمري بكل معنى الكلمة يا باشا. لا أعرف حتى الآن كيف لم أفقد وعيي، وأسقط. أعتقد أن ما أبقاني منتصباً هو شعوري بالخجل الشديد أمام كمال. ولكن تلك الرائحة السامّة سحبت روحي، وأخذتها. ارتخت مفاصلي، وارتجفت عضلاتي؛ حتى إن عيني الكفيفة هذه بدأت تؤلمني وكأن عقلي قد اختل.

ولولا أن "كمال" تسلل بجسده النحيل بين القضبان التي حركناها من مكانها بشكل خفيف ودخل ونجح باقتلاع أحد الصواميل لفشلت عمليتنا. بعد أن دخلت، غططت بالماء مع جلد الخروف المنفوخ حتى منتصفه بالهواء، والذي كنت قد جلبته معي. جلد الخروف المدبوغ مقاوم يا باشا، ولكن لو كان منفوخاً كله لكان من الممكن أن يتمزق لدى مواجهة العوائق الصعبة.

فرحنا لدى رؤيتنا أن الماء لا يصل إلى نهاية السطح المقوس الذي فوقنا. وأدركنا أننا إذا التففنا بسترتينا، وضربنا بأذرعنا بقليل من القوة، ورفعنا رأسينا بشكل كافٍ، فلن يكون خروجنا من هناك مشكلة. الأمر الوحيد الذي كان يصعّب علينا المسألة بعد ذلك هو الظلام. كنت أتخبط في المستنقع وأنا أشعر بفراغ فظيع ناجم عن عدم إحساسي بالزمن، مثلما يحصل حين لا أعرف إن كان الجو في الخارج قد أظلم أم لا. وحين أدركت أن قلبي يخفق بسرعة كبيرة كما حدث بعد معركة برفيزة، وأن هذا ليس ناجماً عن التعب، خفت في البداية، ثم توترت أعصابي كثيراً يا باشا. لأن هذه علامات التقدم بالسن، والتعب، ونفاد القوة. ولكن "كمال" لا يزال فتياً وقوياً جداً. ما الأكثر طبيعية في مثل ذاك الوضع من أن يحيي وجود شبابي الذي بقي في الماضي؟

وكما توقعت، قبل مضي عشر دقائق، لامست أقدامنا الأرض. كان بإمكاننا رؤية الضوء الخافت المتسلل من زوايا إطار الباب التي كسرها الجواسيس الألمان...".

III

همس وهيمي بأذن كمال وهو يمسك بيده: "انتهيتُ يا ولد... قف قليلاً... قف، لنأخذ نفساً قبل أن نصعد إلى الأعلى...".

كانت القلعة تبدو في ظلمة ليل الصيف الخفيفة وكأنها مهجورة. وكانت الطرق الترابية والمرصوفة بالحجارة وسط الظلام الرصاصي المفعم برائحة الدخان مخيفة بما لا يقل عن هدير طوننا الخفيف.

قال كمال: "لنخرج إلى الأعلى أولاً، ثم تنفس كما تشاء يا وهيمي آغا". هو أيضاً كان متعباً، ولكنه ليس مستسلماً. قال

وهيمي لنفسه: *لديه شباب يمكن أن يستهلكه*. لم يبق في كمال ما يمكن معرفته منه سوى بريق عينيه الزرقاوين بسبب الطين القذر ومياه الصرف الصحّي السوداء، ولكنه رغم ذلك كان يتبسم.

"لم أعد أشمّ أيّ رائحة يا بني".

"وأنا أيضاً يا آغا. ولكننا إذا أردنا الخروج من حيث دخلنا، فعلينا أن نستغل جيداً وقت تناول الجنود الألمان الطعام هذا. فمهما كانوا قليلي العدد فقد أثبتوا خلال عشرة أيام من الحصار أنهم أصحاب خبرة".

قال وهيمي: "هيا إذاً!". وتحركا للخروج من النفق الشبيه بالكابوس. حرّكا حديد الباب المتآكل عبر العصور من مكانه بمهارة، وبعد تناثر حجارته وطينه، تسلل كمال إلى الداخل بداية كما فعل في المرة السابقة.

إن إحدى خصوصيات قلاع نهر طونا أن *بلاست*، أي الذراع التي تبطئ دوران المطاحن المبنية على تفرعات النهر الضيقة تُرخى قليلاً في بعض ليالي الصيف من أجل ملء صهاريج القلعة الأرضية. هذا الوضع يعني دوراناً أسرع للمطاحن، وبالطبع ضجيجاً أكبر. وكانت الليلة إحدى تلك الليالي. بعد صعود وهيمي من القناة سمع صوت ذلك الاحتكاك المقلق جداً مختلطاً مع هدير النهر منذ الدقائق الأولى.

هذا الوضع يعني تفوقاً وخطراً للطرفين. يمكن لهذا الصوت أن يشتت انتباه العناصر المتسللة إلى القلعة، وبالتالي يؤدي إلى القبض عليهم متلبسين، وهذا لصالح المدافعين. وبالنسبة للطرف المهاجم، إذا كان منتبهاً ومحظوظاً كفاية فمن الممكن أن يتحرك بسهولة من دون أن يُشعر أحداً؛ وهذه الحال تمنح إمكانية المبادرة بالحركة.

فور خروج وهيمي من الفتحة المظلمة انتبه إلى أن سهم برج الدب الأكبر يُشير باتجاه الغرب. هذا يعني أنهما نجحا بالخلاص من ذلك المستنقع المثير للاشمئزاز خلال ربع ساعة. وهذا يشير إلى أنهما يتقدمان ضمن التوقعات. ارتاح حين انتبه إلى أن ضربات قلبه عادت إلى طبيعتها. كانت رائحة الوادي الصخري العريض المجاور المرتبط مع القناة في الخارج لا تساوي شيئاً مقارنة بالرائحة التي في الداخل. أخذ وهيمي نفساً عميقاً، وشعر أنه استرد قوته، وتوقف الارتجاف في عضلاته أيضاً. التفت إلى كمال، كانت بنية الرجل القوية والشابة وغليظة العظام، ومحافظته على رشاقته تمنحان من ينظر إليه الشعور بأنّه يشرئب من بين الصخور وجذور الأشجار المحيطة به.

نظّفا نفسيهما بقدر ما استطاعا في الوادي الصغير، ولبسا الرداءين، ووضعا القبعتين عريضتي الحواف ذواتي الريش اللتين يلبس مثلهما عادة الضباط النمساويون. وكان المتعاونون معهما قد وضعوا تلك الثياب من أجلهما في كيس هناك. ثم بدأا بالتقدم بحزم. وكما كان وهيمي متوقعاً غابت أبراج الأجراس عن الأعين. ولكنهما الآن يواجهان خطورة الضياع في أزقة مدينة لا يعرفانها. ولا يبدو أن أحداً من شركائهم المحليين يمكن أن يقدم لهما المساعدة. وبعد تردد وهيمي القصير، بدأا يصنعان في زاوية كل شارع ربوة صغيرة من الحصى وحجارة الرصيف. وكان كمال أيضاً يهوي بخنجره على زاوية الجدران العتيقة جداً بقوّة، ويترك آثاراً دائمة على تلك الحجارة التي نبتت عليها الطحالب.

لم يكونا يعرفان ما إذا كانا سيريان هذه الإشارات إذا اضطرا للهرب بسرعة أم لا، ولكن هذا أفضل ما يمكن فعله الآن. وفي الواقع، لم يكن وهيمي يهتم بنفسه كثيراً، ولم يهتم بأي وقت. فقد عاش حتى

اليوم على شواطئ بحار عميقة في ظلال غيوم الموت الرمادية، واخترق بجسمه الكثير من دوائر النار وخرج. كان يخاف على كمال فقط. السنون الصعبة والمهمات الثقيلة أنضجت "كمال" كفاية، ولكن وهيمي على الرغم من هذا يخاف عليه. وكان وهيمي حين يرى أن "كمال" خرج من حالته الانفعالية مع مرور الزمن، وبات يتصرف بثقة كبيرة بالنفس، يندهش من جهة، وينتفخ صدره فخراً به من جهة أخرى.

تقدّما وسط الظلام على طرق مرصوفة بالحجارة منارة بضوء خافت ينبعث من الأعماق، ومرّا من أمام فيلات مقفرة بيضاء وملونة ذات طابقين وحدائق مزهرة، ودكاكين أغلقت أبوابها منذ زمن، ومستودعات حجرية، وعنابر، ومخازن حبوب أسطوانية، وإسطبلات لا فائدة منها، وحمامات عامة سحب ماؤها، وكنائس وأديرة مهجورة، وصهاريج ماء رومية ذات أقواس، وتسلّقا الطريق الصاعدة من دون أن يُخفّفا سرعتهما. وصلا إلى جدران القلعة الداخلية المنخفضة نسبياً وهما يتقدمان من دون أن يريا غير الظلال الباهتة في أبراج المراقبة. وحين التقطا أنفاسهما، انطلق صوت حاد من مكان قريب جداً خلفهما أدى إلى ارتعادهما.

"Megáll!.. Mutasd be magad!". "قفا! عرفا بنفسيكما!".

التفت وهيمي، وعلى عكس الناس العاديين في لحظات التوتر كتلك، ابتسم للشكل غير الواضح الذي تكلم من وسط الظلام خلفهما قائلاً: "Ör járör/ دورية الحراسة".

وفي هذه الأثناء، امتدت يده إلى خنجره، وسحبته بطريقة جعلت قلب كمال يرتجف إعجاباً بسرعة معلمه التي تتجاوز حدود العقل. وبينما كان يقول لنفسه: *تقدم وهيمي بالسن مجرد وهم*. قال ذلك

الصوت الغريب شاكاً بما معناه: "الدورية مرّت قبل نصف ساعة!". ولكن "كمال" فهم من لكنة صوتيهما أنهما أشبه بأسيرين.

حينئذ، فهم كمال أنّ معلمه أخذ المبادرة بالتفوق نتيجة تجربته العميقة.

زأر وهيمي قائلاً: "نعم، لقد مرت الدورية. ولكننا نبحث عن بعض السكارى الهاربين من الحراسة أمثالك يا كلب. اخرج من جحرك، وأرني وجهك!".

خرج جنديان ثملان من ظل نزل حجري لزج كريه الرائحة قرب طريق ضيق أسفل السور. كان الجو مظلماً تماماً، وليس هناك سوى ضوء باهت منعكس من مشاعل برج المراقبة على بعد خمسين قدماً. وضع وهيمي وكمال الضوء خلفهما من دون أن ينبّه أحدهما الآخر. وفور رؤية وهيمي حالة الجنديين المتراخية، زأر وهو يتحرك: "ما هذه الحال؟". وشاهد كمال جرأة معلمه التي شهدها مرات عدة من قبل وهو مفتوح الفم دهشةً.

اشتكى الجنديان اللذان كانا يخفيان وجهيهما بياقتي رداءيهما مثلهما: "ليس من الصواب أن تبلغا عنا. هذا ظلم يا قائد، هل بقي أحد صاحياً في المدينة غيركما يا ترى؟".

قال وهيمي مؤنباً: "هذا لا يهمني يا جندي. أوامر فون ريشتهوفن واضحة في قضية عدم الرأفة بمن يستخف بالمناوبة".

قال أحد الجنديين بصوت متوتر أكثر من اللازم: "أنتما ألمانيان، هذا واضح من لكنتكما، ومن الطبيعي أن تكونا إلى جانب قائدكما. من أين لكما العدالة!؟".

حذره وهيمي قائلاً: "اخرس!". تلفت كمال حوله خشية أن يأتي أحد فجأة بسبب هذا الضجيج.

حينئذ، أفرغ الجندي الآخر ما في قلبه بلسان ثقيل معبراً عن مشكلة قديمة في داخله: "أنتم تستخفون بنا أيها القائد... وتحاولون دائماً قمعنا لأننا مجر...".

تعالى عليه وهيمي: "لولانا نحن الألمان لتحولت المجر إلى مرعى كبير للأتراك، ولعملتم أيها الكلاب رعاة عندهم!".

بدا على الجنديين أن الثمالة بدأت تخرج من جسميهما: "دائماً يتصرف معنا الأتراك بعدالة وكرم كما يليق بأصالتنا. على الأقل، إنهم يحترموننا... أما أنتم الألمان، فلم تتوانوا في أي لحظة عن تجاوز حدود الوحدة الكاثوليكية، ومعاملتنا معاملة العبيد وتحت التهديد".

سأل وهيمي بموقف المهادن: "وهل هذا هو الوقت المناسب لحديث كهذا يا جندي؟". في تلك اللحظة، فهم كمال ما يريد معلمه أن يفعله. التقط وهيمي ذلك العرق الحساس الذي لا يخطئه أي جاسوس قديم في مهنته باستشرافه للمستقبل.

تجرأ الجندي أكثر نتيجة الموقف اللين هذا، وصرخ بنبرة ردّدت الأسوار أصداءها: "نعم، هذا وقته... هذه المجر، والأتراك سيأخذون المدينة بعد يومين على الأكثر... هذا ما تعرفونه أنتم ويعرفه جيداً قائدكم الخبيث الذي تفوح منه رائحة الحيوانات النافقة مثلكم المدعو فون ريشتهوفن... وعود فرديناند فارغة... وملككم مجرد جبان لا يفكر سوى بإنقاذ عرشه...". أطلق الجندي قهقهة غاضبة وتابع: "حتى إن فرديناند ليس ملكاً حقيقياً، فأرضه ملك لشقيقه الأكبر شارلكان... لا يعدو شارلكان عن كونه أكثر من والٍ عند شقيقه، وقريباً سينهي سليمان هذا الأمر... لا تتأملوا أن يساعدكم الطليان والإسبان ضد سليمان في أي وقت. سيأخذ سليمان إيطاليا كلها أخيراً، ويرفع الأذان في كنيسة سانت بيترو... أريد يومئذ أن أرى حالة شماسيكم الجلادين

الذين يمارسون التعذيب في كنائس مدريد، وملككم شارلكان الذي يتمرغ سراً مع عاهرات خمارات برشلونة...". أطلق الجندي مجدداً قهقهته تلك المفعمة بغضب عميق واستفزاز.

استمر وهيمي بِنكء الجرح: "الشيء الوحيد الذي نفعله هو أننا نضطر للتضحية بأرواحنا من أجل إبقاء أمثالكم ضمن الوحدة المسيحية. فور دخول الأتراك المدينة سيخرجونكم عن دينكم يا كلاب أتيلا وسليمان!".

صرخ الجندي: "وفي عروقنا دم ألماني أيضاً". صار يرفع صوته بقدر ما يستطيع، ويرفع حربته بشكل مهدِد. "نعم، ولكن رائحتنا ليست هكذا كرائحة الخنازير... ثم إن الأتراك إلى اليوم لم يظلموا أحداً مثلما فعلتم، بل تركوا حرية اللغة والدين والتقاليد للجميع... ولم يهينوا أحداً أو يحتقروه بسبب عقيدته...".

قال وهيمي بهدوء: "اتفق شارلكان وفرديناند، وقررا منذ زمن تذويب اللغة المجرية وثقافتها. ستتغير أسماؤكم، وتجمع قيود عمادتكم من الكنائس، وتُحرق. وعندها، ستبدون كلكم من أصل ألماني. ادعوا ربكم لكي يأخذ الأتراك هذه المدينة، وإلا فلن تجدوا أثراً لأي مجريّ على هذه الأرض".

صرخ أحد الجنديين: "كفى أيها الخنزير، ذو رائحة جحر الجرذان!". وأطلق صيحة حرب، وهجم على وهيمي. تملص جسم وهيمي المتعب منه لأنه خبير. أما الجندي الآخر فقد شهر حربته في وجه كمال، وهاجمه في الوقت نفسه. خطا كمال خطوة إلى الخلف، وأحنى جسمه من دون توتر، وقابل الهجوم بالاقتراب من خصمه بطريقة فاجأته. أطلق رمحه في الفراغ بعد أن شطب رأسه الحاد كتفه اليمنى ووجهه. هجمة الجندي القوية غير المتوازنة إضافة إلى تأثير

المشروب أفقداه توازنه، ولم يكن صعباً على كمال الانتقال إلى الهجوم المضاد.

أمسك كمال الرمح من وسطه بسهولة، ونـزل بقبضته ما بين حاجبي الجندي كالبرق في الليل. فجأة، سقط الحارس حيث هو، وغط بنوم عميق استمرّ حتى الصباح.

أمّا الجاسوس العجوز فقد وضع رأس الجندي الآخر تحت إبطه، وأداره في مكانه، وانتظر حتى ينقطع نفسه. كان الألم الذي يشعر به في عينه التي لا ترى يمتد حتى أعماق مخه، ولكنه تعلم ألا يهتم بهذا. وبعد وقت قصير فقد الجندي وعيه بسهولة بسبب غضبه وثمالته.

قال وهيمي: "لندع هذين على طرف الطريق لكي يُشاهدا. وإذا سارت الأمور كما نأمل، فستشتعل نار الفتنة صباحاً بشكل يُدخل المجر بصراع رهيب مع الآخرين حول مسؤولية سقوط صليبهم المرفوع منذ قرون. سيؤجج المجر غضبهم من الألمان هذا المساء. وسيضطر فون ريشتهوفن لتسليم المدينة من دون أي مشكلة قبل أن يبدأ أيّ عصيان داخلي. هيا، يمكننا الاستمرار الآن".

تكلم كمال بتعبير المندهش ويداه على خصره: "هناك الكثير مما سأتعلمه منك...".

أراح وهيمي نفسه لفترة، ثم همس لكمال: "الدفاع الأساسي على الأسوار الخارجية. لن يصعب علينا تجاوز هذه الجدران. طول المدفع عشرون قدماً، وهذا يعني اثنتي عشرة ذراعاً تقريباً. والمسافات بين مراكز الحراسة طويلة جداً. يمكن أن نسحب خنجرينا وسكينينا بلحظة...". انتبه وهيمي فجأة إلى أن نَفَسَه قد انقطع، فصمت. وفي أثناء تنفسه بعمق، سأله كمال بقلق: "هل أنت بخير يا آغا؟".

"بخير، بخير...". ونـــزل وهيمي بقبضته بقوة على صـــدره. "لا تشغل بالك يا بني. سبع وخمسون سنة ليست قليلة. حسنٌ، وأنا كنتُ مثلك في العقد الثالث من العمر في زمن ما".

صحح كمال بهدوء: "في أواخر العقد الثالث، السنون تمر علـــيّ أيضاً بالسرعة نفسها يا وهيمي آغا، أنا لا أراوح مكاني. بلغتُ السابعة والثلاثين بالضبط".

سأل وهيمي باستغراب: "بلغت كل هذا يا ولد؟ المهم، إنـــك في العقد الثالث".

قال كمال وهو يضحك: "لا تستهلك قوّتك علـــى لا شـــيء. أبراج أجراس الكنيسة تبعد ميلاً إلى الأعلى، وتُرى بصعوبة. إذا تجاوزنا الجدران من هذه النقطة، فمن الممكن أن نصل إلى باحة الكنيسة مـــن دون أن نتوه في طريقنا".

قال وهيمي: "هيا إذاً!". وتحرك. وبـــدأا يغـــرزان خنجريهمـــا وسكينيهما بالفراغات ما بين الحجارة اللينـــة، ويصـــعدان بصـــحبة الصمت.

* * *

كانت قناديل الكنيسة منارة، ويسقط على أحـــواض الفســـحة الجافة ضوء شاحب أحمر وأزرق ينبعث من نوافذ الزجاج المعشّق. من الواضح أن هناك من يدعو في الداخل. كان وهيمي يعـــرف بحكـــم تجربته أن لديه خيارين في حال كهذه؛ إما أن يسير نحو الهدف مستفيداً من دهشة العدو، أو أن يبحث عن فرصة مناورة من طريق غير مباشر. لا يمكن أن يثقا .كثيراً بإمكانية الدخول وإحداث مفاجأة برائحتـــهما هذه. لهذا سيكون من المناسب أكثر الصعود إلى قبـــة الكنيســـة مـــن الخارج. ثم إن واجهـــات الطـــراز القـــوطي المتـــأخر في الكنـــائس

الفرنسيسكانية مساعدة جداً بسبب البروزات العبثية الكثيرة الموجودة فيها.

كان ثمة مشاعل في الباحة، ولكن الجناحين الشمالي والجنوبي كانا غارقين وسط ظلام دامس. اتفقا بعيونهما، واتجها نحو الشمال في اللحظة نفسها. وصل كمال إلى القبة قبل وهيمي. ولكنه أراد أن يترك شرف فك الصليب لمعلمه. قطع وهيمي الأربطة الفولاذية التي تثبت الصليب بمهارة كبرى بواسطة السكين التي كان يمسكها بأصابعه بقوة، وقبل أن يضغط على الصليب بدأ يهتز. ثم بدأا يفتلان الصليب في الوقت نفسه لاقتلاعه من حيث يثبّت في القبة. ضغطا عليه، ولم يقاوم الذهب -المعدن الثقيل واللين- كثيراً، وكُسر مصدراً أنيناً من حيث يُثبت.

ربطا الصليب البالغ ارتفاعه متراً ونصف، والبالغ عرضه متراً من الجهتين بالحبال التي كانا يحملانها على كتفيهما، وأنزلاه من واجهة الجهة الشمالية أيضاً بصمت لم يتخيلاه.

قال وهيمي وهو ينظر إلى كمال نظرة طفل محببة: "حسنٌ، لنترك الصليب الآن أمام الباب، ولنهرب. يجب أن نرى حالتهم في الصباح...".

عارض كمال قائلاً: "ما المناسبة؟ سآخذه معي".

تجمد وهيمي وهو ينظر إلى كمال. كان من الواضح أنه لا يصدق أذنيه. توصل إلى نظرات الشاب الخاوية من التعبير بمساعدة الضوء الشاحب الواصل من باحة الكنيسة. "وهل هذا وقت اللهو يا ولد؟ هيا امشِ".

"من يلهو يا آغا؟ سأرمي هذا عند قدمي سليمان خان. أنت عرضت مهارتك، وقد حان دوري...".

"لا تجن يا ولد! سنتعذب كثيراً بحمل هذا الشيء من فوق الجدار، ثم إن الوقت يمضي ضدنا... وإذا أخذناه، فكيف سنسحبه عبر القناة؟

هيا تحرك، ولنخرج من هنا... إذا قبضوا علينا فسيسلخون جلدنا ونحن لا نـــزال على قيد الحياة".

لم يبالِ كمال بما قاله معلمه: "لن نواجه أيّ مشكلة إذا وصـــلنا إلى القناة؛ إذ إنّ مستوى الماء منخفض. ستكون محقاً لو كان الماء يملأ القنـــاة يا آغا. أنا محق الآن. يكفي أن تلحق بـــي". فور انتهاء كمال من الكلام، حمل الصليب البالغ وزنه أربعين أوقية على ظهره، وبدأ يركض عبر القلعة في الطريق الذي أتيا منه. إنه يستحق المشاهدة. كان وهيمـــي يعـــرف أن "كمال" شابٌ قوي، ولكنه لم يتوقع أن تصل قوته إلى هذه الدرجة.

ولكن حادثة أخرى حصلت وجعلت أورخون جلبـــي يفتح فمه دهشة. فحين وصل كمال إلى قرب الجدار توقف، وأنـــزل الصـــليب عن ظهره إلى كتف وهيمي. ثم لم ينحدر إلى الأسفل نحو نقطة الخروج على بعد ميل، بل نحو باب القلعة الداخلي. لم يفهم وهيمي بعـــد مـــا يجري. وحين أراد أن يفتح فمه من أجل السؤال، التفت كمال واثقـــاً بنفسه، وقال: "اتبعني فقط يا آغا!". وبدأ يسير بخطوات سريعة. وجّه الشاب شفرة خنجره نحو الأعلى، وأخفاه خلف ذراعه. سار وهيمـــي وراءه وهو يقول لنفسه ويقضم شفتيه: "لا بدّ أن يكون هذا الولد قـــد جنّ... نعم، نعم... هذا الولد أسوأ مني...".

كان هناك حارس واحد يقف عند باب القلعة الـــداخلي، ومـــن الواضح أنه مفرط بالشرب، وقد غط بالنوم، حيث إنه كان يستند إلى مصراعه السميك. ولأن رائحة الرجلين الضخمين وصلته قبلهما، فقد انتفض مشمئزاً. كان الجندي يرتدي لباساً عسكرياً مجرياً قـــديماً مـــن الجلد الأسود، ويرتدي فوقه درعاً من صفائح البرونـــز. مد الســـيف العريض نحو الأمام بتردد، وصرخ بالألمانية: "قف!". لم يتوقف وهيمي وكمال، بل وصلا إلى جانب الحارس المندهش الذي تصل ياقة ردائـــه

المرتفعة حتى رأسه. وقبل أن يفتح الجندي الثمل فمه مجدداً، قال كمال بلغة ألمانية صافية: "وباء. افتح الباب فوراً أيها الحارس بأمر من النبيل فون ريشتهوفن! سنطلق هذا الأسير التركي المصاب بالوباء إلى مقر قيادة جيشه! هيا، لا تتمهّل!".

كرر الحارس الألماني: "وباء؟". وتراجع بخوف لا يمكن وصفه محملقاً بعينيه الداميتين، والتقط الصليب المعلق بسلسلة تتدلى على صدره، وقبّله وهو يكرر: "قلتم وباء!". ابتلع الطعم على الرغم من عدم بقاء أي أثر من سكره.

صرخ كمال بحدة: "وباء! افتح الباب بسرعة!".

مد الحارس نفسه نحو الخشبة الغليظة المثبتة على الباب، ورفعها بسهولة. "خُذا هذا الرجل بعيداً أيها القائد حباً بالله... ما هذه الرائحة؟ ولكن الأسرى لا يوضعون في القلعة الداخلية، هل فقدت عقلك؟ كيف جلبتماه إلى هنا؟".

"جُلب إلى هنا قبل مناوبتك أيها الأحمق. استجوب النبيل فون ريشتهوفن هذا السافل بنفسه. ابتعد من الطريق الآن!".

انطلقا بخطوات سريعة في الطريق المؤدي إلى القناة قبل أن يجد الحارس المندهش الفرصة ليفكر في الموضوع مليًّا. سمعا مصراعي الباب الثقيلين يغلقان خلفهما بصخب. اعتقد وهيمي في اللحظات الأولى لخروجه من الباب وهو متلاحق الأنفاس أن قلبه سيخرج من صدره، واعتقد أن "كمال" سيتوجه هذه المرّة نحو الباب الرئيس، ولكنه لم يستطع استجماع أنفاسه للتعبير عمّا يجول في فكره. قال لنفسه في الطريق: "أنا انتهيت. ولكن الولد لم يتوقف لحظة منذ أن حمل الصليب مجدداً على ظهره. حان وقت التقاعد، ومضى يا وهيمي! وإلا فإنك ستموت في أحد هذه الجحور...".

أنـــزل كمال الصليب عن ظهره عند مدخل القناة، وقفز نحـــو الباب فوراً: "تعال وساعدني يا آغا! سأوارب القضبان مـــن المكـــان نفسه، وأنت ادفع الصليب تحته، هيا!".

وخلال عدة دقائق غابا في ظلمة القناة ذات الرائحة البشعة.

* * *

في الدقائق الأولى لضياء الشمس في اليوم التالي، رأى المـــدافعون الصليبيون صليبهم الذهبـــي مربوطاً إلى رمح إسباني طويـــل بقـــوة، ومزروعاً في الصفوف الأولى للجيش العثماني. وكان الجنود الأتـــراك يلهون حول الصليب، والفرقة الموسيقية العسكرية تعزف لحناً مرحـــاً، فيما الفرسان يتلاعبون بالرمح. بدا أنّ الأتراك بدأوا باحتفالات النصر باكراً. شاهد جنود التحالف هذا الوضع غير العادي من خلف مسننات الأسوار ومنافذ الرماية بعيون محملقة فترك الجنود المجر أسلحتهم بداية. وحين تجاوز التوتر بينهم الحدود، أدرك القائد فون ريشـــتهوفن عـــدم جدوى المقاومة أكثر ضمن هذه الظروف. لم يخرج من القلعـــة حـــتى الظهر على الرغم من وجوده على رأس البعثة ذات الراية البيضاء الـــتي شكلها من أجل مناقشة شروط الاستسلام.

IV

28 آذار 1544

ما إن طل الربيع بوجهه على بيت العرش بعد شتاء مثلج، حـــتى عاود الثلج الكثيف الهطول مجدداً في أول سبت مـــن شـــهر محـــرم. وعندها، جفّف الجليد المتشكل مساء أغصان أشجار الفاكهـــة الـــتي تبرعمت حديثاً. وعلى الرغم من مثابرة ســـلطان الســـلاطين علـــى

التدريب الصباحي كوالده، فإن ألماً شديداً كان يدب في عضلاته، لذا انـــزوى في جناحه ليرتاح. وطلبت السلطانة حُرّم إذناً عن طريق آغـــا دار السعادة لكي تذهب إليه.

استيقظ السلطان للتو من غفوة خفيفـــة، فجـــدّد وضـــوءه باستعمال الطست والإبريق اللذين جلبهما آغا الأباريق، وجفـــف جسده بالمنشفة التي جلبها آغا المناشف، وأمر مسؤولة الفتيات قائلاً لها: "سُمح!".

جاذبية السلطانة حُرّم المقاومة لتأثير السنين الهدام بطريقة عجيبة لم تفقدها خصوصيتها بصفتها محظية السلطان سليمان الوحيدة. دخلـــت سيدة السيدات الغرفة وهي تهفهف بأطراف ردائها الطويل المـــذهب، والثوب المفتوح من الأمام. وكانت خطواتها القصيرة تعكس طبيعتـــها الحازمة والجريئة.

رائحة المسك والعنبر التي فاحت في الغرفة مع الظلمـــة الخفيفـــة ليلكيّة اللون أدت إلى شعور حُرّم بالقلق. لم يكن نور الثلج المنبعث من النوافذ على المقعد الطويل يكفي لإنارة الغرفة كلها، ولم تكن المصابيح منارة باستثناء بعضها القريب من الباب ذي القوسين المتداخلين؛ وكأن السلطان يريد أن يرى الداخل من دون أن يُريه نفسه.

قالت وهي تنظر إلى وجه سلطان السلاطين بقلق: "كنتم على ما يرام في الفترة الأخيرة. وبفضل فتوحاتكم المتعاقبة، وتفوقكم الســـاحق على كارلو وشقيقه فرندوش عاد إليكم مزاجكم قليلاً. ولكنني أراكم اليوم مضطربين. فهل ما يحرق قلبكم هو الشوق الأبدي لأميرنا محمـــد يا سلطاني؟".

تكلم سليمان خان وسط ظلال الضوء المرتجف، وقد لمعت على وجهه نقط الماء: "ذلك الألم لا يهدأ أبداً يا حُرّم. فأنا لا أمضي لحظـــة

من ليلي أو نهاري من دون أن أفكر فيه. كان شهماً يستحق أن يحكم العالم. كان ابني وصغيري؛ من لحمي ودمي...".

كان صوت حُرّم خافتاً كأضواء قناديل الغرفة المعتمة قليلاً: "كان محمد بكري يا سلطاني، ابني الأول. وكم كانت ولادته صعبة! كم تحمّل من الصعاب لكي يقوي بنيته الرقيقة، وكنا نرتجف بشكل واضح قلقاً من كل ما يؤثر في صحته؛ حتى تعليمه... ولكن قدرنا أن نتحمل؛ ولو كان هذا مؤلماً. الآن لديك الأمير سليم سيد سنجق مانيسا ليحل محل شقيقه المرحوم محمد خان، والأمير بيازيد سيد سنجق غرميان، والأمير جيهان غير الذي لم يقبل بترككم بأي شكل نتيجة عمق محبته لكم يا سلطاني. كل منهم جوهرة لا مثيل لها يا سلطاني. وهم أيضاً يقدّمون أرواحهم من أجل إسعاد دولة والدهم. لن تبقوا مشغولي البال في أي وقت بإذن الله".

قال سليمان خان بجدّيّة: "الله مالكي ومالك هذه الدولة. لن يُشغل بالي أبداً". التفت، وبينما كان يسير لكي يجلس على مقعده مجدداً، وقعت عيناه على المرآة الكبيرة المفضضة والمرصعة. نظر إلى ملامحه لفترة بصمت، وهو يحرّك رأسه بخفّة نحو اليسار ونحو اليمين. إنه يغضب من موقف حُرّم الحريص في ما يتعلّق بأبنائها، ولكنه لا يريد أن يجرح زوجته أو يتسبب بصراع ملموس بينهما.

لأنه إذا بدأ فم حُرّم يُزبد، ووجها يعبس، فستستمر هذه الحال حتى ييأس سليمان خان. وكانت حُرّم مدركة هذا جيداً، ومسرورة من هذا الوضع. لقد أدركت أن عقدها العصية على الحل ككل الصبايا، تساهم بمحافظتها على نضارتها لدى هذا الرجل. لأن سليمان خان بتصرفاته المهذبة، ورقة قلبه يريد أن يتحمل بعض عذاب حبيبته مثل كل الرجال. وبفضل هذا تتغلب حُرّم في كل مرّة على رجلها.

وعلى الرغم من أن السلطان أشعرها بحساسيته نحو موضوع أولاده في كثير من المرات بشكل غير مباشر، ولكنه رأى بحزن أن هذا لم يفد.

إنّ مصطفى خان الذي يقوم بوظيفة سيدّ سنجق أماصيا حالياً هو الأحق بالجلوس على العرش. فحسب تقاليد الدولة القديمة، من المفروض أن يكون الأمير الأكبر سنًّا ولياً للعهد. ولكن، وفقاً لتقاليد الأتراك المغول، يمتلك كل الأمراء الحق بالجلوس على العرش. سيظهر جناب الحق إرادته بشكل أكيد. ولكن السلطانة حرّم تتجاهل أميره ولي العهد الغالي مصطفى خان، ابنه من ماهدة فران منافستها الأزلية، كما تتجاهل شعوره بمحبته غير المحدودة له التي تزداد من يوم إلى آخر، وتحرقه لإيجاد وسيلة تمكّنه من رؤيته.

من غير الممكن أن يميّز بين ولد وآخر. كلما رُوِي للسلطان مدى شبه أميره مصطفى بالشكل والمواقف من جده السلطان سليم خان الجبار، كان يؤيد الكلام بمتعة، وتغمره سعادة سرية لأنّ الدولة ستكون في يدٍ أمينة.

ألقى سليمان خان نظرة على الفخامة التي تحيط به. كانت مرشات ماء الورد ذات رقاب البجع التي رصعها بيديه، والأطباق الفرعونية المذهبة والمفضضة مصفوفة على رفوف مطعمة في خزانتين من صنع أدرنة قريبة جداً منه. وتمتد بجانبها رفوف عريضة عليها زهريات ونياشين لا تقدر بثمن، وخزف تاريخي جُلب من سمرقند وبخارى، وكريستال بندقي لا مثيل له، وأوانٍ زجاجية. قال سليمان خان لنفسه: "يمكنني الآن بعدة ضربات أن أحطم متعتي الخاصة بهذه الأشياء بشكل لا يمكن إصلاحه. ولا أحد يستطيع مساءلتي في هذا الأمر... كيف يمكنني أن أشرح لكل من حولي من الأصدقاء والأعداء، وعلى رأسهم مع الأسف حُرّم بأن هذه الفخامة كلها لا تساوي لدي

مثقال ذرة، وأن الدنيا كلها عبارة عن أمر تافه؟ حباً بالله، ماذا يساوي ما أمتلكه مقارنة بولد جيد؟".

سأل زوجته التي جلست على طرف المقعد تبكي بصمت لدى تذكرها ابنها محمد بعد أن دقق بوجهه الشاحب لفترة: "هل تغيرتُ كثيراً برأيك يا خُرّم؟".

جففت خُرم عينيها المحمرتين بمنديل حريري، ورفعت رأسها وعلى وجهها يبدو تعبير اندهاش: "بأي معنى تفضلتم يا سلطاني؟".

"أنتِ ماذا فهمتِ؟".

حاولت خُرّم أن تشد نفسها، ولكنها لم تستطع أن تمحو من صوتها نبرة عدم الصدق تلك الشبيهة بمواقف المراءاة العادية: "أنتم كما أنتم منذ اليوم الأول لمعرفتي بكم يا سيدي...". كان ثمة فراغ كبير عميقة في نظراتها المختبئة في الظلمة الخفيفة: "الحمد لله أن السنين وتلك الطرق الصعبة التي قطعتموها في الحملات لم تؤذكم".

قال سليمان خان وكأنه يهذي في نوم عميق: "ليست السنون والطرق ما أتعبني يا خُرّم. أتعبني الرياء والمراءاة والكذب من حولي. الجميع يفكرون بأنفسهم أولاً، وينتظرون مني أن أفهمهم. وهذا ما أفعله دائماً...". رفع يده بعدم مبالاة، وأنزلها. "أحاول فهم كل من حولي، وكل ما يجري من حولي، وأسبابه ونتائجه، ولكنني لا أستطيع يا خُرّم".

قطّبت المرأة عينيها اللتين تشبهان بئرين زرقاوين، وقالت بصوت منخفض: "هناك شيء آخر يضايقكم".

شدّ السلطان نفسه من دون أن يجيب، ثم سار نحو النافذة المغطاة بالبخار الخفيف لكي ينصت للمدينة التي صمتت تماماً بعد هطول الثلج في غير وقته.

سألت حُرّم مجدداً: "ما هو يا سليماني؟ يا سيدي الذي لا مثيل له في العالم... احكوا رجاء!".

تنهد سليمان خان بعمق، ثم تمتم بصوت متحشرج: "حدث أمر في الديوان، لم يسمع بمثله من قبل يا حُرّم".

حملقت حُرّم بعينيها اللتين قدحتا صواعق، وسألت: "خير إن شاء الله، ما هو؟".

خيّم صمت طويل. وبعد فترة، سألت حُرّم بتعبير شخص يستصعب التصديق وكأنها تكلم نفسها: "كيف يحدث هذا؟ الصدر الأعظم باشا قارب الثمانين من عمره، كيف يقدم على قلة أدب كهذه وهو على حافة قبره؟ السكوت عن هذا جرم كبير لأنه سمح بهذا".

"مع الأسف، إن هذه الحادثة المحزنة جرت أمام عيني. أردت أن أحطم *قصر العدالة* الذي كنت أستمع منه للديوان من الخلف، وأقفز حاملاً سيفي يا حُرّم، ولكن وجودي شخصياً وسط سفالة كهذه كان سيوترني أكثر".

"ما الذي ستفعلونه يا سلطاني؟".

ضحك سليمان خان بصوت مؤلم: "برأيك، ماذا يجب أن أفعل؟".

أحنت حُرّم رأسها باحترام: "الأمر لسيدنا".

"سينفى الاثنان. لا شك أن وزيرنا الثاني سيد سادة اليمن والحبشة أوزدمير باشا سيكون وزيرنا الأعظم. وقد صار الخاتم السلطاني في الطريق".

"لابنتنا الوحيدة السلطانة مهريماه رجاء في هذا الأمر يا سيدنا".

توتر سليمان خان في الغرفة الظليلة وهو يحاول أن يكبت غضبه الذي رقق شفتيه كالخيط. "بأي أمر؟".

"ترغب بأن تقوله هي شخصياً".

"هذا يعني أن ما حدث في الديوان قد وصلكما".

قالت حُرّم: "أجل". ثم سمع سليمان خان أنفاس حرّم تنقطع قبل أن تقول مصححة: "أقصد أننا سمعنا بعض الأمور، ولكننا لا نعرف التفاصيل يا سلطاني".

انفجر السلطان منبئاً بعاصفة كبيرة تسمع من أعماق بعيدة لم تصل بعد: "هل خططتما -أم وابنتها- لشيء؟".

"سيدنا...".

"يكفي. تعرفين يا حُرّم حساسيتي تجاه أولادي...".

"سلطاني...".

"اسكتي. لا تحاولي استغلال ابنتي في ألعاب القوة القذرة التي تلعبينها...".

"سليمان...".

"اسكتي. سائس الخيل القبيح رستم ناجح جداً في قلب الجو. بقيت أيام سقاية رستم لخيولك في الماضي يا حُرّم. أعطيتُ هذا السائس القبيح التافه ابنتي، وجعلته *باشا* بناء على رغبتك. قبلته صهراً على الرغم من أحاديث الرشى التي لفت ديار بكر، وجعلته وزيراً ثالثاً كرمى لك ولابنتي. أنا على علم بأنه وراء تحريض خسرف الأرناؤوطي وسليمان باشا العجوز كل منهما ضد الآخر. وهو من أوصل إلى خسرف معلومات خاطئة ومختلقة. لا يمكن لرجل عنده كرامة كسليمان باشا أن يتحمل اتهامات كهذه، ولا يُعد غير محق بردة فعله على توسيخ اسمه وهو على عتبة التقاعد".

انكمشت حُرّم كثيراً وهي تحاول هضم ما سمعته، ثم نظرت إلى عيني زوجها الغاضب من خلال دموعها التي بدأت تسيل.

بدأ سليمان خان يصرخ فجأة: "أنتِ ومهريماه تقفان وراء هــذا كله! أنا أكرّر يا حُرّم، لا تحاولي توسيخ أولادي بهذه القذارة!".

لا تبتلع حُرّم هذا الكلام بسهولة في الظروف الطبيعيــة. فهــم سليمان خان أن التفوق في هذه النقطة بيدها. لا يمكن لحرم أن تخطــو خطوة إلى الأمام من دون لعب ورقة مهريماه ورستم.

قال سليمان خان لنفسه: "هذا يعني أنها أخرجت وهيمــي مــن الوسط عندما رأت أنه قريب مني. الآن حليفها وشريك سرها سائسنا رستم. كان يجب ألاّ يغيب الرجل الذي أهملناه أكثر من اللازم عــن عين وهيمي".

* * *

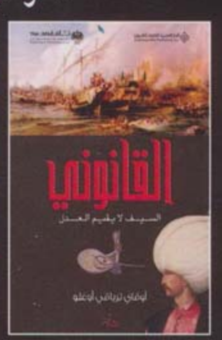
ولكن سليمان خان لم يتوقع أن يتهرب الوزير الثاني أوزدمير باشا الذكي وصاحب الفراسة من دخول صراع مع رستم المرائي بعــد أن تأججت آماله بالصدارة. وصلت مواقف رستم باشا والسلطانة حُــرّم الصلبة إلى أوزدمير باشا منذ زمن، وشعر أنه سيخسر ذات يوم مكانته وملكه، ثم رأسه نتيجة هذه اللعبة القذرة. لذا، أعاد الخاتم السلطاني مع رسالة يبلغ فيها أنه يرغب بالبقاء في مهمته الأفريقية، وأنه يتنازل عــن هذه المهمة العظيمة، وتأمل أن يتفهمه سليمان خان، وهذا ما حــدث. بالنتيجة، مهما كان السلطان غير مسرور، فإن المرحلــة بعــد ذلــك ستكون مرحلة رستم باشا والسلطانة حُرّم.

تقدّم هذه الرواية **السلطان سليمان القانوني** كأقوى سلطان بين سلاطين بني عثمان. ويسمى عصره بالعصر الرائع؛ ففيه تمت أعظم الفتوحات من بلاد فارس حتى فيينا كما تأسست في هذا العصر شبكة التجسس القوية التي تدعى الهلال الفولاذي والتي برز قائدها وهيمي بفضل دوره المهم في حل المشكلات؛ إذ تراه يظهر في كل مأزق.

أما **السلطانة حرّم**، زوجة السلطان سليمان التي كُتب عنها الكثير، وشغلت الكثير من المؤرخين فهي حاضرة أيضاً في هذه الرواية؛ بطموحها وسعيها لاكتساب المزيد من القوة والتحكم والقيادة.

إنه بحق العصر الرائع؛ ففيه الكثير من الأسرار والرؤى؛ مثل أي عصر ذهبي لأي امبراطورية مرت في التاريخ... يحاول الكاتب في هذه الرواية أن يكشف الستار عن أسرار هذا العصر بأسلوب روائي مشوّق.

اقرأ أيضاً:






ISBN 978-614-01-0705-2


9 786140 107052




TIMAŞ

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع **نيل وفرات.كوم** www.neelwafurat.com - www.nwf.com